مؤلفات الفريد فرج

٩

أيام وليالى السندباد

ليالى عربية



مؤلفات
ألفريد فرج

مؤلفات
الفريد فرج

روايـــة

□ أيام وليالى السندباد

قصص قصيرة

□ ليالى عربية



١٩٨٩

رواية

أيام وليالى السندباد

مقدمة

في ألف ليلة وليلة تروى حكايات السندباد البحرى بضمير المتكلم .. ومع ذلك تخلو هذه الحكايات من الحديث عن حياته الشخصية ، عن حبه وعن أهله وعن مقامه بداره في بغداد وتجارته في السوق وعلاقاته في المدينة !

وكان السندباد اذا صادف الأخطار والمهالك في البحر يعاهد الله والنفس انه اذا نجا وعاش وعاد الى بلاده لا يرجع الى السفر في البحر أبدا ..

فاذا عاد وأقام بداره لا يلبث أن يخون عهده. ويعاود السفر في بحار الله وبلاد الله ..

فما الذى كان يعذبه ويضجره ويضنيه فى البر ٠٠ حتى تهون عليه أهوال البحر ؟!

هذه هى قصة السندباد كاملة ٠٠ فى البر والبحر، أمام الحياة والموت ، الحب والهجر ، الوفاء والخيانة ، الثروة والفقر، الحلم والحقيقة ، غرائب الطبيعة وغرائب المجتمع والناس ٠٠ ما حدثتنا به ألف ليلة وما لم تحدثنا عنه ألف ليلة ٠٠ ما أباحته لنا وما أخفته عنا وحجبته ٠

هذه أوراق السندباد كاملة وحياته الشخصية كما عرفتها من بين سطور ذكرياته ٠٠ ما عرفناه عنه وما لم نعرفه بعد ٠٠ الصفحات الباقية والصفحات التى كانت ضائعة !

ا٠ف

الفصل الأول :

السرقة

أنا الملاح العربي المغترب عبدالله بن عثمان الشهير باسم السندباد البحرى ·

أروى لكم سيرة حياتى ··

وسيرتى هى حكاية اغترابى فى بحار الدنيا السبعة، واغترابى فى بلادى وفى عقر دارى ·

صادفت فى أيامى الغرائب والعجائب ، وسافرت فى البحار المجهولة ·· ولكننى كنت أعجب أيضا من نفسى ومن الناس ، ومما تنطوى عليه النفوس من أغرب النوازع الرحيمة والنوازع الخطرة ·

تاجرت باللؤلؤ والجواهر الثمينة ، فما اكتسبت فى حياتى أثمن من معرفتى بنفسى وبالناس الآخرين ·

ركبت الأهوال والأخطار ، وتعرضت للرخ والغول

ويونس الزجاج .. وقد آلهاهم انهماكهم فى تسقط الحيتان والمتوحشين .. فما عانيت آكثر ايلاما وأفظع هولا من ظلم الانسان .

فى كل مرة واجهت الهلاك فى البحر أقسمت أن نجانى الله وأعادنى سالما الى بلادى .. لا أعاود ركوب البحر مختارا ماحييت .

وفى كل مرة عدت الى دارى عانيت الملل والجحود والغدر وتقلب أهواء الناس .. فهربت الى البحر من همى ومن عذابى ومن خوفى من غيرى ومن خوفى من نفسى .

ان سيرتى ليست حكاية عن الدنيا آرويها لكم من بعيد ، وانما هى حكاية عن نفسى وعن الناس الآخرين .

***

لم أكن قد تجاوزت السابعة عشرة من عمرى حين مات أبى ، وخلف لى مالا وضياعا وعقارا ..

فلما وضعت يدى على الثروة عاشرت الخلان والصحاب وتجملت بالجواهر والثياب ، وعشت بقصرى فى حارة الكرخ ببغداد حياة اللهو والبذخ ، وأضأت ليلى بالمسرات وأغرقت أيامى فى الملذات .

ذات ليلة من تلك الليالى الصاخبة أحاط بى

أصدقائى ورفاق أنسى من زينة شباب العرب : على ابن شهبندر تجار بغداد ، والحسنى ابن شيخ السوق ، وأسعد الحريرى ومحمد الخيام واسماعيل البصرى ويونس الزجاج ‥ وكل منهم يزهو شبابا ونضارة وثراء ، كأنهم النجوم فى السماء ٠

وما اجتمعوا عندى ، ورافقونى فى سهراتى الا لما اشتهرت به أمسياتى من غناء وطرب ورقص ومرح وطعام وشراب ‥ لحسن ضيافتى وصدق محبتى ٠

اجتمعنا تلك الليلة من ليالى الانس فى قاعة قصرى فأكلنا أطيب الطعام وشربنا أجود الخمر ، وأخذت بألبابنا ألحان العازفين وايقاعات الرقص ، وتسامت بنا النشوة الى أعلى سماء ‥ حتى ذهلنا وبهتنا وصار ضيوفى يتصايحون بغير حساب :

ـ ليس أزهى من أمسياتك فى بغداد كلها يا عبد الله ! ‥٠

فقلت مكابرا :

ـ فما تقولون بعد استماعكم الغناء فى بيتى ؟

فتسابقوا الى الصياح :

ـ آه من الغناء فى بيتك ! ‥ هات وعجل ! ‥

فتمايلت اعجابا بنفسى ، وصفقت بيـدى صفقة واحدة انشقت لها ستار القاعة ، واندفعت خلال الشق جاريتى « حياة » ·· وتوسطت القاعة وقد حفت بهـا الراقصات يتثنين على وتائر ايقاع العزف ·· لترتقى سلمه « حياة » بصوتها القوى العذب، وأصوات العازفين من حولها تشد انطلاق صوتها المتدفق وهى تنشد :

ما كنت الا حلما
رأته عينى فى الوسن
يا سمح الفعل ويا
أحسن من كل حسن

فما جهرت حيـاة بصوتها ، ورمت ذراعيها تريد بلوغ الغاية من لحنها ·· حتى شق أصحابى الجيـوب ورموا العمائم وأطلقوا الأهات والصيحات :

ـ ليس فى بغداد كلها مثل هذا الغناء ! ·· ولا مثل هذا الرقص ! ·· لله درك يا عبد الله ! ·· جعل الله ذنوبك كلها عـلى ، أحاسب عنهـا بدلا منك فى يـوم القيامة ! ·· جعلنا الله مستحقين لمودتك وفضلك ! ·· أو نستحق ؟!

سمعت الصيحة الأخيرة بالسؤال فأخذتنى النخـوة وصحت فوق صياحهم ، وبأجلى من العزف والغناء :

ـ نعم يا أصدقائي وندمائي وأضيافي ٠٠ ولأثبت لكم صدق محبتي أهديتكم راقصاتي فليختر كل منكم لنفسه جارية وهي له ٠

فطاش صواب القـوم ، واقتحموا الموائد ونظام الرقص ووضع كل منهم يده على احدى الراقصـات ، والراقصات يصرخن بدلال ويتكلفن الجزع ٠٠

٠٠ الا أسعد الحريري لم يبرح مكانه ، وعينه ثابتة على مغنيتي « حياة » ٠

ـ والمغنية ؟

سألني بلهفة ٠٠ وهي تقعـد جنبي ٠ احتضنتها بذراعي فقربت مني شفتيها ولثمتهما وقلت لاسعد :

ـ لا ٠٠ فهذه حبيبة روحي وخليلة نفسي وحيـاة قلبي ٠

فزفر أسعد الحريري زفرة صريحة اشمأزت لهـا نفسي ٠ ومسحت « حياة » جبيني الملتهب بصفحة كفها وقالت بصوت رخيم :

ـ سكرت يا عبد الله ٠

نظرت حولى وانقبض قلبى فجأة ، وقلت لها :

ـ نعم • فكم أنا وحيد !

***

دقت الأجراس من حولى واقتحمنى الهلع • فقاعة أنسى وبهجتى •• أحتل الدلالون أرجاءها يدقون أجراسهم ويدللون للمشترين على متاعى وآثاث بيتى !

وعلى دقات آجراسهم المشئومة يغشى على وآفيق لأشهد بعينى رآسى حالى يحول ، ومالى يذهب ••

ضاع كل ما أملك بأسرع مما يجف الماء فى قيظ الصحراء • أخذتنى الدهشة واستبد بى الروع • كل شىء أحببته فى حياتى ينادى عليه الدلالون ويتزاحم حوله التجار وعابروا السبيل ويشترون !

والذى يباع ويشترى فى خاطرى ليس الا لحمى ودمى ونفسى وذكرياتى وآيامى وسعادتى •

وفجيعتى كانت آوجع اذ آشاهد رفاق آنسى وأصدقاء شبابى وضيوف آمسياتى بين المتزاحمين يتسابقون على اقتناء متاعى •

•• على ابن الشهبندر ، والحسنى ابن شيخ السوق

•• أسعد الحريرى ومحمد الخيام واسماعيل البصرى

ويونس الزجاج .. وقد ألهاهم انهماكهم فى تسقط أثمن حاجاتى بأرخص الأثمان عن ملاحظتى أو حتى النظر ناحيتى .

وحول القاعة التى رجعت حيطانها أعذب الغناء والشعر والألحان .. كان الدلالون يجأرون بالصوت الأجش :

ـ كوفية النقش ، طولها عشرون ذراعا ..

خمسون طبقا من الفضة الصافية .. مملوك بملابسه ، مطرزة بخيوط الذهب ..

وفى ركن قصى نما الى سمعى صوت محمد الخيام يحث أسعد الحريرى :

ـ ماذا تنتظر ؟ ستضيع منك أحسن الأشياء .

فقال الحريرى :

ـ انتظر النداء على المغنية . هى وحدها بغيتى .

فتقطعت من الحسرات ، وغشى على لحظة لأفيق وأحد التجار ممن لا يعرفنى ممسك بملابسى يهزنى ويصيح :

ـ وهذا المملوك .. لا تبيعونه ؟

فقمت ودفعته فى صدره دفعة طرحته أرضا ، وتباعد المحيطون بنا من الذعر وأنا أصرخ :

ـرح فى داهية !

واضطرب الحال ، فتجمع الدلالون حولى يمنعوننى عن التاجر ويتلطفون بى ، وشيخهم يقول :

ـ رويدك يا سيدى .. يكفيك !

***

مالت الشمس ، وقد خلت القاعة تماما فاذا هى ملساء ليس بها شىء قائم .

ولم يبق أحد ، ذهب الجميع بكل شىء .

راح الأثاث والجوهر من بعد الدكاكين والعقارات والضياع والمال ..

وبقيت وحدى فى قاعتى غير مصدق .. و «حياة» بقيت لى معى ، قاعدة فى الركن القصى من القاعة تنظر الى ، وقد تجردت من حليها وزينتها واتشحت بوشاح خفيف هو كل ما بقى لها ، وعودها الذى اسندته على فخذها ، وظلت تنظر مستطلعة .

ولما مضت ساعة لا أكلمها ، ولا نسمع فى قاعتنا نأمة ، احتضنت العود وضربت وترا رجعت صداه

الابهاء الخاوية ثم عزفت لحنا فيه شجن ، وغنت بصوت ينفذ الى القلب :

سلم الأمر للقضا
فهو للنفس أنفع
كل ما راح وانقضى
ليس بالحزن يرجع

ثم سكتت ، وأرخت جفونها ، فقلت :

ـ تغنين ؟!

قالت : بدلا من القنوط ·

قلت : لا بديل عنه ·

قالت : لا يموت الشباب فى مثل عمرك كمدا يا عبد الله ·

ـ فماذا يفعلون ؟

ـ فكر فى طعامك ·

ـ لم يعد تحت يدى ثمن وجبة طعام ·

ـ · · وفى طعامى ·

ـ أفكر فيما لا أملك ؟

ـ لابد مما ليس منه بد ·

ـ وما هو ؟

ـ تبيعنى بشىء تأكل به ··

ـ ماذا قلت ؟

ـ تبيعنى بشىء تأكل به ··

قلت : بعت كل شىء أحببتــه فى هــذه الــدار · الذهب والفضة · السجاجيد والأثاث والتحف والثياب · لكى احتفظ بك · أحببتك · انت ما بقى لى من مباهج هذه الدنيــا ، علاقتى بالحيــاة · انت ما بقى لى من حياة ··

قالت : أما أنا أو الحياة ·· اختر لنفسك ·

ـ أحبك ·

ـ عش من بعدى ولا تمت جوعا بى · هذا ما يقول أهل الزمان ··

صحت : ماذا يقــولون ·· أشترى بقلبى وجبــة طعام ؟!

★★★

هكذا مشت «حياة» ورائى الى السوق فى الصباح، وسـلمتها بيــدى للدلال ، ووضعت منديلى عــلى عينى ليشرب من دمعى وأنا أسمع نداءه :

ـ جمالها عذب ٠٠ وغناؤها عذب ٠٠

والناس يقولون : ثلثمائة دينار ٠٠ وخمسون ٠٠

ابتهلت الى الله بقلب صادق ٠٠ قلت : «يارب ٠ يقولون أن قتل النفس حرام وان قتل الغير حرام ٠ وقد قتلت نفسى وزدت فقتلت حياة ٠ فأنزل عقابك بى الساعة ولا تغفر لى شيئا من ذنبى » ٠

فاذا بالدلال يدفعنى فى صدرى بكيس فى يده :

ـ هاك ياسيدى ٠ خمسمائة دينار ٠٠

فرفعت المنديل عن وجهى ورأيت عينيها الدامعتين تنظران مليا فى وجهى ، نظرة خيل لى أنها مثقلة باللوم والعتاب ، فتفجرت بقلبى الحسرات ٠ ورأيت رجلا من خلال دموعى يقتادها من يدها ، عرفت فيه أسعد الحريرى نفسه ، فذهلت عن نفسى وعمن حولى ٠٠ لم أشعر بالدلال ، وهو يدفعنى ويجذبنى ويهزنى ويهيب بى :

ـ خذ مالك يافتى ٠ بارك الله لك فيه ٠

★★★

وجدت نفسى فى بيتى ، وبيدى كيس نقود ٠ أنكرت بيتى وأنكرت نفسى ، وداهمتنى وحشة

ونفرة من بيتى ومن نفسى فخرجت أهيم على وجهى .

لا أعلم كم مضى على من الوقت وأنا أذرع حارات المدينة وأسواقها كالتائه ، وبيدى كيس النقود !

ألفيت نفسى فى ساحة المسجد ، وقد قعد الشحاذون والدراويش والتائهون على الأرض مستندين الى جداره فى مساحة من الظل .

جلست بينهم وأسندت ظهرى للجدار ، فشعرت بأعضائى كلها تحن الى الأرض فتزحزحت قليلا لأرقد، ووضعت الكيس تحت رأسى .

لعلى نمت برهة .. فما شعرت الا ويد تسحب الكيس بقوة جعلت رأسى يرتطم بالأرض. قفزت واقفا، ورأيت اللص يشق الساحة المزدحمة وبيده الكيس فاندفعت وراءه وأنا أصرخ :

ـ السارق ! السارق ! .

ثم لم أعد أراه فى الزحام . لم أتبين هل انعطف فى زقاق أو اختلط بالهرج من حولى حتى تعذر على تمييزه بعد أن أخفى الكيس . وقفت فى موضعى أواصل الصراخ وقد تجمع حولى جمهور من الناس يظهرون الجزع والاشفاق . سمعتهم يقولون :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله ! ٠٠ كل يوم حادث ؟!
في وضح النهار ؟! ٠٠ لم يعد فى الدنيا آمان ! ٠٠

وبعضهم يسألون : كيف سرقت ؟

فتعلقت بالسؤال ، وأنا ما أزال أصيح :

ـ خطفوا الـكيس من تحت رأسى ٠ وأنا راقـد
سرقوه من تحت رأسى ! ٠٠

وآخرون يسألون :

ـ كم سرقوا منك ؟ ماذا سرقوا منك ؟ ٠٠
فتذكرت « حياة » ٠٠ وشققت ملابسى فى الساحة
بين الجمع ، وأطلقت العنان لحسراتى وبدوات غضبى :

ـ سرقوا كل شىء ! ٠٠ حياتى ! ٠٠

وبعضهم لا يزالون يسألون :

ـ هل تستطيع أن تتعرف على اللصوص ؟ ٠٠

فجر السؤال النجوم من عينى ، وعلى ضوء برقها
الخاطف رأيت وجوههم كأنها ضاحكة منتشية متشفية ،
من أول إسعد الحريرى ورفاق الندم ٠٠ الى هذا الخليط
الذى ازدحم حولى تلبية لصيحاتى ٠٠ ومن خلال الرياء
فى تلك الوجوه ، ووراء ما تتظاهر به من الجزع ٠٠

رأيت فى الوجوه هناء من لم يسرق ، وراحة من أخطأته الجناية ، وفضول من ينتوى الحذر والاحتياط ، وتطلع من يريد تزجية الفراغ ومعالجة الملل ، وروح التشفى التى يضمرها من يتهيـأ منهم لارسـال النصح للمجنى عليه ·· وكلهم من أبناء السوق المحيط بساحة المسجد، ويرددون :

ـ هل تستطيع أن تتعرف على اللصوص ؟ ··

فدفعتنى الشفقة على نفسى من شر الناس ·· الى التهور فى الاتهام ، فصحت بينهم :

ـ أتعرف على اللصوص ·· نعم أستطيع · ليست اللصوص بعيدة عن المكان أنتم اللصوص !

دفعنى بعضهم بأيد منذرة وهم يقولون :

ـ احتشم يا ولد ! ·· امسك يا وقح !

فتوهجت الساحة من غضبى ، ودافعتهم كأعداء ، وأنا أصيح بهم :

ـ لا أستطيع أن أتعشى بأكثر مما تتسع له معدتى، أو أشرب أكثر مما تحتمل رأسى ، أو ألبس أكثر مما تطيق سخونة جسمى ·· فكيف أفلست أيهـا اللئـام وضاعت ثروتى ؟!

فيم تبدد مالى وضاعت حياتى يا أبناء الحرام ويا أهل الغش وسوء الطوية واللصوص ! ..

ذلك اليوم ، فى تلك الساحة ، عاقبنى من لم أعرف .. عقابا طلبته بتهجمى ، واستحققته بجسارتى ، وسأذكره طول حياتى ..

الفصل الثانى

النار لا تحرق المؤمن

قادتنى قدماى الى سوق السجاد .. ودكان الشيخ مصطفى .

كان صديقا لأبى حتى آخر عمره . وكم تدللت بين ذراعيه وأنا طفل صغير .

تهلل حين رآنى ودمعت عيناه وهو يقبلنى .

قعدت أمامه على مصطبة بالدكان أحكى له خيانة الزمان والخلان ، وبين يدى كأس من الشراب المسكر لم تمسسه شفتاى .

فلما أتممت حكايتى هز رأسه متعجبا متأسفا وسألنى :

ـ أنا لك كأبيك يرحمه الله ، فلم لم تأتنى قبل اليوم ؟

هممت معتذرا وهو يسترسل :

ـ قبل أن تفلس • قبل أن تبيع أثاث الدار •• قبل أن تبيع الجارية التى أحببتها •• قبل أن يسرقك اللصوص •• لماذا لم تزرنى قط يا عبد الله ؟

ـ كرهت أن أضجرك بهمومى وحماقاتى •

ـ كنت أحملك صغيرا على كتفى • كنت ألعب معك ألعاب الطفولة فيضحك منا أبوك •• أنا وأبوك دللناك وأفسدناك •• هـذا مرضك يا ولدى • وهـو مرض لا يصيب الا أولاد الأثرياء • هل بقى عندك شىء ؟

قلت : لا شىء •

ـ الضياع والدكاكين ؟

ـ ذهب كل شىء •

ـ الجواهر والمال والتجارة •

ـ لم يبق شىء •

ـ لا تقنط يا ولدى • كان مال أبيك وراح بعد أبيك • لم تخسر شيئا تملكه بعد• اعلم يا ولدى انك لو كسبت مالا بيديك فلن يضيع منك بهذه السهولة أبدا ، وستحرص عليه ، وستجد ما تتمناه ان شاء الله •

قلت : ماذا أتمنى اليوم ؟

قال : ماذا تتمنى ؟! ·· أهذا سؤال ؟!

قلت : هذا هو السؤال · عندى هو السؤال ··

فنهرنى الشيخ صائحا : انس ما كان يا ولد !

الدنيـــا أرحب من كل أحـزانك ! ·· أتتزوج أحزانك ؟!

غص حلقي وأنا أقول :

ـ أين المفر من أحزاني ؟ ·· كل حجر في الدار ، كل قائم فى السوق ، كل بقعة فى بساتين دجلة ·· تثير حسرتى وتنسج خيوط أحزانى ··

ـ لا يا ولد ·· لا · لم تبلغ العشرين من عمرك بعد · لا تتلفت وراءك وانظر الى الامام · بدل مكانا بمكان وحياة بحياة · ارحل عن بغداد واتجه للبصرة أو للشام أو الى مسقط ·· وابدأ هناك ·

ـ نعم يا عمي ·

ـ سأعطيك بعض المال ·

ـ لا بربك ·· فما جئتك لهذا ·

ـ ولم لا ؟

ـ أعفنى ولا تخجلنى ·

فتح الشيخ عيناه عجبا :

ـ خجول انت ؟! لعن الله شـيطانك ! اترك الخجل يا ولد واقتحم الحياة ! ·· بجسـارة وقوة عزم اقتحم الحياة ! لا تكن أبدا خجولا أو ضعيفا أو مرهف الشعور اذا كنت تريد أن تذوق حلاوة الدنيـا اقتحـم الناس واقتحم الحياة ! ·· أنظر الى الدنيا فى عينيها واقتحم الناس والحياة ! ·· سمعت ؟! ·

قمت من عند الشيخ أحسن حالا وأقوى نفسا ·· فبعت دارى واشتريت متجرا بثمنه وأكتريت فى قافلة تقصد البصرة ·

اخترقت القافلة حوافى الأرض المزروعة والصحراء، فكأنها نفذت بين الضدين · وطابت لى وحدتى وعزلتى فى الرحلة وهدأت نفسى ·

وما وصلنا البصرة حتى انفصلت بأحمالى وتجارتى عن القافلة أشق السـوق فوجدتهـا عامرة بالدكاكين والبيع والشراء ، تتجاوب فيها أصوات الدلالين بنداءات بائعى المشروبات الباردة وأدعية الدراويش ·

وفى صدر السوق لافتة تدل على « الخان » · قصدته فاستقبلنى صاحبه « جابر » على الباب ·

ـ أهلا وسهلا بسيدى ومرحبا . أدخل للداخل وأنا أتولى عنك وضع الأحمال فى حاصل الخان ومحاسبة الحمالين ..

أقعدني فى صحن الخان جنب نافورة الماء فى مجلس ظليل وأمر لى بالشراب الحلو والقهوة ، ومضى عني فأفرغ حمولى فى حاصل الخان ثم عاد يبش بوجهى ويسامرنى .

ـ من أين قدومك ياسيدى ؟

ـ بغداد .

ـ زينة المدن وحاضرة الدنيا وبيت خيار الناس .

قلت : هل أطمع فى أن تجد لى دلالا نشيطا يساعدنى فى بيع تجارتى ؟

ـ سيكون لك ما تريد .

ـ شكر الله فضلك .

ـ .. ولو أنى كنت أظنك تركب البحر ..

ـ أركب البحر ؟! ..

رددت قوله كرجع الصدى . وكأنى لأول مرة فى حياتى أسمع عن ركوب البحر .

قال : شاب فى مقتبل العمر مثلك ..

قاطعته منكرا : وما فائدتى من ركوب البحر ؟ ..

قال : التاجر الذى سيشترى منك تجارتك .. ربما ركب بها البحر وباعها بأضعاف ما اشتراها منك .

ـ بلى .. ولكن البحر ..

ـ ربح وفرجة ، وتجربة ثمينة ..

ـ وهل سافرت انت فى البحر ؟

رمى ببصره فى ماء النافورة ، واستسلم لخواطره، ثم قال :

ـ نعم . ولكن لك ما تريد يا سيدى .

فشردت خواطرى ..

أركب أنا البحر ؟!

شىء لم يخطر ببالى قبلها قط .

★★★

فى العصر قمت أتمشى فى المرفأ ، فهالنى ما به من سفن عملاقة وحركة دائبة .. وألعاب الحواة يجتذبون أنظار المارة .. وهرولة التجار والحمالين والمتسببين فى الرزق ..

رأيت سفينة كبيرة متصلة بالشاطىء بسقالة ضخمة من الخشب ، والناس صاعدة عليها · وفوق السـفينة قبطان له هيبة ، وحوله مساعدوه ، وقد تفرق البحارة فى كل موضع من سطح السفينة يعملون بهمة ويتداولون الحبال ويرشدون الركاب والحمالين ، ومساعدو القبطان ينادون :

ـ يا ركاب السلامة · اصعدوا الى السفينه ·

وعـلى الشـاطىء كان النـاس يلوحون مودعين ، ويشيرون بالمناديل والشرطة تنفخ أبواقها، وقد ارتفعت الرايات الملونة ايذانا بالسفر ··

أخذتنى روعة المشهد ، كأنه عرس مقام ، وتفرقت فى خواطرى تفاصيله فاستخفتنى وأطربتنى وحملتنى على جناحها من النشوة ·· فسرت بمحاذاة الشـاطىء أستطلع نهايته حتى وصلت الى بقعة هادئة بعيدة تناهت الى فيها أصوات المرفأ خافتة هامسة ·· ورأيت السفن من موضعى أصغر حجما مكللة بأعلامها الملونة وحبالها المتقاطعة ·

وفوق الأصـوات البعيدة رنت فى أذنى ضـحكات أطفال بريئة قريبـة ، ولمحت فى المـاء القريب طفلين

يلعبان ويتماحكان ويتضاحكان وكل منهما يرش الآخر بالماء ويناوره سابحا فى مهارة وخفة .

ونظرت الى الماء البعيد فلمحت سفينة تقترب مقبلة من سفر ، فغمرنى هدوء وغبطة .. شقتهما بفظاعة صيحة مفجوعة ، فنظرت .. واذا بالطفلين يتسابقان نحو الشاطىء ويصيحان :

ــ غريق !! ..

فتجاوزتهما ببصرى .. ورأيت الجثة الطافية المتورمة !

من حولى تسابق الناس مهرولين للنجدة ، بينما جريت أنا الى الخان وقد ألم بى غثيان وروع ، فاعتكفت بغرفتى مضطربا مفزعا .

فلما ضقت بعزلتى وبوحشتى فى غرفتى هبطت الى صحن الخان ، فألفيت « جابر » يهم بالخروج . أقبل نحوى متسائلا :

ــ أين كنت ؟

ــ فى غرفتى .

ــ أتحب أن تتفرج على الدراويش ؟

ــ ماذا يفعلون ؟

ـ تعال أنظر بنفسك ٠

جذبني من ذراعي فانقدت له ٠ اخترقنا المدينة الى ظاهرها ، ودخلنا البساتين حتى وصلنا الى باحة واسعة بين الأشجار في وسطها نار هائلة تتقد بجذوع الشجر الكبيرة ، وقد أحاط النـار والباحة زحام من النـاس المشدوهين ، يتصببون عرقا وتلمع وجوههم ٠٠ لفحتني السخونة فخلعت عباءتي ورميتها على كتفي وأنا أخترق الزحام مع صاحبي الى موضع أرى منه ما يجرى ٠٠

حول النار تحلق بنيرانها طبالون يدقون طبولهم دقات مدوية موقعة ، ودراويش كثيرون شبه عراة تتوهج أجسادهم كأن النار تتراقص عليها ٠٠ ويترنحون على ايقاع الطبول وينشدون وهم يتقدمون فيضربون ألسنة النيران بالايدى والارجل فتتراجع النيران لضرباتهم ولا تصيبهم بشيء ٠٠ فيزيدون باقتحامها واختراقها ، ويطأون أخشابها وجمراتها الحمراء ، ثم يتراجعـون عنها سالمين لم يصبهم لظاها بسوء ، فيهلل القوم ويكبرون وينخرطون مع الدراويش في الانشاد والتمـايل على ايقاع الطبول فى انفعال عنيف :

لا تحرق المؤمن ٠٠ باذن الله

لا تحرق الداعى ٠٠ باسم الله

لاتحرق السائل ·· بباب الله

لا تحرق الحاوى ·· لسر الله

وجرى الدراويش فى الباحة وقد أخذتهم النشوة يقتحمون النــاس ، واختطف احدهم عباءتى من فوق كتفى واقتحم بهــا النار يضرب الألسنة اللاهبة يمينا ويسارا ، والدراويش يفعلون مثله بملابس أخذوها من الناس ، والدنيــا تضج بالانشــاد ·· واللهب يتراجــع مذعورا منكمشا حتى خبا وانطفأ ··

فلما أعاد لى الدرويش عبــاءتى فحصتها فأخــذتنى الدهشة والنشوة :

ــ أنظر يا جابر ! ·· لم تصبها النار ! ·· اطفأت النار ولم تصبها النار بشىء !! ··

فضحك صاحب الخان من قولى ·

★★★

حين وصلنا الخان ، جابر وأنا ، ألفينا جمــاعة من التجــار والبحــارة يأكلون ويسمرون فى صــحنه حول النافورة ، وأحد البحارة يروى النكات وهم يضحكون ·· كان يقول :

ـ نزلنـا ثلاثتنـا جزيرة المتوحشين فأمسكوا بنا واقتادونا الى ملكهم الذى فحصنا مليا ثم قال : قدموا لى هذا مشويا فى الغداء ، والثانى مقليا فى العشاء ٠٠ أما ثالثهم فحلوا وثاقه وخلوا سبيله فهو صاحبى وقرأ معى مذهب العدل على الشيخ واصل بن عطاء !

وضحك الحاضرون ، ونحن من جملتهم ، بينما صاح أحدهم بالبحار :

ـ وانت ؟ ما كان نصيبك فى الثلاثة ؟

ـ كنت المشوى فى الغداء ٠

ـ لكنك حي ، فكيف حييت بعد الشي والغداء ؟

ـ مولاى ٠ الناس يقولون حي يرزق ٠

فبأى برهان من براهين المنـاطقة يستقيم بوهمك أني حى ٠٠ اذا كنت لا أرزق ؟! ٠٠

وتجاوبت الضحكات ٠

★★★

تلك الليلة أرقت ٠٠

قلت لنفسى : اذا كان الرجـل بقوة عزمه وايمانه يقتحم النار ليفوز ببضعة فلوس من صـدقات الناس ، فكيف أقطع أنا رزقى لخوفى من ماء البحر ؟ ٠٠

خجلت من خوفى ومن ضعفى ، وتخيلت انى أعود الى بغداد بعـد بيع متجرى لأعاشر أحـزانى وذكرياتى وأصادف ما صادفت من لؤم أصحابى وشماتة أعدائى ٠٠ فحزمت أمرى ، وكنت بعد أيام مع الصاعدين السقالة الى سفينة بديعة اكتريت عليها ، وارتفعت أعلامها ٠٠ وعلا صياح بحارتها :

ـ يا ركاب السلامة ٠ اصعدوا الى السفينة !

نظرت من فوق السفينة فأخذنى الطرب من نشاط الحركة فى المرفأ وتصاعدت الى أنفى رائحة البخـور وملأت أذنى أدعية الداعين بالسلامة ٠

صاح القبطان : ارفع السقالة ! ٠٠

فردد البحارة صائحين : ارفع السقالة ! ٠٠

ثم صاح : ابتعدوا عن السفينة ! ٠٠

وردد البحارة : ابتعدوا عن السفينة ! ٠٠

فتباعدت الزوارق الصغيرة على عجل ٠٠

ـ القلع الصغير ٠٠ ارفع ! ٠٠

وردد البحارة الصيحة ، فشدت الحبـال ، وانتشر القلع العلوى الصغير ككف كبير امتلأ بالريح ، اهتزت

له السفينة وتحركت ، فأحسست كأن أرضا تنفصل عن الأرض بزلزلة ، فتشبثت بحاجز السطح ، ورأيت الشاطيء يدور أمامي متراجعا كأن قوة خفية تزيحه .. فأخذني الخوف ، وهمهمت : « لا اله الا الله .. » .

البحارة في شغلهم منهمكون ، يتحركون هنا وهناك بانتظام ، والقبطان في وسط السطح يصدر الأوامر فيرددها مساعدوه ..

ـ القلع الكبير .. ارفع ؟ ..

نفرت الطيور في السماء فجأة .. اذ انتشر الشراع الكبير وامتلأ بالهواء فارتجت السفينة ، ومالت له يمنة ويسرة ، ثم استقامت وشقت البحر بقوة الريح كطائر عملاق سابح في الفضاء .

هرولت نحو التجار والمسافرين وقد قعدوا حلقة فوق السطح الأمامي ، وأخفيت اضطرابي في جمعهم ، وقد ضرب أحدهم أوتار عوده ضربا قويا وغني :

ما كنت أعلم مافي البين من ألم
حتى تنادوا بأن قد جيء بالسفن
قامت تودعني والدمع يغلبها
فهمهمت بعض ما قالت ولم تبن

مالت الى وضمتنى لترشفنى
كما يميل نسيم الريح بالغصن
وأعرضت ، ثم قالت وهى باكية :
ياليت معرفتى اياك لم تكن
فهاجني الشوق ، وتذكرت « حياة » ..

سالت دموعى ، ووداريت وجهى عن الجمع أنظر الى الشـاطىء الذى يبتعد ، وكأن عمـارته تغرق وتؤذن بالتلاشى ، وسألت نفسى : يا عبد الله ..

انت هارب من دنيا الناس ، أم أنت تقتحم المجهول آملا فى استرجاع الثروة ؟

رأيت من بعيد عمران النـاس يغرق فى البحـر فنازعتنى مشاعر التشفى ومشاعر الحنين ، والسفينة تبحر فى عباب البحر كأنها تعرف قصدها ، وأنا فوقها لا أعرف ان كنت سعيدا برحلتى أم أنا غير سعيد .

الفصل الثالث

الغرق

خرجت السفينة من شط العرب الى عرض البحر ، فاتسعت دائرة الأفق ولم أعد أرى أمامي أو ورائى ، عن يميني أو يسارى ·· غير الامتداد الأزرق يترجرج الى مدى النظر ، وفوقي الشراع الكبير ·· فوقه الشراع الصغير ·· ككفين ممتلئين بالريح ·

عكف المسافرون فى قاعتهم بباطن السفينة ، ولحقت بهم وأنا أترنح من اهتزاز العمارة الكبيرة ، فوجدتهم قد اجتمعوا في حلقات لتناول الغذاء وهم يسمرون ·

انزويت وحدى أغالب ما أعانيه من الدوار والشعور بالغثيان ، فمس جارى كتفي برفق :

ـ تفضل الطعام يا ابن العرب ·

فما سمعت كلمة الطعام حتى انطلقت أجرى الى سطح السفينة، متعثرا فوق درجات السلم ·· وارتطمت

بحاجز السفينة وملت نحـو البحر آفرغ جـوفى ··
فأحسست بيدين تمسكان كتفى ، ورجل يقول :

ــ أفرغ ما بجوفك ماشئت ، ولكن امسك الحاجز جيدا ، وبعدها وافنى فى مكانى ·

ملت برأسى لأنظر من يكون ، فاذا هـو القبطان نفسه · وعدت الى ما كنت فيه وقد تصبب جسمى كله بالعرق ·

ارتحت قليلا فقصدت مقصورة القبطان فى مؤخرة السفينة فرأيت بابه مفتوحا وهـو مضطجع على آريكة وقد اشتغل بأدواته البحرية · قرآته السـلام ودعانى للجلوس وتأملنى مليا ··

ــ أول مرة تركب البحر ؟

علمت انه استغرب صغر سنى فقلت :

ــ نعم ·

ــ ستعتاده ولن يعاودك الدوار ·· وبعدها ستحب البحر ··

فتح خزانة خلفه وآخرج ورقة مطوية بها مسحوق آذابه فى كاس ماء وقدمه لى ··

ـ اشرب ، بالشفاء لك •

فشربت وأحسست براحة تسرى فى جوفى •

وسألته :

ـ منذ كم وانت تسافر فى البحر ؟

ضحك وقال : لعلى سافرت أول مرة وأنا فى مثل عمرك •

ـ وما دعاك ••

سألنى باستغراب : وانت ما دعاك ؟

ـ بعت قلبى بوجبة طعـام ، وسرقنى اللصـوص ورأيت لؤم الصحاب •• كالمستجير من الرمضاء بالنار ركبت البحر ••

ـ لا لا لا •• لا تقل ذلك ، فالبحر ليس مركب اليائس •• وستقع فى غرامه بعد حين •

★★★

مرت الأيام طويلة على ظهر السفينة ••

وكان الـوقت ظهرا ذات يـوم قائظ حين سمعت القبطان ينادى الركاب :

ـ سنرسو هنا بعض الوقت ، فمن أراد منكم أن

يجمع من قواقــع البحر ويستروح فلينزل عــلى هــذه الصخرة ٠

فما صدقت أن أضع قدمى على أرض ثابتة ، ولو لساعة قصيرة ، فزاحمت النازلين على السقالة الى صخرة خضراء تكاثرت فوقها القواقع فوق بساط من الطحالب ٠

أرخت السفينة شراعها ، ونزل بعض القوم ممن يشتهون أكل القواقع وبأيديهم أمواس ينتزعونها بها ، حيث تلتصق القواقع عادة بالصخر بشدة ٠

تمشيت على الصخرة التى يبلغ طولها خمسة عشر ذراعا وعرضها عدة أذرع ٠٠ ووقفت أرقب أحد الركاب وقد انتزع قوقعة على طرف سكين وتناول منها باصبعه ليذوقها ، فلما لاحظنى قال :

ــ لذيذة جدا ، فضلا عن أنها طازجة ٠ ذقها ٠٠

فتناولت قطعة من طرف السكين وذقتها فاستغربت ليونتها ٠٠

ــ سأنتزع لك واحدة أخرى ٠

وغرس السكين تحت قوقعة أخرى ٠٠ فما رأيت الا خيطا من الدم يسرح على النصل ، فانتزعه الرجل ونظر اليه ثم صرخ :

ـ دم ! •• دماء ! ••

فنظر الجميع الى حيث يشير ، ورأوا خيط دماء سارح على الصخرة ، فصاح أحدهم :

ـ ليست هذه صخرة • النجاة يا أهل الله ! هذا حوت عظيم نام وتجمعت على ظهره القواقع والطحالب • النجاة ، النجاة !

فما رأيت الا رجالا يتسابقون فوق السقالة كأن الموت فى أذيالهم والصخرة ارتجت لحركتهم المفاجئة فمالت السقالة وهم بها متشبثون وأنا آخرهم، والقبطان يصيح من فوق السفينة :

ـ لا تتدافعوا يا ركاب السلامة • لا تتدافعوا !

والبحارة يجذبون بقوة من كان فى متناول أيديهم من الركاب ، ويمدون الاذرع للآخرين •• والهرج الذى عم فوقى لم يكن شيئا بالنسبة لما شملنى من اضطراب وخوف ، وأنا متعلق بطرف السقالة ••

وفجأة غاص الحوت فى الماء فأثار موجة اهتزت لها السفينة ، ودار الماء من حولى فى دوامة انتزعتنى من فوق السقالة ، ورمت السقالة نفسها مسافة، وأحسست بالموج يجرفنى ويغمرنى ويبرزنى ، وحولى رجال

يصارعون الماء على مقربة منى .. أشفقت عليهم وخفت منهم ، حيث أعلم أن الغـريق يغرق من يقترب منـه ما لم يكن أقوى منه ساعدا . وسمعت القبطان يهتف :

ـ الحبال للغرقى ..

فانهالت أطراف الحبال من سطح السفينة وارتطمت بالماء وقد تعلقت بها علامات طافية ، فمن كان عـلى مقربة من أحدها تعلق به ، وجذبه الملاحون ..

رميت بذراعى أبعد ما أستطيع ، فغاص طـرف الحبل الذى قصدته وغاب فى الماء ، وانجرفت علامتـه الطافية مبتعدة ..

تعلقت حياتى بذراعى ، وقد أصـابهما مس من جنون فأفلتا من سيطرتى تماما وصارا يضربان المـاء بهوس استغربته وأخافتنى فوق فزعى اذ أرى أنى أبتعد بسرعة ، مع كل ما يبذله ذراعاى من جهد، عن السفينة !

فى لمحة خاطفة رأيت رجلا يصارع الموج مثلى على بعد فرسخ منى ، فهالنى ان الماء يدفعنى بعيدا . وتناهى الى سـمعى من فوق سـطح السـفينة صياح القبطان وصيحات البحارة تردد خلفه أوامره :

النـاظور مكانك . الدفة الى اليمين درجـة ..
درجة .. درجة ..

وصـوته يذوب .. والسفينة بشراعيها المتلثين بالهـواء تدور دورة كاملة ، تبحث عني وعن الغريق الآخر .. فعلمت من وجودى خارج منحنى الدائرة ان تيار الماء كان أسرع من محـاولات انقـاذى ، وعدمت الأمل فى نجاتى .

نظرت نظرة ملؤها الحسرة الى السفينة البعيدة وهى تواصل الدوران في دائرة مكتملة ، آنا خارجهـا .. وصيحات القبطان والبحارة تخفت وتبتعد مع أملى الذى يتلاشى .. ولأول مرة فى حياتى امتلأت أذناى فجـأة بالصمت المطبق !

أخافنى فوق خوفى .. ووهنت قواى .
وأيقنت بالهلاك ..

تذكرت جابر والدراويش ..

تذكرت جثة الغريق فى ماء البصرة ..

تذكرت آلامى وعذاباتى التى دفعتنى لركوب البحر .. وأصحابى وندمائى الذين تسابقوا يتسقطون كل ما أحببته فى حياتى من متاعى بالثمن البخس ..

تذكرت حياة وأسعد الحريرى قد اشتراها آخر الأمر .. واقتادها دامعة العينين ..

تذكرت لصوص السوق الذين سرقوا دراهمى فى ساحة المسجد ، وما لحقنى من أهل الناحية من اهانات وضرب ..

ولعنت كل هؤلاء ..

الا أن برودة الماء سرت فى دماغى ، أو لعل الاحساس بدنو الأجل هو الذى أغرق مشاعرى فى برده .. فألفيت سخطى يتراخى وغضبى يتخلى عنى ..

كانت تسرى من حلقى الى صدرى حسرة باردة مستسلمة ..

وأقوى ما كان يستبد بخاطرى فى تلك الساعه ، ويستحوذ على فكرى هو أن تدبيرى كان قاتلى .

سوء تقديرى للعواقب هو الذى رمانى فى مهاوى الفشل والخسران منذ مات أبى حتى هذه اللحظة الرهيبة .

شعرت بصغر نفسى وأنا أتذكر لهفتى وانكبابى على الملذات ، ولا مبالاتى وأنا أغرق فى الديون وحماقاتى كلها ..

تمنيت ساعتها لو أني كنت صادفت في أيامى مايزجرني ليوجعني ، فأفيق قبل فوات الأوان ٠

تمنيت لو كان الحظ واتاني مرة بمثل ضربة على الرأس تنتشلني من غفلتي ومن غيبتي ٠٠

ضربة على الرأس ؟!

أحسست بها مرة أخرى، فارتعد جسدى من الروع حيث حسبت أن الجنون والهلوسة قد سبقا الموت والهلاك الى ٠٠

الا أن ضربة أخرى على الرأس جعلتني ألتفت موجعا مغضبا ٠٠

فرأيت السقالة !

سقالة السفينة يدفعها الموج لتضربني من جديد على الرأس ٠٠

فتحت ذراعي واستقبلتها بالأحضان وهى تقتحم ضلوعي ! ٠

جرفها البحر أو القدر لى ، فلقيتها بدمع ينهمر من الفرح ، وبقلب يخفق لأعز حبيب !

ارتقيتها بعد عناء ، ونظرت حولى فاذا دائرة الافق مكتملة وقد اختفت السفينة تماما ٠

ارتخت أعضائى تحت وطأة الانهاك فأغمضت عينى • لعلى نمت فأيقظتنى برودة الماء ••

فتحت عينى هلعـا فوجـدتنى سـقطت فى البحر والسقالة تبتعد عنى فى عتمة المساء • ضربت المـاء بجنون حتى أدركتها وارتقيتها وتشبثت بها وأنا أقاوم ارتخاء جفونى ••

حاولت الصراخ أو الغناء أو الجهر بالحديث ، لأطرد النوم •• فما سمعت صوتى •

أقسمت لنفسى ألا أنام وشددت ذراعى على السقالة بقوة المستميت •

ولكنى فكرت أن ذلك كله لن ينفعنى ، والسقالة ان فقدتها سأفقد حياتى •

وضعت يدى على رأسى أتحسس عمامتى فوجدتها محلولة الا أنها لاتزال متعلقة بكتفى ، فجذبتها وكانت من قماش طويل فرقدت على السقالة ولففتها حولى وحول الخشب وعقدت طرفيها عقدة مزدوجة فاطمأن بالي قليلا وأخذت أجدف بذراعى لأنشط نفسى •

ومع ذلك لا شك انى نمت على رغمى •

لا أعرف كم من الزمن •••

ما شعرت الا بهزة كادت تخلعنى من فوق السقالة .. فصحوت ووجـدت سفينتى الصـغيرة قد ارتطمت بالصخر فى المياه الضحلة ..

رفعت بصرى فامتـلأت نفسى برؤية الأشـجار والأطيار على أرض خضراء ..

حللت وثاقى وجريت الى الشاطىء فارتميت على رمله وحشائشه وتلذذت بلسعة حرارته على جلدى . خيـل لى انى أصيح : نجوت ! نجانى الله ! لم يغرقنى البحر ! غير أنى ان كنت صحت فلعل صوتى أغرقه امتلاء أذنى بمهرجان الأغاريد فى السماء وحفيف النسيم فى غصون الشـجر .

تفقدت أعضائى فوجدت ساقى وذراعى غارقة فى دمى وقد غطتها الخدوش فعلمت أن أسماك البحر حاولت أكلى ولعل الذى صدها انتفاض جسدى أو مقاومتى على غير وعى منى ..

تحت ظل شجرة سقطت ، وشعرت بثقل أجفانى فتمددت ، وسرعان ما عدت الى السبات العميق .

★★★

صحوت لأرى سماء ساطعة الضياء ، وسحبا خفيفة تدفعها يد الريح الحانية ، وقمم الأشجار ..

اجتهدت أن أتذكر : أين أنا ؟ .. وكيف جئت الى هنا ؟ ..

فلما انتظمت ذكرياتي أحسست بالجوع والظمأ ، وبالضيق من ملابسي .. فقمت وخلعتها ، وتلفت حولي فرأيت أشجار جوز الهند ففرحت . جوز الهند طعام وشراب .. ولكن كيف السبيل الى ثماره العالية ؟

التقطت حصاة كبيرة من الأرض ، واحتشدت ورميتها عاليا فقصرت عن ادراك الثمار .. ولكن انهالت على ثمار كثيرة من كل الأشجار حولي فانبطحت على بطني وحميت رأسي بذراعي ولمحت من موضعي عشرات القرود في أغصان الشجر تتقافز هنا وهناك وقد استخفها فعلي حيث قذفت الحجر فصارت تقذفني بجوز الهند جزافا وتتصايح في مرح .

فلما توقفت القذائف رفعت رأسي وقلت :

شكرا يا رفاقي !

نزلت القردة من فوق الشجر وأحاطت بي ترقبني وتنتظر ما أفعل .

تناولت ثمرة وشججتها ووضعت خرقها على فمي وانسالت عصارتها في جوفي فكانت ألذ ما شربت في حياتي .

تناولت ثمرة أخرى أشجها فاذا القـــرود تتنــاول الثمار مثلى وتشجها وتضعها على أفواهها وتشرب كمــا أشرب ، وتأكل كمـــا آكل ، وهى ترقبنى وتقلدنى ثم تتصايح فى طرب ٠

أكلت حتى شبعت وشربت حتى ارتويت ٠٠

وهم بعد ما آكلوا وشربوا صاروا يتقافزون فى مرح ويتخاطفون الثمار من بعضهم البعض ويتقاذفونها وأنا أتقى أن يصيبونى بهذرهم ٠٠ ثم يتأملوننى وأنا أتأملهم ، حتى غلبنى الضحك منهم واستلقيت عـلى الأرض فزادهم مرحى مرحا وطربا وأحاطونى كأطفال تلعب ، وشاغبونى بالأيدى فأخذتهم بى أحضانى ألعب معهم وقـد تدفق حنـانى ٠٠ فمـا كان ألطف وأرق استقبالهم لى !

أكلت وارتويت وائتنست برفاقى ففكرت آنى ربما قضيت حياتى هنا، فعلى أن أستطلع أين أنا ٠

مشيت يمنة ويسرة أتفقد المكان ، وأتخير المواقع المرتفعة لأنظر حول المنطقة ٠٠ والقرود من حـولى ، تتطلع مثلى ، وتظلل عيونها بأيديها ان فعلت ، وتتبعنى ان مشيت ، وتتصايح مرحا ان فاجاتها بالنظر اليها ٠٠

رأيت بهاء تلك الجزيرة وثرائها الأخضر الباذخ ، وملأني السرور بأشجارها الفارهة المتوازنة وغصونها الملتفة وألوانها المتفجرة وأطيارها الشادية وسمائها الساطعة وبحرها الهادىء الملتف حولها ، وينابيعها العذبة النابعة من الصخر ..

قلت : هذه صورة من الجنة التى وعد الله بها المؤمنين ، فهل أذن الله أن أقضى بقية حياتى فى هذا النعيم عوضا عما لقيته من شقاء وعنت فى بلادى ؟

ركعت على ركبتي شكرا لله الذى وهبنى دون شريك ، هذه الجنة الصغيرة الممتدة .

وقلت : ان كان الله قد خصنى بهذا النعيم فعلي أن أصنع كل ما أستطيع لتيسير مقامي به .

أول ما فكرت في صنعه بيت يقينى المطر والحر والبرد ..

صرت أنتقى الأغصان الضعيفة وأنتزعها من أشجارها .. فما راعنى آلا نهوض القرود من حولى

يفعلون مثل ما افعل بذكاء واهتمام .

حملت الاغصان على ذراعى ، والقردة من حولى تحمل أغصانها ، وتخيرت مكانا على الشاطىء واسعا

ومنبسطا وضعت فيه حملى ، ووضع القرود أحمالهم ..

شرعت فى بناء الكوخ وتثبيت أركانه بفروع قوية ، ثم ملىء الفراغات بالأغصان الأخرى ، وربط أوصاله بالفروع الرفيعة .. والقرود تناولنى ما أشير اليه، وتشد معى ما أشده ، وتزاحمنى فيما أفعله .. ثم يأخذها الطرب فتتقافز متصايحة وتعوقنى فأنهرها وأدفعها ،فتدفعنى .. ثم نعود الى العمل .

قام الكوخ بعد حين ..

فجمعت ملابسى من هنا وهناك وقصدت أقرب نبع ماء وصرت أغسلها جيدا ، والقرود تزاحمنى فأعطى بعضها قطعا من ملابسى فتفعل مثلى ، ثم تتنازع الملابس فأضطر للتدخل لاستنقاذها من أيديهم قبل أن تتمزق .

نشرت ملابسى واستحممت فلما جفت لبستها وجمعت ثمارا والقرود يساعدوننى ويفعلون مثلى .. فلما أذنت الشمس بالغروب تعشيت وتعشت قرودى وجمعت بعض الحطب وجلست على باب بيتى وجلست القرود من حولى ينتظرون .

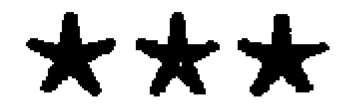
أخذت حجرين واعددت مكان النار وضربت الحجرين التمس الشرر والقرود بيديها احجار مثلى تريد

أن تفعل كما أفعل .. فما ضربت أحجارها وطق منها الشرر .. رمت الاحجار وقد أخذها الهلع وجرت هنا وهناك وأنا أنفخ نارى وأقترب من دفئها .

عادت القرود بعد ان هدأ روعها لتحيط بى مبتعدة عن النار قدر ما يمليه عليها الحذر وتهمهم وتنظر الى فى عجب . قلت لها :

ـ مرحبا بكم فى دارى يا أصدقائى وندمائى وأضيافى هل تحبون أن أروى لكم قصة أم أغنى لكم أغنية ؟

فأجابونى بصيحات التلطف والموافقة .



الفصل الرابع :

جزيرة القرود

لم أعد امشى أو اقعد الا فى هالة من رفاقى واصحابى القرود ·· أو أشرع فى عمل الا رافقونى وساعدونى بمحاكاة ما افعل ·

بل لقد لاحظت القرود عاداتى فكانوا يسبقوننى بفطنتهم الى الموضع الذى أقصده ··

عرفوا ما أستطيب من الثمار وما أحب فكانوا ينتشرون فى الغابة ويتنقلون مسافات فوق فروع الأشجار ليأتونى بما أحب ·· فأضحك ويضحكون ، أداعبهم ويداعبوننى ··

انتظمت جلساتنا آخر النهار أمام كوخى ·· أغنى لهم فيتمايلون مثلما أتمايل ، ويهمهمون استحسانا ومصاحبة ويتصايحون أن رفعت عقيرتى بلحن قوى ·

بل صرت أحــكى لهم القصص ·· فيصغون ، ثم يهمهمون ويتبعون اشارتي بالسكون أو بالهرج ·

عجبت أني أعيش في هذه البقعة النائية عن بلادى، وعن ديار أهلى وعشيرتى ، مع كل هذا الجمع الحاشــد ممن يوافقوننى ولا يخــالفوننى أو يعترضــوننى أو يكيدون لى أو يضمرون لى شرا ··

وأعجب منه أن أرى بعينى رأسى كل ما أفعله يتردد، ويتكرر وتحاكيه القرود كأن الله قد زاد لى فى جزيرتى، مرايا فى كل موقع أنظر فيه ·· تعكس صورة نفسى، وتردد ما أريد وتحاكى ما أفعل وتكرره على مدى النظر بلا نهاية وبغير حساب ··

وهل أعلم ان فى الدنيا سلطانا أو ملكا يطمع الا فى، بعض ما أنعم به من هذا الوفاق والتأييد الوثيق !

وأعجب منه أن المماثلة والمحاكاة والموافقة وتكرار أفعالى كانت تــزج فى نفسى مسرة متــدافعة فيغلبنى، الضحك ويستحوذ عــلى مرح تتفجر ينــابيعه من حيث لا أعلم فى مكامن نفسى، وفى أعماق سريرتى وضميرى! ·· فيهتزون لضحكى ويتقافزون مرحين لمرحى فازداد ضــحكا ومــرحا وأســتلقى عــلى ظهــرى فيستلقون ويتصايحون حتى أسترد أنفاسى ·

أما ما تفجر بنفسى من حب لقرودى فكان شيئا لم أعهده قط فى حياتى، وكأن تلك القرود اللطيفة أطفال كثيرون فتحوا بقلبى ينابيع أبوة متفجرة لا يعلم الا الله كيف كان ينطوى على زخمها قلب رجل واحد !

الا أن النفس لم تبرأ تماما من القلق ..

فبعد أن اطمأن لى المقام بالجزيرة ، وصنعت أدواتى وغنيت كل ما أحفظه من أغان ، ورويت كل ما تعيه الذاكرة من قصص ، وأكلت كل ما لذ وطاب لى من ثمار الجزيرة ، ولاعبت قرودى كل ما أسعفتنى به فطنتي من ألعاب .. كانت تعاودنى ذكرياتى فى نوبات مفاجئة بلا أسباب أو مقدمات، فاستغرب كيف يعاودنى الشعور الجارف بالضيق أو بالغضب أو بالحنق أو بالحسرة أو بالحنين لأشياء ماتت فى حياتى . وأتذكرها على رغمى فتنفعل بها نفسى بلا ضرورة ..

فضلا عن أن القلق كان يساورنى من تدفق مشاعر المرح بنفسى ، وذلك الحب الجارف المتفجر لقرودى .. كنت أخشى من عمق تدفقهما وقوة امتلاكهما لنفسى ان بعض الهوس ربما يخالطهما ..

ثم أنكر على نفسى ما يعتريها من القلق .. واعزو هذا القلق الذى ينتابنى فى لحظات هنائى وسعادتى

ومرحى الى بقايا أمراضى الروجية التى آصابتنى بها الململات فى بلادى وما تكبنى به الزمان من مفـاجآت أليمة .

★★★

كنت قاعدا أمام كوخى أغنى لرفاقى ، وقد تحلقوا بى يتمايلون ويهمهمون ، وآنا فى آهنأ حال ..

وفجأة .. رأيت فى عرض البحر سفينة !

قفزت مخلوعا أصيح : « سفينة ! » .

واندفعت ناحية البحر كالمجنون ، والقرود تتبعنى وتتصايح من حولى غير فاهمة .

صرت أصيح وألوح بذراعى :

ـ يا أهل الله ! .. هو هو هو هو ..

والقرود تصرخ من حولى، وصوتها آحد من صوتى، غرقت فيه صيحاتى .. فأخذت آدفعهم عنى وأزجرهم :

ـ اسكتوا ، لا تصرخوا . سيظنوننا من وحـوش الغاية دعونى أصرخ وحدى .. يا أهل الله ، هو هو هو هو .

فما أجدى مع القرود زجر ·· فاندفعت أخوض الماء مبتعدا عنهم وآلوح بذراعى بجنون ·· فما هالنى الا امساك القرود بى ، وتصايحهم وتشبثهم بأعضائى وملابسى مشفقين على من الغرق ، وأنا أتملص من أيديهم وأضربهم جزافا وأواصل الصياح :

ـ أدركونى يا أهل الله ·· هو هو هو هو ··

والقرود يتصايحون من حولى فتطغى أصواتهم فوق صوتى ، ويقيدون ذراعى ويخفون جسمي وملابسى بتزاحمهم لانقاذى !

ابتعدت السفينة ·· لم يرنى أحد ولم يسمع صياحى أحد ، وأنا مازلت أنازع القرود وأتوسل اليهم وأسبهم وأتملص منهم ·· حتى انقطع أملى فى النجاة ، فاندفعت الى الشاطىء كالمطعون أترف رجائى ذاته ·· وانكفأت أبكى وأمرغ وجهى فى الرمال ··

أحاطتنى القرود مهمهمة غير فاهمة ، تلامسنى بأيديها فى تلطف ، وبعضها يتقافز متهللا لنجاتى من البحر !

تمالكت جاشي ونظرت الى القرود في عجب ·· وهى تنظر الى فى عجب ، وقلت لها :

ـ لا تعرفون ما أنا فيه ٠٠ وأعجبه أني ما لقيت منكم غير الخير ، ومع ذلك أشتاق الى لؤم الناس ، وقسوة البشر ٠٠ فويلى من شوقى لأهـل الجحود ، وويلى من جحودى اياكم !

★★★

علمت مما وقع ذلك اليوم منى انى مللت حيـاتى على الجزيرة ٠٠ واشتقت لما هربت منه في دنيا الناس٠٠

بعد أيام ٠٠ كنت في مجلسى أمام كوخي وقد تحلق بى أصدقائى ينتظرون أن أسامرهم ٠٠ فرأيت «حياة» ٠٠ تبدت لى في كامل زينتها بين العازفين تغنى بصوت ملأ الفضاء كله لحنا أثيرا عندى :

قفي ودعينا ياسعاد بنظرة

فقد حان منا يا سعاد رحيل

فيا جنة الدنيا ويا غاية المنى

ويا سؤل نفسى هل اليك سبيل

صحت من الطرب والوجد ٠٠ وأنا أشق جيبى ، وتجاوبت الصيحات من حولى وكان لها جرس منكر هذه المرة ٠٠ مزق الوهم فجأة ، فاذا أنا أرى بعينى تلك القرود من حولى تتقافز كالشياطين !

استبد بى الجزع حتى غشى على ، فلما أفقت بكيت أيامى وتفجعت لضياعى فى هذا الكون السحيق، وتمنيت لو عدت الى بلادى شحاذا فقيرا تزجره الشرطة !

فى الصباح تذكرت ما حدث لى فتحيرت من أمرى وخفت الجنون ، ولكننى قعدت أحدث نفسى ·

أنا وحيد !

أحس بوحشة وبوحدة وبعزلة تمزق نفسى وتعتصر فؤادى ·

كل ما أنا فيه من هناء ، كل ما حولى من نعيم وسلام ·· لم يملأ فراغ نفسى أو يغلب شعورى بالانقطاع والضياع ·

ان شيئا مما أنعم به غير قادر أن يملأ حياتى أو يملأ فراغ قلبى ·

هذا هو مصدر ما كان ينتابنى من قلق وسبب ما كانت تدهمنى به الذكريات ·

أنا وحيد ··

كل حديثي وأفكارى وخواطرى تجرى فى اتجاه واحد ··

لا احد يحدثنى أو يجيبنى ان سألت ، أو يجادلنى ان تحدثت ..

الطبيعة من حولى لا تتبادل معى أى حوار .

لم أستطع أن أرتبط بها بعلاقة ولا هى تسعى لترتبط بى ..

لا يعنيها أمرى ولا تخصنى بلفتة واحدة !

لا تعرف الكراهية لأنها لا تعرف الحب ..

لا تعرف التواصل لأنها لا تعرف الحاجة !

حتى رفاقى من القرود ينظرون الى بالعيون كما أنظر اليهم بالعينين .. ولكنهم فى الواقع لا يروننى ولا يفهمون ماأنا فيه، وربما لا يعلمون حتى بوجودى.

تتدفق تصرفاتهم نحوى باعتبارى شىء كما هم أشياء بالنسبة لى ، يفترضون أنى منهم ، ولست منهم ولا أستطيع أن أكون ..

الطبيعة من حولى منقطعة عنى غير متواصلة ، وتحيطنى بجدار رصين مصمت وصامت رغم صخبه .. وأنا فى داخل هذا الجدار المحيط رهين السجن الانفرادى الموحش .

الأشجار كالقرود والينابيع الجارية والطيور فى

السماء تتحرك من حولى ٠٠ الا آن حركتها لا تلوى على شيء ، ليس لها غاية أو هدف تستهدفه ، وتكرر نفسها ويكرر بعضها البعض بلا غرض ٠٠ فحركتها فى واقع الأمر سكون ، وصخبها في جوهره صمت ، واسترسالها فى تماثله ولا غائيته ليس الا غباء مطبق !

وأنا فى هذا الكون الصامت الساكن ، الصاخب المتحرك في الظاهر ٠٠ وحيد ومتقطع بنفسى البشرية التي جبلت على غائية المسعى وبناء الهوى وتقلب الأشواق وتغير المزاج وتراكم الاطماع والدأب والجنون ٠

أقول لنفسى ٠٠ الانسان ليس آبن الطبيعة ٠ الانسان اجتماعي وحضرى ، بينما الطبيعة لا تعرف من ألوان الاجتماع غير اجتماع القطيع ٠٠ واجتماع القطيع جوهره التماثل والتكرار وهو ما يضجرنى ويضنينى بالملل الذى يكاد يزهق روحى ٠

الانسان يكره روح القطيع ، ولا يرى حياة أو حيوية الا فى المخالفة والمعارضة والمغايرة ٠٠ أيقوم الحضر الا على التكامل المتنوع وجوهره اختلاف الحرف وتفرق الأهواء وتقاطع المصالح ، كما يقوم الكلام على منطق اختلاف الرأى ٠٠

لا يعزى الانسان الا الانسان ..

ولا يسلى الانسان الا الانسان ..

ولا يحيي الانسان الا الانسان ..

فكيف بي لو أطـال الله عمرى فوق هذه الجزيرة وعشت خمسين عاما أو ستين عاما هنا.. أياما متشابهة متكررة طويلـة كثيرة .. قطيعـا لا آخر له من الأيام لا يميز احدها عن الاخرين شيء ؟!

أفزعني هذا الخاطر فعزمت أمرى على أن أفر من هذه الجزيرة ، ان افر من وحـدتي ومن وحشتي ومن جحيم تكرار أيامي .. وان أسعى الى بلاد الناس ، وان كان في ذلك هلاكي !

في الصبـاح لبست كل مـلابسي . وذعت كوخي ونظرت مليا الى رفاقي القرود واختلطت مشاعرى وكان قلبي ثقيلا ...

قررت ان أبلغ الطرف القصي للجزيرة وانظر من هناك ان كان ثمة طريق لخلاصي .

مشيت والقرود من حولي ومن خلـفي ومن فوقي تتنقل على الاغصان العالية .. يتبعونني ويرافقونني ويسبقونني ..

اخترقنا الغـابة ، وعبرنا الجداول ، وارتقينـا التلال وانحدرنا فى الوديان ••

ارتفعت الشمس الى السمت حتى تصببت عرقا ، فحللت عمامتي وادرتها حول وسطى ••

ثم مالت الشمس فأكلت واكلت أصحابى من ثمار الغابة ، واستقبلتنا النسمات الرطبة التى أنعشت عزمى على بلوغ غايتى ••

وفجـأة ، رأيت من فوق تل مـرتفع ذلك الشيء العجيب ••

قبة بيضاء ملساء عملاقة وسط الحشائش •

كلما اقتربت منها تزداد ضخامة فى عينى •• حتى خلت ان قطرها لا يقل عن عرض سفينة صغيرة •

توقفت القرود واجمـة واحجمت عن الاقتراب ، فلما استأنفت سيرى سارعت الى ممانعتى وصدى •

مم يخافون ؟!

درت حولها من بعيد ، والقرود يمنعوننى ، فلم أر فيها منفذا او بابا ••

ولـكن فجأة •• اظلمت السـماء وعصفت الريح

وصكت آذنى صرخة رمتنى على الأرض ، بينما فرت القرود بين الأشجار وهى تصيح ٠

نظرت الى السماء ، فما راعنى الا رخ هائل يصفق بجناحيه وقد حجب نور الشمس ، ويهبط متهاديا ليستقر فوق القبة البيضاء ٠٠ ففطنت الى أنها بيضته، وانه قد آب الى عشه آخر النهار ٠

ضم الطائر العملاق جناحيه وتراخى وهدأ ٠٠

قفز الى ذهنى خاطر جنونى ٠

اندفعت نحو الرخ فما استطاعت القردة أن توقفنى أو أن تلاحقنى ، وآخرسها الخوف فلم تزد عن همهمة واجفة خافتة ٠٠

ارتقيت اصبع الرخ ودسست رأسى فى الزغب المحيط برجله وتحسست النتوءات بين الأصابع حتى وجدت موضعا لجسمى فيها ، فحللت عمامتى وأوثقت جسدى باصبع الرخ ، وتمنيت على الله أن يطير العملاق بى الى موضع يكون طريقى الى بلادى ٠

قضيت الليل يقظا أسمع نداءات خافتة ترسلها القردة ، مغموسة فى اللوعة والحسرة ٠٠ الا أننى فكرت أن مخيلتى ربما هى التى أضفت عليها هذا

الجرس الحزين ، وعزوت ذلك الى خوفى آنا مما قد يصيبنى ‥ فانى أعلم ان القردة قد نسيتنى وستعود الى سيرتها الأولى بمجرد ان آغادر الجزيرة ٠ الطبيعة لا ذاكرة لها ٠

انتزعتنى من خواطرى حركة مفاجئة كادت تخلع أعضائى ، فاذا آنا في الجو ‥ وصرخة الرخ تشق أجواز الفضاء ‥ والجزيرة كلها بما فيها من آشجار وقرود وجداول وتلال تتضاءل بسرعة خاطفة وتنجرف مبتعدة فى المسافات السحيقة ٠

الريش ينشره على وجهى الهواء فيملأ أنفاسى برائحته النفاذة ولونه الداكن ٠

تشبثت بموضعى والريح تكاد تخلعنى ‥

نظرت من حولى ‥ سماء فوقها سماء ، ومن تحتى البحر يتسع اتساعا كلما شق الرخ الفضاء ‥

داهمنا فجأة جبل شاهق ، ارتفع فوقه الرخ حتى رأيت سنه المدبب ‥

ثم انحدرنا فى واد سحيق ‥

رأيت الأرض تنطلق نحوى بسرعة خاطفة كأنى أسقط من حالق ، فأدركت ان الرخ يتهيأ للهبوط ‥

أعددت ذهني للحظة الخطيرة .. ولكن وهجا بهر بصري ، وتعاكست البروق فأعمتني عن الرؤية ، ولمحت بين ومضات البريق العجيب رأس أفعى كاشرة تقترب ، فقدرت انها ربما كانت مقصد الرخ وخفت لقاءهما المميت وأنا بينهما ، وقدرت ان ذلك اللقاء المخوف سيتم على الأرض التي لا أرى لها معالم فتهيأت لفك رباطي والفوز بنفسي منهما معا .. فما أن دفع الرخ رأسه نحو عنق الأفعى ودفعت الأفعى أنيابها نحو رأس الرخ، حللت الرباط ورميت بنفسي فارتطمت بأحجار أوجعتني وانقلبت لأرى الافعى العملاقة في منقار الرخ تتلوى بعنف وهو صاعد بها في أجواز الفضاء ..

تحسست الحجر من حولي ، لا يزال برقه يخطف بصري فدق قلبي بعنف وهتفت :

ـ ماس ! .. الماس ! .. وادى الماس ! ..

جمعت في كفي حفان من الحصوات الصغيرة فارتعد جسدى كله من الهلع حيث اني علمت مما يتواتر من الأحاديث اني ان كنت حقا بوادى الماس فهنا تسكن أشرس الأفاعي وأضخمها ، وان الوادى ليس الا حفرة في جبل لا سبيل الى الدخول اليها أو الخروج منها ..

تلفت حولي .. لا أسمع غير خشخشات وفحيح

الأفاعي ، ولا أرى شيئا يتحرك غيرها ، فجمدت جمود الحجر ، حيث أعلم أن الأفاعي لا تهاجم الا ما يتحرك ، وحبست أنفاسي في ذلك المكان أرقب من حـولي تلك الوحوش الضارية العملاقة في حركتها الكسـول بين برق الماس الخاطف ..

أنا المفلس الضائع ، رماني قدري الساخر الطائش فوق هـذه الثروة الطائلة ، في ذلك الـــوادي المهلك ليتخاطفني الهلع والعجب من نفسي ومن العالم .

تلفت حولي بحذر ، ورأيت احاطة الجدار الصخري بالجب الذي رماني فيه الرخ ، بين الماس والأفاعي ، ومن أعماقي افلتت صرخة رجعها الوادي السحيق !

يا عبد الله .. الناس تسعى سـعي المستميت الى الثروة وتتهالك على المال ، ويضفرون من الثراء والموت أقوالا سائرة .. فيقولون أفوز بالثراء أو أهلك دونه ، يقولون اللهم اغنني قبل أن أموت ، يقولون هلكت في جمع ثروتي ، يقولون المال يحيي لا يميت ، ويقولون الفقر المميت .. ولكن من من الناس يتخيل الثروة في المـوت أو الموت في الثروة أو الموت والثروة كالشيء الواحد .. بعد طول المسعى : قبر من الماس ؟!

وهل كانت الثروة التي لا مزيد عليها ، والهلاك الماحق الا غاية المسعى وآخر النضال وجائزة النصب والعرق والدموع ونهاية كل دروب الشوك ؟!

وها قد وصلت يا عبد الله الى الغاية ·· حد الخطر والبقعة الحرجة ·· قبر الماس ، فاذا أنت الساعة أعظم الأثرياء ثراء وأشد الهالكين هلاكا ··

فافرح ما شاء لك الفرح ، أو اغرق فى الهلع كما ينبغى الهلع ··

لم يصبنى الفرح ولم يغرقنى الهلع، فى تلك اللحظة الرهيبة ، كما جمدت أعضائى انطفأت نفسى وأظلمت روحى وأصاب عقلى الشلل ولم أعد أعى الا بعيون جاحظة ثابتة ·· برق الماس يتقاطع مع برق عيون الأفاعى القاتلة !

كنت كالمغشى عليه ·· حين رأيت فجأة شيئا يسقط من حالق ··

تلفت على رغمى فرأيت قطعة لحم طرى من ذبيحة لا يزال دمها لزجا ··

انقض عليها نسر قوى فشالها من الأرض الى

الفضاء قبل أن تدركه الحيات ، والماسات التصقت بها للزوجتها وتلمع فى الجو ..

حط النسر على أعلى الصخرة واختفى عن ناظرى فى ضجيج مبهم .

قلت : لا يكون هذا الا من فعل البشر ! .

سقطت قطعة لحم أخرى ..

فحزمت أمرى على الفور !

أخذت أجمع على عجل بعض حصى الماس فى جيوبى وصدرى .. فما ان سقطت قطعة لحم ثالثة حتى جريت نحوها ورقدت تحتها وأوثقتها مع جسدى بعمامتى وقبل أن أفرغ من ذلك أفزعنى هجوم النسر فوقى حيث أنشب أظافره فى قطعة اللحم ورفعنى، وغثيت لترنحى فى الجو تحت جسده وهو ينظر فى عينى عجبا ودهشة من عجبي ودهشتى وفزعى .

حط النسر يحمله فوق الصخرة فاذا دوى طبول وضجيج يصم الآذان وصيحات وجلبة جعلت الطير العملاق يجفل ويتراجع ..

وحولى أنا والطير عشرات الرماح المصوبة وصيحات

الحرب المدوية وهجوم الرجال ·· فخفت أن يصيبونني مع النسر فقفزت واقفا أصيح ·

توقف الرماة برهة ، ثم انقضوا على برماحهم صائحين الشيطان !

فصرخت في وجوههم : لا اله الا الله ! ··

ورفعت ذراعي كالمستسلم ، وسقطت ماسات من ملابسي حولي ، وطار النسر ناجيا بنفسه من بيننا ·

الفصل الخامس :

الظمأ

ـ خذوا ما معي ولا تقتلوني !

صرخت ، وأفرغت جيوبي ونثرت تحت أعينهم ماساتي .. فتوقفوا عن الهجوم مشدوهين .. وقال كبيرهم بلسان عربي :

ـ من تكون أيها الشيطان ؟!

ـ لست شيطانا ولا عفريتا . أنا تاجر عربي قادم من البصرة .

تصايحوا بلسانهم بينما قال كبيرهم :

ـ تاجر ؟ .. وعربي ؟ .. من البصرة ؟! فكيف وصلت هنا ؟

ـ حملني الطير وأنا متعلق بقطعة اللحم التي رميتموها في وادي الماس .

ـ وكيف وصلت الى وادى الماس وليس له مدخل أو مخرج ؟

ـ تعلقت باصبع الرخ الذى سافر بى فى الجو .. ولما هبط الى وادى الماس ليلتقط أحد الثعابين خفت من لقائهما فانفلت منه الى الأرض .

ـ وأين عثرت على الرخ وكيف تعلقت باصبعه ؟

ـ وجدته فى جزيرة القرود ..

ـ وكيف وصلت الى جزيرة القرود ؟

ـ سقطت من سفينة عربية ونجانى الله من الغرق حيث كان فى العمر بقية فرمانى تيار البحر على الجزيرة .

همهم الجميع غير مصدقين ، وقال كبيرهم

ـ شىء يصعب تصديقه . أما لسانه فعربى ، ولكن سفره أربع سفرات مستحيلة ونجاته من الموت أربع مرات .. فى جملة عربية واحدة ، لا يستقيم فى النحو أو فى الصرف كما يقولون فى لغتهم ، فضلا عن نجاته من وادى الماس الذى لم نعلم ان أحدا سقط فيه ونجا من افتراس الأفاعى . فتشوه ..

تقدم الى تفتيشي ثلاثة رجال فما وجدوا على جسدى غير الماسات ٠

قالوا بلسانهم : ليس معه سلاح ٠

فتنهد كبيرهم وقال : وهو أعجب ما في قصته ٠ ما اسمك !

ــ عبد الله بن عثمان ٠ أنا تاجر عربى من بغداد ٠ كنت مسافرا بتجارة في البحر وغرقت، فنجاني الله ٠٠

وتخافتت الأصوات من حولي وشعرت أن القوم يتمايلون بغرابة ، وسألني صوت بعيد غريب :

ــ ما بك؟

فوجدتني على ركبتي خائر القوى متهالكا أقول :

ــ الجوع والظمأ والخوف ٠٠

ثم غبت عن الدنيا ٠

★★★

أفقت فألفيت نفسى راقدا في فراش وثير ، بخيمة هندية باذخة ٠٠ فأول ما أحسست به ملامسة جسدى لحرير الفراش فتقلبت عليه ملتذا ٠

أكلت وشربت ٠٠ والهنود يتلطفون بى ، فلما شعرت بارتداد روحي أعدوا لى حماما ساخنا واستحرت

موسى لأحلق لحيتى التى طالت مع الأيام . فلما رأونى حليقا وهم جميعا ملتحون صاروا يتفكهون معى ..

فى المساء قعد معى كبيرهم يسامرنى بعد العشاء ، فعلمت منه أنهم جماعة من تجار الهند يأتون الى وادى الماس فيذبحون الشاة ويقطعون لحمها ويلقونه طريا فى الوادى ليلتصق به حصى الماس وتأتى النسور فتلتقطه وتحمله الى الجبل حتى تأكله بمنأى عن خطر الأفاعى .. فيهجم التجـار عـلى النسور حتى تجفـل وتترك فريستها بما فيها من ماس .. فيحملونه الى مدينتهم..

ـ غدا نرحل ونعـود الى بلادنا ونقـدمك للملك وتحكى له حكايتك وسترى منه الخير .

فى الغد حملت ماساتى وركبت فرسا مثل فرس كبيرهم وتبعتنا البغال بالأحمال وقضينا أياما فى السفر نشق طريقا وعرا فى الجبل وبين شقوق الصخر .. أما ليالينا فقضيناها فى الخيام والسمر ..

فلما انقضت بضعة أيام أشرفنا على المدينـة من الجبل وأشار كبيرهم باصبعه .. فرأيت المدينة بيضاء يتوسطهـا قصر تتفرع من حوله الشـوارع الفسـيحة والساحات الواسعة .

ولكن استغرق طريقنا اليها أياما أخرى ، فلمـا

أدركنا الوادى لحظت أن بقاعه مجرى نهر كبير ، الا أنه جاف تمـاما ، وقد تشـققت أرضه فأصـابتنى وحشة وداخلنى خوف ٠

قال كبيرهم :

ـ لم تمطر السماء هذا العام فوق الجبال العالية فجف النهر وقتلت ملوحة الأرض البذور ٠٠ سترى مدينة عامرة مشيدة ٠٠ عليها سمات الثراء ، الا آنها هالكة من الجوع ٠

توقفنا بعد عبور النهر الجاف أمام سيل من البشر النازحين من النواحى لا تكاد تسترهم ملابس، ويحملون اليسير من المتاع ، متجهين مثلنا صوب المدينة ٠

سألت صاحبى : أين هم ذاهبون ؟

قال : أما أثرياء الريف فقد أغلقوا بيـوتهم من دونهم ٠ وعندهم ما خزنوه من طعام وماء ، وأما هؤلاء الفلاحون الفقراء ، بعد آن ماتت الزراعة ، فهم يسعون الى المدينة التماسا للصدقات ٠ ووجودهم بها شر مستطير لا يعرف عاقبته غير الآلهة ٠٠ وسترى منهم من يحتضرون فى الطرقات وقد فقدوا القدرة على الحركة ٠٠ نجانا الله ممن لا يزال به رمق !

وباشارة من كبيرهم اقتحم خراس القافلة جموع النازحين يضربون الناس بالسياط ويكشرون لهم عن الأنياب ويسبونهم .. ليشقوا لنا عنوة طريقا فى الزحام .. وجموع النازحين تنفرج ساخطين لاعنين .. لتمر من بينهم قافلتنا المحملة بالثروات .

دخلنا المدينة من بوابة ضخمة عليها حرس . واخترقنا ساحة البوابة ودلفنا فى طرق ضيقة ومن حولنا تطولنا وتصيبنا اللعنات .. حتى وصلنا الى ساحة القصر ، فتناهى الينا دوى طبول قوية .

ترجل صاحبى وترجلت مثله .. وتقدمنا بين حشد الناس فى الساحة ، ونظرت فرأيت موكبا ملكيا غاية فى الغرابة :

فى صدر الموكب فيل مكسو بالذهب والجواهر ، عليه مظلة قوائمها سبائك ذهبية مجفتة بالفضة ومرصعة بالجوهر .. وتحت المظلة على الفيل شيخ مهيب ملتحى .. لا تستر جسده غير اسمال بالية متهرئة لا تصلح الا كسوة لشحاذ !

حول الشحاذ العجيب ، فوق الجياد المطهمة ، المزينة بالمعادن والجواهر حفنة من الرجال فى أسمال الشحاذين !

وحول الكوكبة العجيبة رجال القصر والكبراء فى

ملابس مزركشة غالية مكتملة الزينة بعقود الجواهر والخواتم والحلى الثمينة ٠

وأمامهم وخلفهم وحولهم فرسان الجيش فى الثياب الزاهية ، يرفعون الرايات الملونة فوق الرماح ٠

وخلفهم جميعا ، وأمامهم فرق من نافخى الأبواق وضاربى الطبول فوق صهوات الجياد يحدثون فى الموكب الحاشد جرس الهيبة والنظام ٠٠

وعلى جانبى الطريق احتشدت جموع غفيرة من الناس والفقراء يكررون الركوع والسجود فى حركة منتظمة ويهتفون بلغتهم :

ــ راجا ٠٠ راجا ٠٠ اعطنا الماء ٠٠ اعطنا الماء ٠

قلت لصاحبى وأنا أشير للشحاذ فوق الفيل الذى انعقد له الموكب الجليل : من هو ؟

فدفعنى للسجود مع الساجدين وهو يقول : الملك!

فما ملكت من دهشتى الا أن أطل من الزحام أختلس النظر الى رثاثته العجيبة في المشهد الباذخ المعقود وأهتف من ذهولى : سبحان الله ؟

فما أرى الا اصبع الملك يشير نحو عينى ذاتها اشارة

قوية ، فخرج فارسان من صف الحرس والتقطانى من بين الحشد كالغرارة ورميانى بأنشوطة حول عنقى ، فتعلق صاحبى بالحبل يريد استخلاصى من الجند فضربه أحد الفارسين بالسوط رماه على وجهه صارخا ٠٠ وسحبنى الفارس الآخر من عنقى بالحبل كالبهيم ، وأنا متعلق بذلك الحبل بيدى أخشى الاختناق، حتى وصل بى الى فيل الملك فعلق طرف الحبل بحلقة فى السرج ، ومشيت هكذا مع الموكب مرتعد الفرائص وأنا فى أنكر حال ، تصك أذنى صيحات الجماهير تتحشرج بالجوع والعطش ، بالشر والحنق ، وبالامتثال المنذر :

— راجا ٠٠ راجا ٠٠ اعطنا الماء ! ٠٠

فما هانت على نفسى وانهمرت دموعى على رغمى من شعورى بالذلة والخوف وقلت : لا حول ولا قوة الا بالله ٠٠ كلما نجوت من مصيبة أقع فى أكبر منها ٠٠

وكان أخشى ما أخشاه أن يغشى على من الألم والحنق والحزن فيسحلنى الفيل ويشنقنى الحبل ٠

★★★

توقف الموكب أمام المعبد ٠ استقبل الكهنة الملك ودخلوا حوله من الباب الكبير ٠٠ والعساكر تتخاطفنى وتدفعني الي داخل المبنى من باب ضيق صغير ٠ فألفيت

نفسى فى غـرفة ضيقة رطبة يقف فيها عـلى حراستى جنديان بالسلاح ٠

راقبتهما بحـذر وحيرة ، فنظر الى أحدهما وقال بلسان عربى تشوبه عجمة :

ـ ان كان لك حظ تمطر السماء ٠

قلت : وأى شأن لى أنا بمطر السماء ؟

قال : أعلم ان البلاد ظامئة ، وتقام اليوم هنا صلاة للاله سيفا ٠ لهذا جاء الملك المعبد يتوسل للاله فى ثياب الشحاذين ٠ وكل رجل غريب يدخل المدينة اليوم يأخذون فألهم عليه ٠٠ ان أمطرت السماء بعد الصلاة أكرموه ، وان لم تمطر قصوا رقبته ٠ انت الغريب الذى دخـل المدينة اليوم ٠٠

خفق قلبى بشدة وقلت لنفسى :

ـ يارب المقادير ٠٠ أى يوم قدرت لى أن أدخـل مدينة المجانين !

فلما رآنى الجندى أهمهم قال : نعم نعم ٠٠ هذا وقت الصلاة ، تمنى على الهك أن تمطر سماؤنا اليوم ٠

فاشتعل حنقى بوقود اليأس وقلت مجاهرا :

ـ اللهم أهلك هذه البلاد بالظمأ .. حتى يقتبل كبيرهم صغيرهم ، ويفتك صغيرهم بكبيرهم . اللهم اقتلهم بغبائهم ان لم يفتك بهم ظمأهم .. فان قتلهم الناس الأبرياء بخرافات الفأل والتطير شر لا تعرفه قردة الغابات ، ولا يستحقون معه الحياة ! ..

ضربني الحارس على رأسي حتى شجها وسال دمي .. فما تحسست رأسي ورأيت دمي على يدي حتى أشفقت على نفسي وركعت على ركبتي أصلي ، وقلت من خلال دموعي :

ـ ربي . أتمنى عليك أن تعيدني الى بلادي .. فوالله أن لؤم الصحاب وجشع الدائنين أقل خطرا من أفاعي وادي الماس ، وان فراق الحبيب أقل ألما من فراق الوطن والناس ، وان الاستماع الى حكايات الرخ لا يخلع القلب كركوبه ، والشحاذة في أسواق بغداد أليق بالمرء وأسلم من أخذ الفأل عليه وقتله لأن السحاب لم يجد بالمطر .. أتمنى عليك اللهم ان ترسل السماء سيولا على هذه البلاد حتى أرى وطني قبل الهلاك وأعيش فيه أفقر الفقراء ..

قيد الجندي يدي خلف ظهري ، وربط القيد بالحبل حول عنقي حتى صرت مكوما كالغرارة ثم دفعني بغلظة

فمشيت منحتيا وعبرنا ممرا ضيقا ودخلنا ساحة المعبد حيث أوقفوني في موضع، فما حملتني ركبتاى ، فقعدت على رغمي أتلفت وجلا ٠

في صحن المعبد كان تمثال مقام من الذهب الخالص لشخص جالس له عدة آذرع والكهنة يلوحون اليه بالمباخر ذات الرائحة الثقيلة الطيبة ، وقد أوقدت حوله الشموع ٠

وحول التمثال جمهرة من الناس يطوفون به ملوحين بالأذرع متمايلين يمنة ويسرة وهم ينشدون بلسانهم ، والكهنة يقودو الغناء ويلهجوو باسم الههم : سيفا ٠٠

أظنهم كانوا ينشدون ما يعني ان الجفاف وحش يمتص الماء ، وهلاك ينفث الهلاك ٠٠

وأثناء الغناء شقت الجمع فتاة مدهونة بدهان أبيض كالملح وهي في أتم زينة وجمال ومدججة بالسلاح ومدرعة بدرع ثقيل ٠٠ رقصت رقصة المهاجم ، فتظاهر الناس بالخوف منها والتراجع أمامها ٠

والملك بين حاشيته في أسماله البالية على منصة خاصة في جانب القاعة ٠٠ وفي كامل السلاح ٠٠ تقدم الكاهن وخاطب الملك بقوله :

ـ ملكة الملح ظامئة ٠ التهمت الأشجار والرجال ٠

ملكة الملح جائعة ، تطلب المزيد من الزرع والناس ..
فصاح الملك على هيئة التشخيص والايهام :

ـ اطلقوا السهام !

فانهمرت سهام لينة على الفتاة تكسرت على درعها وهى ترقص وتتقيها . فصاح الملك :

ـ أضربوها بالسيوف .

فتكسرت سيوفهم اللينة على درعها ..

وتعالى الانشاد والهرج واشتدت الحمية وأنا مذهول مذعور في موضعى ومازال الحبل في عنقى حتى تقدم الكاهن الكبير من الملك وخاطبه قائلا :

ـ يا ملك الزمان وسيد العصر والأوان .. لا يهلك الوحش الا بالماء .. ارمه بالماء !

فأخذ الملك من حزامه قارورة بحجم الكف ، وفعلت حاشيته مثله ، ورموا الراقصة بما فى القوارير من الماء فوقعت على الأرض بهيئة من يحتضر ، فكأنهم قد رموها بالنار أو بالصواعق .. بينما تعالى هتاف الجمهور على دق الطبول ، واخذت جموعهم رعدة فصاروا ينشدون ..

ـ مزيدا من الماء ! اخلطوا بالماء الدماء !

فجرجرني الحراس في صحن المعبد ، والزاقصة لاتزال تتلوى بهيئة المحتضر ، ورموني جنبها فتقدم الملك وقرأ على رأسي قوله :

ـ جئتنا ايها الغريب في غير ميعاد ، فان كنت زائر خير فارمها بما جئتنا به من الماء ، وان كنت زائر شؤم فأنثر عليها من دمك ما يقتل شؤمها ويعكر بياض ملحها ..

والناس يصيحون معه :

ـ الماء .. الماء ..

ووقف السياف على رأسي ينتظر الاشارة من الملك ، فأغمضت عيني وقلت أشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله .. وغبت عن ضجيجهم وعجيجهم لحظة لافكر فيمن بيده الموت والحياة ، فردني الى ما أنا فيه صمت مفاجيء ، وانقطاع صياحهم ! .. ففتحت عيني فوجدتهم في أماكنهم مبهوتين كأن على رؤوسهم الطير ، يتطلعون جميعا الى سقف القاعة ، فتطلعت مثلهم فلم أر شيئا .. ولكني سمعت قصفة رعد مدوية من خلال انهمار المطر كالسيل ..

ثم دبت فيهم الحياة فجاة ، وانفرط نظامهم واختلط حابلهم بنابلهم ، وتسابقوا خارجين من الأبواب ومن

الشبابيك وقد استخفهم الطرب فلم يعبأوا بالملك أو ينظروا له ·· وداسوا على جسدى المسجى والذى كانوا قد هيأوه للذبح ، وقد أخذت أتملص بين أرجلهم محاولا التخلص مما أنا فيه ·· وأنا فى الحقيقة مثلهم أو اشدهم نشوة بالحياة وتخليطا فى الفهم أو فى الوهم !

داهمنى يقين بأن الله ما ارسل المطر لهؤلاء القوم المجانين الا لينقذ حياتى من أيديهم المتجنية ·· فما اعجب مايتوهم الانسان فى الشدة ، وما اعجب مايتمناه ! ··

دخل صاحبى يبحث عنى وخلصنى مما أنا فيه واخذنى من الحراس الى بيته وارقدنى على فراشه وصار يسقينى ويلاطفنى ويهدىء روعى ·

★★★

مرت الأيام وصاحبى الهندى يلاطفنى ويفرجنى على المدينة التى عمها الفرح واستقامت أحوالها وفتحت أسواقها ··

وفى المساء كان ينادمنى ويعرفنى الى أصدقائه وضيوفه ··

الا اننى ظللت أجد غرابة ووحشة ويروعنى ما ألم بى بهذه المدينة اللعينة ·

وكنت أعجب ان تلك الوحوش التى كادت تفتك بى ذات يوم على مذبح الخرافة والوهم .. ماهم الا رجال ونساء على غاية من الدماثة وهدوء الطبع ورقة الحاشية وكرم المعاملة ..

ولكن ذلك لم يساعدنى على الائتناس بهم ، وزادنى وحشـة ونفرة منهم ، ولعل السبب ان المرء لا يأنس للمتناقضات ولا يألف الاضداد في الشيء الواحد أو فى الرجل الواحد .

فمع أنى خالطتهم وعاملتهم ومازحتهم .. فانى لبثت بينهم قلقا باغترابى يغلبنى الحـذر والتحفظ ، والمرارة مما فعلوا معى .

***

بعد أيام دعانى الملك الى مقابلته .

ذهبنا الى القصر أنا وصاحبى الهندى فأكرم الملك استقبالنا وسألنى عن سفرى فحكيت له حكايتى ..

عجب الملك من نجاتى من جميع المخاطر التى تعرضت لها ، ثم قال لى :

ـ يا ابن العرب . لقد أخذنا فألنا عليك وكنا على

وشك الفتك بك . ولعلك غاضب منا لذلك ، ولكننا سنرضيك بما ينسيك اننا روعناك .

ثم صفق بيديه فدخل الخدم بصندوق فتحه الملك أمامى فرأيته مليئا بالجواهر والحلى النفيسة بما يقدر بثروة طائلة فلم أملك نفسى من الطرب .

وكل من كان حاضرا من الوزراء والأمراء قدم لى بدوره هدية ثمينة .

فوالله ما كنت أحسب في يوم من الأيام انى أحوز كل هذه الجواهر والنفائس التى أهديت لى فى تلك الساعة .. فضلا عن الماسات التى جمعتها من وادى الماس اللعين !

غامت القاعة أمامى فى غشاء من دموعى ، وقلت لنفسى وأنا جالس هناك : يا عبد الله .. هل آن للحظ أن ينفخ فى أبواقك ، وهل تصدقك الأيام المقبلة بمثل ما كذبتك الأيام الماضية ، وهل يطيب عيشى بعد الشقاء وأرى بلادى بعد طول السفر ؟ ..

اقتحم الملك على خواطرى بقوله :

ـ يا عبدالله . كان فى مدينتنا كاتب عربى ولى‌تاه الميناء . وقد مات . فهل تحب أن تقوم بالخدمة مكانه ؟

قلت : نعم يا مولاى .

قال : عليك كلما دخلت الميناء سفينة أن تحصي ما عليها من السلع وتستأدى أصحابها المكوس حسب القواعد وتعلمنا بذلك .. وقد وهبناك دار العربى ورواتبه . فلعل هذا يجعلك تحب بلادنا وتطيل اقامتك بها حيث اننا استبشرنا بقدومك ونريد أن نستبقيك ونريك من بلادنا ما يعجبك ويمتعك .

وصفق الملك بيديه ، وهو يقول :

ـ هل رأيت فى حياتك صنعة اليوجيه ؟

قلت : لا يا مولاى .

فتقدم الى وسط القاعة رجلان قعدا القرفصاء أمامنا يغنيان بصوت خافت عميق ، ثم هتف أحدهما فجأة :

ـ ها ..

وصار جسده يرتفع فى الهواء وساقاه منعقدتان كما هما وكأنه قاعد على الهواء بكل راحة .. فلما رأيت الفراغ بين جسده وبين الأرض يتسع غامت الدنيا فى عيني وأحسست برعدة سرت فى أوصالى وتباعدت الأصوات فى أذنى ، وأدركنى من بعيد صوت الملك يقول : ماذا بك ؟!

ففتحت عينين ثقيلتين ووجدت النـاس من حولى ينظرون الى بعجب ، فقلت : عذرا . فقد داهمنى ذعر مفاجىء ..

فضحكوا وتراجعوا الى مواقعهم والملك يقول :

ــ عجبـا ! انت ركبت اصبع الرخ فى الهـواء ، ونـزلت وادى الأفاعى .. غرقت فى البحـر وعاشرت القرود ، ومـع ذلك تخلع قلبك حيلة روحية بسـيطة كهذه ؟!

قلت : المرء يخاف مالا يعرف ومالا يفهم يا مولاى.

قال الملك : واذا كنت سـتخاف مالا تعرف فكيف ستواجه مفاجآت الطبيعة وأطوار البشر ، وكيف تواجه مالا تستطيع قياسه بالحواس وما لابد لك من أن تفحصه بالعقل .. ومع ذلك فالمرء لا يعرف كل شىء ويريد أن يعرف كل شىء ولن يغنيك جهل أو معرفة عن ضرورة الشجاعة والثبات للفحص . تذكر يابنى حـكمة ملك عجوز الختبر الحياة .

★★★

انتقلت الى دار العربى فهاجنى الشوق الى بلادى، وصرت أتنقل بين قاعاتها وأتلمس بيدى زخارف الجدران

ووجدت بالدار مصحفا أخذته بين كفي وقبلته معتزا .
ووجدت كتبا عربية قلبتها بشغف ..

كنت أقعد بين الكتب ساعات متصلة أقرأ حروف لغتى ودموعى تنهمر ..

ثم أخرج الى المرفأ أقعد ساعات أخرى وأنا أتطلع الى البحر لا يجالسنى فيها غير الأمل .

الى أن كنت يوما فى بيتى أقرأ فسمعت من يصيح :
سفينة !

فكنت فى الميناء بدفاترى فى استقبالها مع جمهرة من التجار والشغالين والفضوليين .

الفصل السادس :

بغداد .. بغداد

وصلت الى مقعدى في الميناء ودخل على تجار السفينة فوجدتهم عربا من البصرة فاستبشرت بهم وقدمت لهم المشروبات وأجلست القبطان بجوارى وانصرفت لعملى ..

أخذ الحمالون يقدمون الى المتاجر ، وأنا أحصيها وأثمن سلعها وأقدر مكوسها حتى فرغت من ذلك ، فقدم لى القبطان ثلاثة أكياس ، وضعها الحمالون أمامي وقال القبطان :

ـ سيدى . هذا متجر لراكب كان معنا وغرق في البحر ، ونريد أن نبيعه ونأخذ ثمنه الى أهله بمدينة بغداد دار السلام .

نظرت الى الأكياس فما صدقت عينى ..

ـ هذا الراكب ما اسمه ؟

ـ اسمه عبد الله بن عثمان وهو تاجر من بغداد ٠

حملقت فى القبطان وهتفت :

ـ لا اله الا الله ٠٠ كيف لم أعرفك للوهلة الأولى وكيف لم تعرفنى ٠ أنظر الى ياريس ودقق النظر ، فانى أنا عبد الله بن عثمان ٠٠

أزور القبطان وقال : مابقى لأحد ذمة فى هـذا الزمان ٠٠

قلت : لا تصدقنى ؟!

قال : لأنك سمعت منى ان صاحب المتجر غرق فى البحر ٠٠ تريد أن تأخذ ماله بغير حق ؟!

قلت : أنظر الى وجهى !

قال دون أن يعبأ بصراخى :

ـ حرام عليك وانت مسلم ٠٠ الرجل غرق أمام عيوننا فكيف يبعث حيا على بعد ألف فرسخ ٠٠

ـ اسمع الى دعواى !

ـ سأشـكوك للملك نفسـه ، فهذا المال فى ذمتى ولست أبالى فى حماية حق الغريق ٠

ـ كلما طلبت منك التريث تزداد سفاهة ٠ بينى وبينك البرهان ٠

ـ أى برهان ؟

ـ أقول لك ما بالمتجر من السلع بالتفصيل وأمام الشهود . وأحكى لك مادار بينى وبينك فوق السفينة من حديث يوم غثيت وأعطيتنى المسحوق المذوب فى الماء ..

ـ أتزعم انك انت ..

ـ أقدم لك البرهان أمام الشهود ، وأمام ضميرك انك سألتنى ما دعاك لركوب البحر فقلتلك : بعت قلبى بوجبة طعام وسرقنى اللصوص ورأيت لؤم الصحاب ، كالمستجير من الرمضاء بالنار ركبت البحر .. وانت قلت لى ان البحر ليس مركب اليائس ، وستقع في غرامه بعد حين ..

ـ فليحضر كل من شهد غرق الرجل ..

صاح القبطان وتجمع ركاب وبحارة السفينة .

قلت : ولما غطس الحوت وسمعتك تأمر بتحريك الدفة لتدور السفينة وتدركنى .. جرفنى البحر بعيدا عن السفينة وأشرفت على الغرق ، لولا ان السقالة كانت قد سقطت فى البحر أثناء تزاحم الركاب عليها وجرفها الماء فأدركتنى .. وجعلها الله سببا لنجاتى ..

صاح القبطان :

ـ يا أهل الله · أشهد انه هو الرجل ، فهل يشهد معى أحد ليحق لنا تسليمه ماله ··

فكل من كان حاضرا شـهد بأني آنا عبد الله بن عثمـان ، وارتمينا في أحضـان بعضنا البعض غـير مصـدقين ، وانهمرت دموعى ودموعهم ، وتفرست فى وجوههم وتفرسوا فى وجهى ·· وقال القبطان :

ـ ماذا فعل بك الزمان يا عبد الله فتغير وجهك ولم يعد ذلك الوجه الصبى البرىء الرخى الذى رأينـاه فى البصرة ··

ذهبنا جميعـا لمقـابلة الملك ، وروينا له ما جرى فعجب جدا مما سمعه واستأذنته فى السفر مع رفاقى فأذن لى بعد الحاح ··

لم أفترق عن رفاقى منذ تلك الساعة ، فلما جاء وقت الرحيل ودعت الملك ، وودعت صاحبى الهنـدى فأهديانى غير ما نلت من الهدايا وركبنـا متجهين الى البصرة وآنا غير مصدق نعمة الله على بالعودة ·

فى طريق العودة بعنا واشترينا فى كل ميناء نزلنا فيه ·· حتى وصلنا البصرة فانفصلت عن رفاق سفرى واسترحت فى خان جابر استروح نسمات بلادى وأشنف آذانى بسماع أحاديث قومى وآجراس لغتى ··

★★★

أحصيت ما تجمع لى من الثروة فى رحلتى فوجدتها أكثر مما ورثته من أبى فحمدت الله انه عوضنى عما ضاع منى وزاده لى ٠

ألحت على فكرة ان أشترى دارى ذاتها بحارة الكرخ ببغداد ومنيت نفسى ان تمكنت من الحصول عليهـا أن يعود لى هنائى وأسترد سعادتى ٠٠ فأرسـلت رسـولا سبقنى الى بغداد لشرائها بالثمن الذى يطلبـه فيهـا مالكها ، وسرعان ماجاءنى خبر منه انه وفق فى شرائها، واعدادها لاستقبالى٠ فحزمت أمتعتى وثرواتى ومتجرى واكتريت فى قافلة وصلت بى الى بغـداد ذات صباح ميمون ٠

شاع نبأ وصولى بغداد ، ومقامى بدارى فى سوق المدينة فاضطرب أصحابى وندمائى الذين غدروا بى حين أفلست قبل سفرى وانكرونى وتسابقوا الى شراء أمتعتى بالثمن البخس حين عرضها الدائنون فى المزاد٠

خف بعضهم الى بعض ، ونقـل بعضهم الى بعض ما اعتراهم من القلق والتوجس ، وتناقلوا أنباء الثروة التى كسبتها فى رحلتى وعدت بها الى بغداد وبعضهم يزايدالبعض فى تصديق ماتواتر من مبالغات وخرافات حول مقدارها ٠٠ حتى قال أسعد الحريرى :

ـ لابد أنه منتقم منا ..

فسأله يونس الزجاج :

ـ كيف يمكنه ايذاءنا ؟

ـ انت أبله ؟! نحن تجار صغار وهو قادر بتلك الثروة الطائلة التى عاد بها ان يفلسنا .

فقال الحسنى ابن شيخ السوق :

ـ أبى هرم ورغب فى اعتزال وظيفته ، ولو أراد عبد الله فربما عينوه شيخا للسوق .

وقال الخيام :

ـ جاء اليوم الذى كنت أخشاه !

فأشار عليهم على ابن الشهبندر :

ـ لابد أن نسترضيه .

فسأل يونس الزجاج :

ـ وما الذى عساه يرضيه ؟

فقال أسعد الحريرى بحزم :

ـ نعيد له كل ما اشتريناه من متاعه وجواهره .. هدية .

هتف اسماعيل البصرى منكرا :

ـ هدية ؟!

ـ لا يعز عليك ما عندك ، فالذى عندى أعز منه وأغلى ٠

ـ وما عندك انت ؟

ـ جاريته « حياة » ٠٠ كنت أشتريتها من السوق ٠

ولكن الآخرين وافقوا على مضض وقالوا :

ـ ما تقول ٠

فقال أسعد :

ـ نرسل الهدايا مع الرسل ، وننتظر دعوته فنصالحه ٠

هكذا طرق رسلهم بابى ، ومعهم الحمالون ٠

قالوا لمن فتح الباب :

ـ قل للسيد نحن رسل من قبل أعز أصدقائه ٠٠ فلان وفلان وفلان ٠٠ ومعنا هدايا له ٠

كنت قاعدا مع الدلالين فى القاعة ٠٠ فدعوتهم ٠

دخلوا ووضعوا أحمالهم وسلموا وأخذوا يشيرون الواحد بعد الآخر الى الأكياس وينبئون عما بها من أشياء ويصفونها ويريدون الكشف عنها ٠

أشرت لهم بيدى ليتوقفوا ، وقد عرفت انهم يهدوننى أشيائى التي اشتروها من المزاد ..

فهانت على أشياء اشتهوها وهى عندى ، وما هانت على نفسى ..

عجبت أن جراح الأمس فغرت أفواهها فجأة .. كأن للاشياء ظل قاتم أشاع بنفسى الحسرة والغضب .

لا تموت الجريمة الا بالعقاب ..

وبعض الجرائم لا تقوم أركانها ولا يتسنى معها العقاب .

قلت للدلالين امام الرسل :

ـ هذه الأحمال خذوها للسوق ، وبيعوها كما تشاءون ، وارسلوا ثمنها لشيخ المسجد .. وبلغوه ان يتصدق بالمال عني للفقراء والغرباء .

فوجدت الرسل وجموا ، وعدوها اساءة لا تليق ، وانتظروا منى كلمة شكر أو دعوة للزيارة ، فما فعلت الا أن أشرت لهم بالانصراف .. فمشوا الى الباب متباطئين ثم التفت لى أحدهم وقال :

ـ والجارية ؟

ـــ آية جارية ؟

ـــ هى واقفة بالباب ، ومعها وثيقة اهدائها لك ، فافعل ما تشاء !

ومضوا ، وأنا فى اثرهم للباب ..

رأيت « حياة » ..

ها هى يا عبد الله ، مغمضة العينين مستسلمة ، ما أحست بوجودى حتى نظرت الى نظرة مستطلعة مليئة بالسؤال .

خذلني جسدى فلم أعد أقوى على الخطو نحوها ، ولكن روحى كانت قد صحت .. متمردة منتقمة ..

تعصف برجل عجز عن الانتقام !

لبثنا هكذا وقتا .. وكل منا ينظر للآخر .

والذى كان يجيش بنفسى يعز على الوصف والتقصى ، واذا أنا بحر متلاطم فيه الحسرات ، ونوازع الكبرياء ، والعزم على رفض ابتلاع الملح .

ولو ضعفت لها .. فقد ضعفت لتملق الظالمين لضعفى ، وتملقهم أيام الطيش فى صباى .. وقد ضعفت لجرائمهم كلها ، ولخستهم تلك الأيام المريرة التى مرت بغير عقاب ..

لو استقبلتهـا بأحضـانى اليـوم ‥ فقد خذلت جسراتي وأوجاع روحي كلها واستسلمت لقضاء شرهم الذى لم أستطع رده أو دفعه تلك الأيام ٠

لو استسلمت لشـوقي وحبي ‥ فقد استسلمت لسخرية الظالمين الذى نهشوا أيام صباى وبراءة أملى وصدق نيتي واخلاص مودتى نهش ضباع الفلـوات وذئاب الخرائب ‥

أما عبد الله الذى كان ، فقد مات ‥

وأما عبد الله الذى أريد ‥ فانه يأبى الضـعف للماضى أو النكوص والارتداد ‥

قلت لها :

ـ لم يعد يصلح لنا اليوم يا حياة ما كان يصلح لنا بالأمس ‥

فارتعشت جفونها وقالت :

ـ ما تريد يا سيدى ٠

قلت :

ـ لست سـيدك ٠ انت حرة لـوجه الله ، فافعلى ما تشائين ‥

قالت : ما تقول يا سيدى ؟

قلت : خذى بعض المال ..

قالت : شكرا يا سيدى ..

واستدارت ومشت وأنا واقف تعصف بى المشاعر ..

يعلم الله كم بكيت « حياة » قبل ذلك اليوم ، وكم مس عقلى الهوس بها حتى رأيتها فى غربتى رأى العين، وسمعت غناءها بالأذن ، وكم أضنانى الشوق لها فى كل مكان حللت به ..

ولكننى عزمت ذلك اليوم أن أتخلص من هذا كله ، وأن أبرأ من كل ضعف أو حاجة ، وأن أحيا قويا كالعاصفة أو كموج البحر .. لا أحسب لغير قوتى حسابا ..

تلك اللحظة راح صباى بضعفه وبطيشه .. فلا وداع ولا تأسى .. انما ضاع مالا أريد ، وبقيت لى ارادتى .

★★★

.. ذهبت للقاضى وسجلت وثيقة عتقى لحياة وأرسلت وراءها الرسل ببعض المال فأبت ، وما عبأت لذلك .

انصرفت الى بيع متجرى ولقاء التجار والتنزه في بلادى والاستمتاع بثروتي ٠

كنت أدعو التجار والدلالين أحيانا الى بيتي ونقضي السهرة في تبادل التلطف والمجاملة ٠ ولكن حذرى كان يمنعنى من الافراط فى التودد الى الناس ، أو التبسط فى العلاقات ٠

لم يعد لى أصدقاء !

فالمرء لا يجدد الصداقات كما يجدد أثاث بيته ٠٠ وقد علمتنى الحياة الاحتياط ٠

أأنا وحيد ؟

لست وحيدا كما كنت فى جزيرةالقرود، ولا أشعر بما عانيت من الوحشة أو النفرة فى بلاد الهند ٠٠

اننى بين قومى وفى بلادى وعندى من المال ما يكفل لى طيب الحياة ومباهج الدنيا ٠٠

كنت يوما عند الشيخ مصطفى صديق أبى وكنا نتحدث فى سائر الشئون حين ألح علـى بالسـؤال عن أحوالى ، فقلت له :

ـ لقد عدت أحسن مما كنت تاجرا وثريا ، ولكن لم تعد لى بهجتى ٠

قال الشيخ :

ـ أو تتذمر ؟!

قلت : أعجب انى اشتقت للبحر · واينما نظرت ياعمى لا أرى غير صورة البحر وصخب البحـر وهدوء البحر !

قال : لا تبغض الناس يا ولدى لتقـع فى غرام البحر · لا تبغض ما تعلم لتحب مالا تعلم ··

قلت له : ومن ذا الذى يملك هوى قلبه ؟

قال لى : وعلى المرء ألا يطيع بالضرورة هوى قلبه ·

تذكرت ساعتها لغير سبب أعلمه ، انى كنت أتمشى مع « جابر » صاحب خان البصرة على الشاطىء قبيل المغرب فمررنا برجل يغنى للبحر وحده ، فى خلـوة ، وامتلأت نفسى آنذاك بأغنيته ، وملأت نفسى ثانية وأنا قاعد عند الشـيخ مصطفى بغـير سبب أو علاقة ·· فشردت وأنا أنصت كأن الرجل حاضر معنا تلك الساعة يرسل صوتا كله شجون :

تائه الأقدار حائر

فعلى البر مهاجر

وعلى البحر مسافر

أين فى الدنيا الشواطىء

أين فى الدنيا المرافىء

كيف بالله يثابر

تائه الاقدار حائر ؟

وفجأة أفقت ، فضحكت من نفسى ·· ولم يعرف الشيخ مصطفى لماذا أضحك ، ولكنه ضاحكنى متلطفا ·

الفصل السابع :

عجوز البحر

كنت قد تعلمت أسوأ درس يمكن أن يتعلمه الانسان ·· وهو ألا يثق فى الأصدقاء !

درس مؤلم·· أفرغ حياتى من كل بهجة ، وأورثنى مشاعر الوحدة والوحشة والاغتراب في مسقط رأسي وفي عقر بيتى !

اغتال الدرس الأليم سعادتى ··

بعت بضاعتى وأغلقت دكاكينى

واشتريت متجرا وتوجهت الى البصرة ·· فاكتريت على سفينة مليحة واستقبلت البحر ·

قضيت أياما أسامر رفاق السفر من التجار والبحارة، وأسمع غناءهم وأسمعهم غنائى ·· حتى أنس لى شيخ من التجار اسمه عبد الرحمن النعمان ، وصار يخصنى بعطفه ونصائحه ·

فذات يـوم كنا نفطر فى عنبر الركاب والسفينة تتقلب فى بحـر مضطرب ، فداهمتنا صـيحة من فوق السطح :

ــ الريح تدفعنا للوراء ! ..

وصـار هرج ، وحاول بعض التجـار الصعود الى السطح لاستطلاع الأمر فمنعهم البحارة ..

علا صفير الريح وآخذت السفينة تترنح بعنف ، وللبحارة صياح فوق رءوسنا .

« لاحـول ولا قـوة الا بالله » .. قالها الشيـخ عبد الرحمن النعمان ، ووضع يده فوق كتفي ، وكانت يده ترتعش .

علا صوت القبطان فوق رءوسنا :

ــ حطوا الشراع الكبير !

ثم صارت همهمة غير مبينة اعقبها صياح القبطان : « اقطع بالسكين ! »

ففهمت ان شدة الريح لم تمكن البحارة من انزال الشراع وانهم يزمعون شقه بالسكاكين .

ولكن امرا صدر من القبطان خلع فؤادى :

ـ الحبال للغرقى !

فعلمت أن الريح اكتسحت بعض البحارة ورمتهم في البحر ، فتذكرت غرقى ، وأخذتنى غيبة ، لم أفق الا والشيخ النعمان يهزنى ويقول :

ـ يا ولدى . انت أصبانا وأقوانا ساعدا ، وربما كتب الله لك النجاة من دونى ، فهل تصنع المعروف لوجه الله تعالى ؟

قلت وأنا شبه غائب :

ـ نعم ياعم . اصنع المعروف .

فدفع الى الشيخ بجلد كاغط ملفوف وقال :

ـ هذه وصيتى ، وفيها مالى عند الناس وما على من مال لهم ، وما يجب أن يصنع القاضى بثروتى بعد قضاء الله . فهل تحملها عنى ، واذا كتب الله لك النجاة تدفعها الى قاضى البصرة ولك الأجر والثواب عن أولادى وعيالى وعنى ؟

قلت : نعم ياعم .

ودسستها فى حزامى . وصكت آذاننا صرخة : الصخور !

ثم ارتجت السفينة وسمعنا لأخشابها قعقعة ، وسقط بعضنا على وجهه بينما صاح القبطان: العشارى! نظموا الركاب !

فعلمت انهم سينزلون «العشارى» قوارب النجاة ، فغلبنى اليأس حيث صاح البحارة من فجوة المدخل للعنبر :

ـ كبار السن أولا . عشرة رجال فقط !

امتنع البعض عن الخروج وتشبثوا بمتاعهم :

ـ ماذا أفعل بنجاتي ان ضاع مالى ؟!

وتعالى الصياح : فداكم المال يا رجال !

فأيقنت اني آخر من سيصل الى قوارب النجاة حيث انى أصغر الركاب سنا ، فما أدرى الا وقد انتقلت فى طيش من بين أيدى البحارة فبلغت السطح وقفزت الى الماء كمن يفر من حريق دون أن يحتسب عاقبة الفرار .

أيقظتنى برودة الماء ، فانتبهت لحالى غاية الانتباه، ولاحظت أن حولى فى الماء رجالا مثلى يصارعون الموج ، بينما السفينة تتأرجح فوق البحر كالريشة فى مهب الريح .

فى بحر متلاطم ممتد من الأفق الى الأفق ٠٠ يحار الانسان أين يولى وجهه ٠ ولـكنى عرفت مما نمى الى سـمعى مما يقوله أهل التجربة ان أفضـل ما يصنعه الانسان فى مثل هذه المحنةآن يبتعد عنالسفينة الغارقة التى تثير من حولها الدوامات ٠

وهذه كانت وجهتى وما قصدت اليه ٠

آوليت ظهرى للسفينة ، وضربت الماء بذراعى ، ولم أعد أرى غير أمواج كالجبال ترفعنى ثم تخفضنى فى هوة البحر ٠٠ وآحسست ان الماء يجرفنى حتى لم أعد أملك قوة على دفع تياره ، فاستسلمت لدفعـه التقط أنفاسى ولا ألوى على شىء ٠

ولما آظلمت الدنيا حولى يئست من نجاتى ولعنت طيشى وناجيت نفسى :

ـ يا عبد الله ٠ غامرت بنفسك ٠٠ فلماذا ؟ ٠٠ ان شعورك بالوحدة وبالاغتراب وضيقك بالناس لم يكن الا فضول ترف وغرور وغطرسـة ٠ لم تتعلم من محنتك التواضع والرضى والقناعة والقبول بما قسم لك الله ٠ فحتى تنكر الاصـحاب ولومك اياهم ليسـا الا علاقة ٠

والانســان يحيــا بالعــلاقة سلبا أو ايجابا ، أما الانقطاع فمــوت وضياع ٠٠ أين منك الآن أصــحاب يجحدون أو يعطفــون ! ٠٠ لو انك كنت تخليت عن كبرك واحتضنت « حيــاة » وغفرت للصحاب وتعلمت كيف تمشى على الأرض ! ٠٠

ارتعــد جســدى حيث أحسست أن قدمى لامستا الأرض ! ٠٠

لا أحلم ولا أتوهم ٠٠ هى الأرض !

وقفت بقدمى الاثنتين ونظرت حولى فرأيت ظلالا داكنة قصدتها كمن يطير، فاذا أنا فوق الشاطىء جوعان عطشان منهوك القوى فرقدت ، وتمرغت فى الرمال وقبلتها وغمرتها بدموعى فأحسست بهدوء يغمرنى ٠٠ ونمت ٠

★★★

استيقظت والشمس مشرقة ٠

تحسست جسدى فوجدت أعضائى سليمة ٠

خلعت قميصى وأحسست بكاغط الوصية ثابتا فى حزامى ٠ كنت نشوان بنجاتى :

ـ لابد لى من الماء ٠

توغلت فى حرش أمامى ، وارتقيت فرع شجرة ونظرت حولى فلمحت نبعا يلمع ماؤه فى ضياء الشمس فقصدته فرحا وانكببت عليه أعب الماء .

ـ لا تعب الماء وانت عطشان فتموت ..

رجل يكلمنى . نظرت خلفى ، ورأيته ..

عجوز راقد على الأرض ، ينظر الى بعينين قويتين تقيسانني ولا تطرفان .

قلت : السلام عليكم ياشيخ . من انت ؟

فازور عني ممتعضا يهمهم : فضولى !

قلت : لا تؤاخذنى ياعم . فأنا كنت فى سفينة غرقت فى هذه النواحي ونجانى الله ، ولا أعلم ما هذه الجزيرة أو ما يكون أهلها .

رمانى بنظرة صارمة : وثرثار أيضا !

أضحكني عناده فقلت : لا أقصد مضايقتك . ولكن ما سبب قعودك في هذا المكان ؟

قال : لأنى لا أقوى على القفز هنا وهناك مثلك .

قلت : لا بأس عليك . أتطلب شيئا أقضيه لك ؟

قال : وهل أنت من أصحاب المروءة ٠

قلت : نعم ٠ أنا من أصحاب المروءة ٠

قال : فاحملنى على كتفيك حتى أستطيع أن أقطف بعض ثمار الشجر أتبلغ بها ٠

قلت : حبا وكرامة ٠

ورفعته حتى أقعدته على كتفى ، فلف ساقيه حول وسطى بقوة فكأنه كتفنى تكتيفا، وصار يأمرنى بغلظة ٠ ويرفق أوامره بدفعات من قدميه فى جنبى ، وهو يجذب شعرى ٠

ــ هناك ٠ اسرع ٠

فلما آلمتنى دفعات قدميه نفد صبرى ، وقلت له : رويدك يارجل ٠ سأقضى لك ما تطلبه ، ولكن لا تدفعنى ولاتتعجل ٠

وهو يقول : لا تتذمر ! هناك ٠٠ أسرع ٠٠

ويلتقط الثمار من فوق الشجر ويلتهمها بشراهة حتى تسيل عصارتها فوق رأسى ، وهو لا يزال يأمرنى ويزجرنى ويدفعنى ٠٠ حتى تعبت ، فقلت له :

ــ كفاك ٠ لقد تعبت ٠٠ فانزل على مهلك ٠

فنزع العجوز عودا رفيعا من شجرة في متناول يده وساطني به بقسوة وهو يصيح :

ـ تعبت يا ابن اللئام ؟!

فملت مغضبا حتى أسقطه من فوقي :

ـ انزل يا سفيه !

فأخذ يسوطني وقد شدد ساقيه حول وسطي حتى ضاق نفسي ، وكاد يغشى على من الألم والاختناق فملت بجذعي فوجدتني سقطت على الأرض وهو فوق رأسي يضغط بساقيه على عنقي ويسوطني بلا رحمة !

ـ قم حالا والا قتلتك !

فلم أستطع التملص من ساقيه وكدت أختنق وتزهق روحي فهتفت :

ـ من أنت أيها الشيطان ؟!

قال العجوز بصوت خطير :

ـ الآن عرفتني ٠

فخلع الرعب قلبي ٠ وساطني حتى قمت صاغرا ، وهو فوقي قابض على جسمي بساقيه فقال :

ـ الآن تعرف كيف تخـدم سيدك . ان عصيتني أفقأ عينيك بأظافري ، أخنقك بسـاقي حتى ينقطع نفسك . أسوطك حتى تجن من الألم .. ولا خـلاص لك . فافعل ما تؤمر به .. افعله بسرعة وبهمة . هيا .. اجرى ، ادخل بين الأشجار . تمهل هنا .. لا تقف . اندفع نحو البحر حتى أشم هواءه ، نحو البحر .. آه .. ما أرق النسيم هنا . أريد أن أغفو قليلا . أرقد ..

كادت تتقطع أنفاسي من الجري هنا وهناك ، ولكنى حين رقدت طمعت في الخلاص أن راح في غفوة .. قال لى وهو يتثاءب :

ـ نعم . ستتعلم أشياء كثيرة مع الـوقت ، ولكن اياك والخبث .. فاني لك بالمرصاد .

تركته برهة حتى ظننت أنه نام فحاولت التملص من قبضة ساقيه ، فصحا من فوره وساطني ..

ـ هيا قم . أنا استرحت واكتفيت . الى الأشـجار .. أسرع ..

تعبت حتى سقطت على ركبتي من الانهاك ، ولكن ألم السياط أقامني واقفا ، اجرى هنا وهناك ، وهو يأكل بشراهة .. وخواطري تقول :

ـ لعنة الله على الشفقة · أنا أردت أن أصنع خيرا فانقلب شرا على ·

صاح العجوز وهو يسوطنى :

ـ تتذمر يا ابن اللئام ؟! ندمت حيث أشفقت على، وانقلب خيرك شرا عليك ؟! أعلم انى قادر على قراءة خواطرك، فلا تعارضنى أو تشتمنى حتى فى خواطرك!

قلت : سبحان الله !

قال : تذكر الله يابن العصاة ؟! ··

وساطنى حتى التهب جسدى بآلام مبرحة ··

ظللت أياما أتدهور فى مراتب الشقاء ، أعمـل حتى تنخلع أعضائى من التعب ، وأجرى هنا وهناك ، ليأكل ·· ليتنزه ·· بنيت له بيتا بالأغصان · أوقدت له النـار وطهـوت له الطعـام ، وهو فوقى يزجرنى ويسوطنى ويعذبنى ويشتمنى ··

فمرة كنت أتنزهه على شاطىء البحر ، وكان النسيم رطبا وقد نال منى التعب ·· فنظرت مليا الى البحر ، وتذكرت أوطانى وأيامى ·· فانهمرت دموعى وأجهشت بالبكاء ·

قال : تبكى ؟ ·· هذا أفضل لك · ستر تاح بعد البكاء مرتين أو ثلاثة · فدموعك ستستل من قلبك شوكة الكبر والغطرسة ، وهى ما يوجعك فى الحقيقة ·· وعندئذ ستخضع ، وتألف ما أنت فيه ، وتجد الراحة فى طاعتى ، وتتمنى رضائى · من الآن لا تخاطبنى الا بسيدى أنا سيدك ، فهمت ؟ تناديني سيدى ·· سمعت ··

قلت : نعم ·

قال : نعم يا سيدى ! ··

وساطنى ، فقلت :

ـ نعم يا سيدى ·

فرمى سوطه وقال :

ـ الآن لن أحتاج معك للسوط · وستتعلم أيضا ان كل طعام تأكله ، وكل راحة تنالها ·· هى من فضلى ومن كرمى عليك ·· وستألف أن تقول لى ألفاظ الشكر والعرفان والخضوع الصادق من القلب · هيا يا عبد النحس · الى البيت ··

قلت : نعم ·

قال : نعم يا سيدى !

فقلت : نعم يا سيدى ·

***

مرة لاحظنى العجوز وأنا أثبت فى حزامى الكاغط الوصية ، وكنت أخشى سقوطه ، فصاح بى :

ـ ما هذا الذى فى حزامك ؟ سلاح ؟!

ـ لا . هذا كاغط وفيه وصية ..

ـ أرنى ..

فأعطيته له ، وصار يقرأ منه ..

ـ « وعلى للحاج عبد الصمد القماش أربعة آلاف وخمسون فضة .. ولى عند الجواهرى سبعة آلاف .. » ما هذا ؟

ـ وصية رجل غرق وأعطانيها لأسلمها لأهله ..

فرماها مشمئزا ..

ـ أنتم أيها السفهاء .. الرجل غرق وأكلته حيتان البحر ، ويرسل من قاع الماء يطالب دائنيه .. تعسا لعقولكم !

★★★

أحمد الله أن شقائى لم يكسر شوكة كبريائى ، ولا دموعى أغرقت شعورى بالتمرد ، وان أخفيت شعورى خوف العقاب . مضت الأيام والاسابيع .. لم

يتـوقف عـذابي ، وبرحت بي الآلام حتى خشيت من الجنون والهوس أو الموت كمدا ٠٠

فمرة ، وأنا أتنزهه على شاطيء البحر رأيت جرة فارغة لعلها سقطت من سفينة في البحر فأخذتها وحملتها معي وهو فوقي ، حتى اذا صرنا تحت أشـجار العنب صرت أقطف عناقيـده وأعصرها في الجـرة ٠ فتعجب العجوز مما أفعله وسألني فقلت له :

ـ أصنع شرابا طيبا لأشربه بعد تخمره ٠

قلت لنفسي : لعل الخمر أن تعينني على احتمـال شقائي ٠

دفنت الجرة في مكان رطب وتركتها مدة ، ثم رجعت اليها أذوقها فوجدتها قد اختمرت ٠

سألني : ما طعمه ؟

قلت : مليح يا سـيدي ، يقـوى القلب ويشرح الخاطر ٠٠

قال : اشرب انت أولا لأرى ان كان مليحا حقا ٠
فشربت حتى سكرت ٠٠

طارت تعاستي وتملكتني نشوة وتبددت مخـاوفي

وراقت الدنيـا بعينى •• فما ملكت نفسى وغنيت فى الفضاء الرحيب :

ضاع الزمان فلا تضع

وقع الرجاء فلا تقع .

فصاح العجوز :

ــ ما هذا الهذر ؟

قلت : سيدى • هذا سحر الخمر ونشوته ••

قال : دعنى أذوقها ••

واختطف الجرة من يدى وأمالها على فمه فصحت به :

ــ رويدك وأحسها قليلا قليلا ••

استغرب طعمها أول الأمر، ولكن حين سرت حميتها بجسده صار يعبها بنهمه المعتاد ، وأنا أهتف به :

ــ لا تفرّغها جميعها • دع بعضها لى •

افرغها كلها فى جوفه وصاح وهو يتلعثم :

ــ غننا لعنة الله عليك ••

فغنيت له :

★ أغرق همومك في العنب

وأرقص على وقع التعب

ضاع الزمان فلا تضع

وقع الرجاء فلا تقع

واضحك كأنك تحتمل

وانس الزمان وما حمل

وجعل يضحك ويترنح من فوقي فأكاد أسقط على الأرض وأصيح به ، وهو يصيح ويهتز يريد أن يرقص ويحاول الغناء معي ، وأنا أغني له ..

أحسست قبضة ساقيه على عنقي تتخلخل ، وصوته يخفت .. فعلمت أنه أغرق في السكر وانحلت قواه .. فتجاسرت ورميته من فوقي فسقط على الأرض يتخبط .. وهم بالنهوض وهو ينظر لى بعينين تقدحان بالشرر فالتقطت الجرة وعاجلته بها على رأسه فتفجرت دماؤه وانتفض ، ثم سكنت حركته .

فما صدقت والله انى خلصت من شره ، فصرت أدق رأسه الميت بأحجار الجرة المهشمة حتى تناثرت دماؤه على جسدى كله مفزعة مقززة .. وأنا أصرخ صراخا

لا أعرف ان كان مصدره الرعب أم السعادة بالخلاص أم الخوف من أن أراه يهب واقفا بمعجزة !

جريت الى البحر ورميت نفسى فى موجه أغتسل من دمائه ، وأتلفت حولى وقد اضطربت ظهرا لبطن ..

وحملنى الجنون اليه ثانية أرجمه بالحجارة وأركله بالقدمين وأهيل عليه التراب وأبصق عليه وأشتمه ..

فلما وهنت قواى ، قعدت على الأرض أتأمل نفسى وأقول :

ــ يا عبد الله .. القسوة أذاقتك الدم ، فصرت قادرا على القتل وسفك الدماء .. آه لبراءة الصبا والشباب ، ووداعا لها ..

وما أفظع الحياة !

وبكيت من فرط اضطرابى .

ومن خلال دموعى رأيت صورة متقطعة لسفينة فى البحر ..

مسحت عينى ونظرت ..

هى سفينة بلا شك ، ما لم تكن حلما يهلوس به عقلى الطائر شعاعا .

خلعت ردائى وأنا أجرى الى الماء ، وصرت ألوح بالثوب وأنا أصيح :

ـ هو هو هو هو ·· يا أهل الله ·· غريق يا أهل الله ·· هو هو هو هو ·

والفضاء يرجع أصداء صيحاتى ·

لا ·· انها صيحات البحارة فوق السفينة تهتف لى وعدها بالنجاة : هوهوهوهو ·

شاهدت البحارة ينزلون قاربا الى البحر وأنا أتقافز فى المياه الضحلة أستعجلهم الوصول الى الشاطىء وأصيح من فرط اضطرابى ·

ـ نجانى الله ! يا أهل الله ! ·· هوهوهو ·

رسا القارب على مسافة منى وهبط منه الى الماء بحاران كل منهما شاهر سيفه ووقفا بعيدا عنى وأحدهما يصيح : قف عندك · لا تقترب ·

وقال الثانى : لا تتحرك وأجب · من أنت وما تفعل هنا ؟

فوقعت على ركبتى فى الماء من الخوف ··

ـ أنا عربى • تاجر من بغداد • اسمى السندباد •
كنت على سفينة غرقت فى هذه النواحى • الله نجانى•
أنا عربى • تاجر اسمى السندباد • غرقت سفينتى •

فقاطعنى البحار : معك أحد ؟

فقلت : ليس معى أحد ••

ـ معك سلاح ؟

ـ ليس معى شىء !

ـ تقدم ببطء •• سنرى ما شأنك وما أتى بك الى هذا المكان •

الفصل الثامن :

الوصيــة

انتشلتني السفينة ، واجتمع حولي التجار والبحارة يسألونني .. ومهما قلت لهم من حكاياتي لا يصدقونني .

ظنوا أن الوهم خالط عقلي مما لقيته من أهوال البر والبحر ، فأشفقوا بي وصاروا يهزون لي رءوسهم متظاهرين بالتصديق ، وهم لا يصدقون .

تصدقوا علي بالطعام و بقميص ..

ووصلت السفينة بريح مساعد الى البصرة .

المرفأ هــو هــو .. عامر بالزينات وصــاخب بالاحتفالات فرحة الاستقبال للتجار والبحارة ، وأفراح العــائدين الى الأوطان لم تذهب ما بقلبي من وحشــة وحسرة .. فها أنا أعود الى وطني فقيرا شريدا خاوي الوفاض !

ضاع مالى كله فى البحر .. وفوقه ضاعت أيامى وخلانى ومرح الصبا وبراءته وآماله الحلوة .

أشق طريقى كخيط أسود حزين فى نسيج منشور من البهجة والسعادة .

مشيت بقلب كسير .. أجتاز الضحكات والتبريكات وألعاب الحواة وغناء المنشدين وطبول الطبالين .. وأنا لا أملك حبس دموعى .

توقيت المرور بالسوق وبخان جابر ، حتى لا يرانى من يعرفنى رثا كالشحاذ .

عطفت على حارة أعرفها ، وتلمست طريقى فى السكك المتعرجة المعتمة الى ضريح « سيدى الغريق » .

هنا يرقد ولى من أولياء الله غرق فى البحر وصار ضريحه عزاء للثكالى والأرامل والأيتام وضائعى الأمل .. يقصدونه للتبرك والدعاء .

زاحمت النساء المتسربلات بالسواد ، والرجال من مشوهى البحر .. ممن فقد ساقا أو ذراعا أو نور العينين .. يتزاحمون على الضريح يدعون الله ويطلبون الشفاعة .

أمهات لا يزلن يأملن عودة الابناء ويبكون ..

أطفال يلعبون ويبولون ويتشاجرون فلا تهدىء من عصبيتهم الا الصفعات والركلات .

وشحاذون يطوفون بتلك البراكين الملهوفة يتسقطون الصدقات .

بينما الذباب والهوام تنسج سحابة سوداء تظلل المشهد الكئيب .

هنا شر البحر .. كما أن خير البحر يتلألأ الآن فى سوق البيع والشراء ، وفى الخانات والحانات ودور اللهو والقصف والغناء .

قعدت جنب الضريح فى الهرج المحزون ، وصيحات التفجع من حولى تشق القلب وتثير مواجع نفسي فتطفر من عينى الدموع .

ــ انت التاجر عبد الله عثمان المسمى بالسندباد وتسكن حارة الكرخ ببغداد ؟

صوت آمر .

رفعت عينى فوجدت ثلاثة رجال من شرطة الوالى، ورئيسهم يسألنى . فوقع الخوف على سائر الأحزان حتى لم أملك ان انكر نفسى .

ـ نعم · أنا هو ·

ـ قم · · فالقاضى يطلبك ·

فقلت مروعا : ولماذا يطلبنى القاضى ؟

ـ عنده شيخ يطلبك · وكلما رست سفينة فى المرفأ أرسلنا نسأل او كان من ركابا من يدعى عبد الله عثمان السندباد ·

ـ ولماذا يطلبنى الشيخ ؟

قال أحد الشرطة : اما لدين أو نفقة طلاق · لماذا تظن الشيخ يطلب مثلك · قم ·

جذبونى من ذراعي وشقوا بي السوق ، وكل من مررنا به يسأل : لص أم رافضى ؟!

فيقول الشرطة : لا نعلم · القاضى يطلبه ·

ويقول الناس : لا حول ولا قوة الا بالله !

ويغوص قلبي فى جوفي وتخذلني ركبتاى ·

رماني الشرطة بين يدى القاضى وهم يقولون :

ـ هذا هو السندباد يامولانا ·

قال القاضى : انت الذى حملك الشيخ عبد الرحمن

النعمان وصيته على السفينة التى غرقت منذ شـهور فى عاصفة بالبحر ؟

فرفعت رأسى وسألت بانكار :

ـ ألهذا تقبضون على ؟

سأل القاضى : الوصية معك ؟

فرميتها له مغضبا ، فأخذها القاضى ونشرها بين يديه وقال : بارك الله فيك يا ولدى .. هل قرأتها ؟

فهدأ روعى ونظرت اليه متسائلا :

ـ لا . لم أقرأها .

فدفعها لى : خذ واقرأ ذيلها .

أخذتها من يديه ، وقرأت فى ذيلهـا : « فان أتاكم الشاب الذى عهدت اليه بوصيتى عبد الله بن عثمان السندباد وعملتم بما فيها فله عليكم عشرة آلاف دينار صحيحة جزاء مروءته ووفاء بحق الله » .

رقصت الحروف فى عينى .

قال القاضى : أتعرف الشيخ الذى أعطاك الوصية يا عبد الله ؟

قلت : لأى شىء أستحق هذا المال ؟

قال القاضي : أتعرف الرجل القاعد جنبي ؟ انه الشيخ عبد الرحمن النعمان يا ولدي ؟ .. أعرفته ؟

ونهض الشيخ .

تفرست فيه ، فوالله ما كنت ساعرفه لولا أن دلني القاضي عليه .

كم غيرته المحنة ، فكم يا ترى غيرتني المحن ؟!

ارتميت في ذراعيه المفتوحتين ، وبكيت على صدره كطفل جبر الكبار خاطره المنكسر .. والشيخ يربت على ظهري ملاطفا ويقول :

ـ ماذا فعل بك الزمان يا ولدي . احمد الله على النجاة ..

وفجأة تذكرت ..

فانتزعت نفسي من بين ذراعي الرجل ، وهتفت بالقاضي :

ـ مولاي القاضي . أما المال فلا أستحقه ..

واحتج الشيخ :

ـ زن له الذهب يا مولاي القاضي واقض الدين بالشرع .

صحت : قبل أن تزنوا لى المال لابد أن تحلنى يا سيدى القاضى من قسمى . فقد أقسمت على جزيرة الشيطان ألا أصنع المعروف فى حياتى لأحد ، والا أجعل سبيلا لأحد على بالمروءة . أقسمت بالله لا أصنع المعروف .. فلم أعد أستحق الجائزة الا أن يحلنى القاضى من قسمى .

فما سمعت فى حياتى أشد اثارة للطرب من كلمات الشيخ وهو يقول :

ـ مازالت براءة الصبا فى قلب هذا الولد بعد كل ما عاناه .. فما أعجب ذلك !

★★★

عدت الى دارى ببغداد مجبورا ، وقد عوضنى الله عن بضاعتى التى غرقت فى البحر .

سئمت حياة اللهو وصحبة الخلان وليالى الشباب .. ولكنى كنت أتطلع بشوق الى اضياف من المسافرين أو الغرباء يطرقون بابى فأدعوهم لتؤنس حكاياتهم وحدتى .

فذات مساء أكرمنى الله بثلاثة رجال غرباء طرقوا بابى ليبيعوننى محارات بحرية نادرة ، فدعوتهم الى

مائدتي وقلبت بضاعتهم فأعجبني غرابة شكل احـدى المحارات وصفاء حجرها ، وتسـاءلت عن مصـدرها ، فترددوا في اجابتي بصراحة ، ولكن آحدهم قال : ضعها على أذنك لتسمع ٠

فما فعلت حتي نحيتها سريعا من شدة اضطرابى ، وتضاحك البحارة لفعلى فأعدت وضعها عـلى آذنى من خجلي ، فسمعت موسيقي وغناء بلغة لا أفهمها أعـذب وأطرب مما نعرف ونغني ، فكأنها موسيقى السحرة أو الجان فأبعدت المحارة عني وعاد ثلاثتهم للضحك مني ٠

ـ ماهى ؟

ـ لا تخف فما هى الا موسيقى وغناء عذب ٠

لم أر مثل هذا الشىء فى البحار آبدا ، ولا سمعت عن مثلة ٠

قال أحدهم : من جملة جزر البحر الجنوبي جزيرة الحب ٠٠ اذا مرت بها سفينة فى المساء أضاءت الجزيرة باذن الله ، وتناهت الى البحارة من شاطئها أعذب آغانى الحب فينجذب البحارة للنزول على شاطئها حيث تتخايل لهم حوريات بديعات يرقصن اجمل رقص ، فمن جرؤ من البحـارة عـلى الدخول فى حلبـة الرقص آو لمس الحوريات يتلاشى بلا اثر ٠

قلت : عجيب · حديثكم عجيب !

فقال الرجل : هو والله الموت عشقا ·

سألته : وهذه المحارة من جزيرة الحب ؟

فقال : ما من رجل نزل الجزيرة وعاد حيا ، ولكنها من بعض الشواطىء القريبة ·

فوضعت المحارة على أذني وذهب بي الخيال بعيدا ·

أضفتهم تلك الليلة وناموا عندى فى القاعة فما صحوت الا على صراخ خادمى : سيدى · سيدى !

ـ ما بالك ؟

ـ رحل الضيوف بلا أثر ·

ـ سرق شىء ؟

فتشنا الدار فوجدنا حوائجنا لم تمسها يد · ولكن ضيوفى تركوا لى المحارة الساحرة ولم يتقاضوا ثمنها ، فعجبت من الأمر ولبثت أياما مشغول البال أفكر وقد زاد قلقى واضطرابى لسبب لا أعلمه ··

فما انقضت أيام حتى آزمعت السفر ، الى البحر الجنوبى بالذات ··

ان كان ما جرى نداء سحريا ما ·· ها أنا ألبى

النداءفقد تضاعف بالتدريج ضجرى من القعود فى بيتى • وشغفى باستطلاع ما سحرنى •

خرجنا على سفينة كبيرة من البصرة ولما توسطنا الماء بريح مساعد عبر فوق الأشرعة سرب من طيور البحر البيضاء تودعنا بتشكيلها البديع ••

ولأمر ما ترنح أحد الطيور فوق الشراع الكبير واصطدم به صدمة سقط على أثرها فوق سطح المركب يصرخ ، ولما حاول النهوض تعثر وسقط وقد كسرت ساقه فتعالت صيحته بالشكوى وانقبضت الصدور لصياحه •

قال القبطان : اذبحوه رحمة به !

فهتف بحار عجوز : أعوذ بالله من الشيطان !

قال سىء يا ريس • ذبحه يجلب الشؤم !

فاحتج القبطان : الرحمة أولى بالمؤمنين من التطير •

فقال البحار : فليرحمنا الله •

وهجم عليه أحد البحارة فذبحه وهو يقرأ اسم الله • وسال دم الطير على السطح ، ثم رمى جثته فى البحر •• ووقف البحارة يرقبون فصاح القبطان : الى العمل! الى العمل !

وخاضت مركبنـا البحـر الجنوبى ، وانتقلنا من جزيرة الى جزيرة ، وبعنا واشترينا وربحنا وتحدثنا وضحكنا وحكينا الحكايات ·· ولـكن شـيئا بقى فى صدورنا من قصة الطير ومن فألها السىء ·· شيئا خبأناه بعناية فى حنايا الصدور لا نظهره ، ولـكن نضمره فيشى بوجوده ماعم سلوكنا جميعا من صفة الحذر ··

الفصل التاسع :

حرب الطيور

فوصلنا بمشيئة الله الى جزيرة خضراء رست السفينة فى مياهها وقال القبطان :

ـ سنتزود من هنا ببعض الفاكهة الطازجة ونبحث عن الماء ، فمن أراد من التجار النزهة على الشاطىء فليصحب البحارة فى القوارب ٠

وتزاحم جمع من الركاب وأنا من بينهم الى القوارب مع البحارة ، ولما وصلنا الى الجزيرة تفرقنا بين أشجارها مستروحين مستطلعين ، وقد أدهشنا عمق خضرتها وارتفاع أشجارها وكثافة النبات فيها ٠

وبينما أنا أتعجب من بذخ الطبيعة ترامى الى سمعى أصوات بعض رفاق السفر ٠٠

ـ لو كان هذا قصرا ٠٠ فأين بابه ؟

ـ لعله بعض قصور الجن ٠

ـ انه صخرة ·· ولكنها ملساء ·

ـ سنرى ما تكون ·

مشيت اليهم فرأيت آخر المتحدثين يرمى حجرا نحو شيء أبيض عظيم الحجم ·· ما ان رأيته حتى صحت فى زملائى :

ـ لا تفعلوا يا أهل الله · هذه بيضة الرخ !

وقد تأخرت صيحتى ، ونفذ أمر الله وانكسر غلاف البيضة فى موضع سال منه سائلها الأحمر الأصفر ··

كانت البيضة قائمة هائلة بحجم القصر الكبير وسط الادغال ، جريحة تنزف ·· وحولها زملاء السفر يحملقون متعجبين ·

ـ الآن الى الفرار ·· الى السفينة ·

صحت بينهم ، فأخذهم الروع مثلى ، وتصايحوا مثل صيحتى وتسابقوا نحو الشاطىء وتزاحموا فى القوارب ·· قبل أن تظلم السماء · نظرنا فرأينا الرخ يحجب عنا الشمس بضخامته ، وقد هبط الى بيضته فلما رأى ثقبها صاح صيحة عظيمة ومال عليها بجناحه يلامسها فى حنان ثم ارتفع يصيح فى غضب وأمال عنقه نحونا متوعدا ثم هاجمنا بعنف فالتقط أحد البحارة بمنقاره

وقذفه في الفضاء ، فاضطرب شملنا ومن بيده المجداف صار يضرب الماء بجنون ، والآخرون ألقوا بأنفسهم في الماء طالبين النجاة .. ومال الرخ بجناحه فضرب أحد القوارب فانقلب على ظهره . ثم ارتفع الرخ في الجو حتى صغر حجمه وهو يصيح .. ولعله كان يطلب وليفته ، حيث اننا بعد برهة شاهدنا الطائر الآخر مقبلا من ناحية خط الأفق يصيح لصيحة رفيقه . فلما اجتمعا في كبد السماء توجها نحونا منذرين بالشر .

كانت القوارب قد قاربت السفينة ، والسابحون في الماء يطلبونها بقوة العزم . وعلى السفينة يصيح القبطان في هرج البحارة والركاب :

ــ ألقوا الحبال للغرقى ..

وتتجاوب صيحاته من نواحي السفينة : الحبال للغرقى .

فترامت الينا أطراف الحبال ، وتسابقنا الى القفز فوق السفينة والقبطان يصيح :

ــ ارفعوا المراسى . ارفع الشراع الكبير .

وتتجاوب أوامره يرددها رؤساء البحارة .

رميت نفسي على سطح السفينة وشعرت بجسمها

يرتج كأنما خلعته ريح من مرساها ·· وصيحة بحار يقول : الرخ قادم !

فنظرت ورأيت الرخ يملأ الفضاء بجسده العملاق المندفع ، وما آن اقترب من السفينة حتى صرخ، وضرب الصارى بصدره فتمايلت السفينة حتى خلت انها ربما تنقلب · وصاح القبطان : دفة مستقيمة · الى الأمام · الى الأمام !

فعرفت ان القبطان قرر أن يترك من بالبحر خلفه ليلقى مصيره !

وكان الرخ الثانى يدور فى الهواء فلما واجه مركبنا انقض من عليائه فوقنا · وصاح القبطان :

ـ ادفعوا بالسلاح · كل رجل يدفع بالسلاح ·

فانتظمت البحارة والركاب صفوفا شاهرة الرماح والسيوف والخناجر والعصى ·· وما آن اقترب جسد الرخ حتى دافعته الأسلحة وانغرس فى جسده بعضها وتفجرت من صدره دماء ، ولكنه لم يأبه لذلك واتجه قاصدا القبطان الذى توسط الجمع وآنشب فى جسده أظافره ورفعه فى الجو ·· ولكن سرعان ما ترنح الرخ، ورأيناه يميل يمنة ويسرة مثخنا بالجراح فرمى القبطان

ومال نحو الشاطىء . وشاهدنا جسد القبطان يسقط فى البحر بعيدا عن السفينة . فقفز نائبه على الفور الى موقع القائد مكانه .. والناس يتصايحون : سقط الريس . أدركوا الريس ! ..

ولكن نائب القبطان صاح :

ـ الدفة مستقيمة . الى الأمام! واستعدوا بالسلاح .

ولكن أوامره سقطت على آذان أصابها الصمم فجأة ، وأجساد غشيها ثبات منذر . وصاح أحد الركاب :

ـ رفاقنا يغرقون . عد أدراجك .

فهتف به نائب القبطان : الى الوراء واطع !

ولكن فريقا من الركاب لم يمتثلوا وتطايرت همهاتهم : ومن انت حتى تآمر ؟! الريس فى البحر ..

ثم صاح صائحهم : أيها الرجال .. رفاقنا يغرقون !

فصاح نائب القبطان : من عصى أمرى سيقتله رجالى . أنا الريس فوق هذه السفينة ..

وصاح أحد التجار : الرجل سيترك الغرقى والقبطان لمصيرهم . الى الخائن !

وهجم على نائب القبطان مع بعض رفاقه بالسلاح، فأحاط البحارة بريسهم يحامون عنـه ، وأنذر الموقف بشر مستطير ، والسفينة تبحر مبتعدة بسرعة ، وفريق منأهلها يطوق بالسلاح فريقا مدججا بالسلاح بدوره.

وفجأة هتف بحار : انه يأتى !

وهتف آخر : اثنان .. ثلاثة !

فصاح نائب القبطان : استعدوا بالنبال ..

ولكن أحد البحارة قال : انهم يحملون أحجارا .. سيرموننا بالصخور !

وكانت طيـور الرخ تحمـل فى مخالبها أحجارا كبيرة .

صاح نائب القبطان : الدفة لليمين ..

واقتربت الطيور ، فصاح : الدفة لليسار ..

وتعرج مسار السفينة ، والطيور تهجم بالأحجار، والركاب يرشقونها بالسهام ..

سـقط فى البحر حجر ، ثم حجر آخر ، وارتفع رشاش الماء ليصفع كل امرىء على وجهه ، ثم سـقط

الحجر الثالث فوق مؤخرة السفينة ، وأصاب من أصاب، واهتزت السفينة هزة عنيفة ، حين اخترق الحجر سطحها وسقط فى غرفة الدفة . وصاح بحار : انكسرت ذراع الدفة !

وهتف نائب القبطان : كل رجل فى مكانه .. يا أهل الله الثبات . النجارون الى الدفة ...

ومن بعيد كنا نرى طيور الرخ مثخنة بالجراح تترنح في الهواء ، وربما عدلت عن مهاجمتنا ، الا انها استدارت الى الغرقى تفتك بهم فى البحر .

ولا يمكن أن أصف فى كلمات ما اضطرب فى صدور الجميع من مشاعر .. ولكن نائب القبطان كان يعرف ما يريد ، وقد قرر الفرار الى عرض البحر ، وكل رجل على السفينة تتنازعته نوازع القبول والرفض، الحزن وطلب النجاة ، النجدة والاحساس بالخيبة .. فمن بكى ومن قرأ من كتاب الله بصوت جهير ومن لبث صامتا بلا حراك ومن قدم يدا لمساعدة البحارة والنجارين والجرحى من الرفاق .

ولكن القدر كان يحتفظ لنا بصرخة أخيرة قبل أن

تبتعد السفينة عن ميدان المعركة .. فقد أصيبه أحد الركاب بهياج فجأة وصاح :

ـ أيها الجبناء .. تخليتم عن الرفاق . ليتنى كنت مع الشهداء الغارقين ولا أكون مع الجبناء الفارين !

واندفع الى جانب السفينة ، ولكن نائب القبطان صاح : امسكوه .

فأمسكوه .

ـ قيدوه ..

فربطوه بحبل متين قيد ذراعيه ورجليه وعيناه تذرفان دمع الغيظ والعجز .

★★★

ابتعدت السفينة عن الجزيرة ، وانطلقت فى عرض البحر بمن تحمل من رجال وجراح .. فى مسيرة بطيئة مترنحة ، وقد نشط البحارة وريسهم فى احصاء أعطابها واجتهدوا للحفاظ على توازنها وترقيع ما تمزق من أشرعتها ، واصلاح دفتها ..

وفى النهار الثانى صاح بحار : جزيرة !

فاجتمع كل الرجال فوق السطح يستمعون لناقيه

الريس : يا أهل الله .. لقد أراد الله لنا النجاة بالوصول الى هذه الجزيرة حيث ان أعطاب السفينة تحتاج الى اصلاح كثير ، الآن سننزل كلنا الى القوارب ونلبث على الشاطىء أياما .. فى النهار سيتولى البحارة اصلاح العطب، وفى الليل سنبيت هنا جميعا مدة أيام. ونرجو ألا يكون بهذه الجزيرة قبائل من أهل الشر أو العدوان أو المتوحشين ، وأطلب اليكم أن تلتزموا رفقتنا دائما على الشاطىء ، والله الحامى .

نزلنا الى الجزيرة فى القوارب ، وقد كللنا الخوف والحذر ، وأوقدنا النار وجمعنا ثمارا ورتبنا بالأغصان ما يشبه السور من حولنا ، وجلسنا الى الطعام رفقة .. وجرى بيننا حديث متقطع ، خافت يشى بما فى نفوسنا من حزن وأسى ..

وكنا نرى السفينة جانحة فى المياه الضحلة أمامنا ، خالية من الناس ، كأنها سفينة للأشباح ، فنحمد الله على النجاة ...

قال نائب القبطان : تجمعوا فى موقع واحد يا أهل الله . البحارة يحيطون الموقع بالسلاح للحراسة وسيتناوبون الحراسة فى الليل . واعلموا أن الله قد ربط مصيرنا بهذه السفينة المحطمة . اذا أصبح الصباح

سنبدأ علاج أعطابها بالخشب والقطران حتى تصلح للسفر ، فهي وحدها أملنا في العودة الى الأوطان ٠

ثم مشى حتى تجاوز نطاق الحراسة ، وانتحى جانبا في أحد الأحراش وقعد ، فأدركته لمؤانسته فوجدته يبكي وحده فقلت له متلطفا :

ـ أتبكي ياريس ٠

فقال : آن أوان البكاء على من خذلناهم من الرجال، وتركناهم وراءنا في البحر ، ومن بينهم القبطان وهو أشجع من عرفت من الرجال ٠

ـ أكان قريبا لك ؟

فرفع الى وجها مبللا بالدموع :

ـ كان عمي ٠٠ أخا أبي !

فلما رأى الدهشة والانكار في عيني قال :

ـ وهو الذى علمني ان سلامة الركاب أقدس من سلامة البحارة والقبطان ٠ لم يكن أمامنا خيار !

وتناهت الينا من بعيد صيحة بحار :

ـ المتوحشون !

الفصل العاشر :

المتوحشون

أطل من فوق ربوة قريبة ثلاثة رجال شقر ..

كان بعض الـرجال نائمـين ، وآخرون يغسلون ثيابهم فى البحر ، وبعضهم يتسامر أو يأكل .. فاذا الرءوس كلها تتجه لمصدر الصيحة وتتطلع نحو الغرباء .

قال البحارة : انهم متوحشون ..

وتبدت أجساد الرجال الثلاثة العـارية البهقاء ، ولكنهم كانوا يبتسمون ، بل كانوا يضحكون .

تجمع شمل أهل السفينة ، خلف البحارة والقطبان وتداخلوا فى كتلة واحـدة حائرة خائفـة والقبطان يقول : لا تبدأوهم بعدوان .

وتقدم الغرباء الثلاثة من الجمع ، بينما ظهر من خلف الربوة مزيد من الغرباء ..

تأملناهم وعجبنا من لون بشرتهم الأبيض وشعرهم الأشقر وعيونهم الصافية الزرقاء وعريهم الكامل ٠

قلت للقبطان همسا : انهم خطرون ٠

فقال : لا تسبق الحوادث ٠٠ فلعلهم أهل ود ٠

وبادرهم أحد التجار : السلام عليكم يا رجال ٠

ولكنهم ضحكوا ولم يتكلموا ٠ ولعلهم آمنوا جانبنا بعد المفاجأة ، لأنهم اقتربوا حتى صاروا بيننا ومدوا أيديهم يتلمسون ثيابنا بفضول ٠٠ ويضحكون ٠

وقد سرت عدوى الضحك فى جمعنا ، واذا بعضنا يبادلهم ضحكا بضحك ٠٠ ويخاطبونهم ، الا آن الغرباء لا يتكلمون ، وانما يهمهمون ٠٠

قال قائل : عجبا ، انهم لا يتكلمون ٠

فقال آخر : ليست لهم لغة ٠ ولعلهم ليسوا بشرا ٠

فقلت : وما يكونون ؟

فقال قائل : الا انهم ظرفاء ٠

وقال القبطان : كونوا على حذر ٠٠

الغرباء يسمعون فيضحكون، ويهمهمون، ويشيرون

بأيديهم نحو أفواههم ويهزون الرءوس بعضهم للبعض ويضحكون ٠

قال بحار : انهم يدعوننا للطعام ٠

فقال رجل : لعل عندهم طعاما ساخنا ٠

وقال آخر : الفرار أدعى للنجاة ٠

وصاح بحار ثان : ياريس ٠ اننا سنلبث هنا أيامن قبل أن نصلح السفينة ، وأخشى ان رفضنا دعوتهم أو جافيناهم أن يغضبوا وهم كثرة ٠٠ ونحن على أرضهم٠

فقال تاجر : ولماذا نغضبهم اذا كانوا قد بدأونا بالمعروف ٠٠

وقال الريس : لا نعلم أمرهم بعد ٠٠

وقلت : اذا كانوا لا يتكلمون فقد علمنا انهم ليسوا بشرا ، ولم أسمع فى حياتى ببشر فى هذه النواحى غير قبائل الزنوج والهنود ٠٠

فقال بحار : ياريس فلتختبر قصدهم ٠ سأتظاهر بالفزع وأصطنع الفرار ، فان جروا خلفي وامسكوا بى كانوا يريدون بنا شرا وأمامكم الخيار ٠٠ أما اذا لم يعبأوا بى وخلونى لحالى فهم مسالمون ٠

فقال الريس : افعل ٠

وصاح البحار : الفرار يا مسلمين ٠٠ الفرار !

وجرى نحو البحر ، ورمى نفسه في الماء ، ولم يتحرك الغرباء ، وانما ازدادوا ضحكا ومرحا وهم يرقبونه في دهشة ٠٠

فقال تاجر : انهم مسالمون ، وهم غير مسلحين ٠

وكان الغرباء يشيرون بأيديهم الى أفواههم ويضحكون فقال الريس : نقبل دعوتهم للطعام ، ولكن كونوا دائما على حذر ومجتمعين لا يتفرق شملنا آبدا ٠

ولكنني لم أكن مطمئنا ، ومع أنى لا أحب مخالفة الجماعة ، فقد حفزني هاجس قوى لأن أقول : انهم ليسوا بشرا ، وهذا أدعى للحذر ٠٠

ولكنى مشيت مع جماعتى خلف الغرباء نحو التل حيث أحاط بنا كثير منهم ، يلمسون ثيابنا برفق ويضحكون ٠

بعد التل عبرنا واديا أخضر واخترقنا دغلا كثيفا ثم انتهينا الى ساحة كبيرة حولها تلال وصخور بها فتحات كأنها أبواب بيوت هي في الأصل كهوف في الصخر ٠

وعلى الأبواب أوراق شجر كبيرة جدا يقف أمامها نساء ترتدين الزهور وأطفال عارين تماما ٠

فما أن دخل ركبنا الساحة حتى صدرت صيحات من أهل القرية جاوبتهـا صيحات من رفاقنا الغرباء ، وضحكات تجاوبها ضحكات ٠٠

وما أن اقتربنا من وسط الباحة حتى قال أحـد التجار : نساؤهم فاتنات ، وما ألطف زينة الزهور على أجسادهن ٠

وقال بحار : ها هو الملك ٠

من فتحة أحد الكهوف برز رجل مهيب يتفرس في القادمين ٠ ثم تقدم وأهل القرية من خلفـه يتجهـون نحونا ، فما أن حاذى القبطان في مقدمتنا حتى سقط أمامه عـلى ركبتيه ٠٠ وفعـل الغـرباء مثله ٠ فقال القبطان : افعلوا كما يفعلون ٠٠

فسقطنا على الركب نحييهم بمثل تحيتهم فضحكوا في وجـوهنا وضحكنا في وجـوههم ٠ وقال الريس : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٠

فما أجابه أحد الا بمزيد من الضحكات ٠

وتقـدم الملك فجلس القرفصـاء بوسط الساحة وحوله جلس الغرباء ، فجلس القبطان أمامه ونحن من حوله .

وشخص الى الساحة رجال بالطبـول وقعـدوا الى جانب الساحة يدقون عليها دقا لطيفا ، فتقدمت فتيات جميلات مكتسيات بالزهور يرقصن بين القاعدين ... والطبول يتصاعد ايقاعها فيتصاعد ايقاع الرقص حتى وصل هذا وذاك الى ذروة من الانفعال والنشوة أثارت الصيحات من كل جانب . وصاح أحد التجار :

ـ تقولون انهم متوحشون .. نساؤهم سيجعلوننا متوحشين بعد ساعة زمن ، والله المنجى .

فضحك أهل السفينة ، وضحك الغرباء لضحكنا .. وتألف الجمع حتى دفع الحماس آحد التجار الى القول : سأهدى الملك .

وقام فقدم له قلادة فقام الملك على ركبتيه وحياه ففعل التاجر مثله ، وصار كل تاجر من رفاقنا يقـوم فيهدى الملك ويتبادلان التحية .

الى أن صاح بحار : أنظروا .. جاء الطعام .

فنظرنا واذا صف من النساء مقبل علينا وعلى أيديهن أوراق شجر عظيمة كأوراق شجر الموز ، وفوقها طعام سخن لم نتبين عنصره الا أن رائحته ذكية وجذابة، فوضعوا الطعام أمامنا ولم يضعوه أمام الملك أو أهل الجزيرة فعجبنا من ذلك . وسأل الريس :

ـ لن يأكلوا معنا .

فتتابعت التعليقات :

ـ لعل هذه طريقتهم فى الضيافة .

ـ لعل الطعام مسموم .

ـ أتظنهم يدسون السم لنا وهم يضحكون ؟!

فقلت : يا أهل الله .. هؤلاء قوم لا يتكلمون فأين لنا معرفة ما يضمرون ؟

ـ رائحة الطعام رائعة والله .

وقال بحار : لا تقلقوا . أنا أذوق لكم الطعام ..

ولما أكل قال : طعامهم ألذ من نسائهم . وهذه شهادة صدق لوجه الله ومن صدقنى فليأكل .

وضحك ، فضحك الغرباء .. وضحك رفاقنا ومدوا أيديهم الى الطعام وأكلوا فتصايحوا صيحات الاستحسان ولم يلتفتوا لقولى :

ـ فلينتظر البعض على الأقل ..

وأخذتهم النشـوة وبانت عليهم شراهة زادت من قلقي وخوفي فلم أستمع للريس وهو يقول لي : لذيذ حقا . كل ولا بأس عليك .

فامتنعت .. ودق الطبـــول صار يصم الاذان ، والراقصات نفرت أقدامهن وصرن يتقافزن كأن بهن مس من الجن ..

أما رفاقي فقد ازدادوا جوعا ، وتتابعت أمامهـم أطباق الطعام وهم يزدادون نهما واقبـالا على الأكل وتتعالى صيحاتهم وضحكاتهم بغرابة . ويبدو أن الطعام كان حـارا لأني رأيتهم الواحد بعـد الآخـر يخلعون ملابسهم قطعة فقطعـة ويتصببون عرقا من حـرارة أجسادهم ..

أحسست بوحدة وخوف .. ولاحظت أنهم ينفصلون عني ولا يأبهون بي ، ويقبلون على بعضهم البعض بمودة وحـرارة ، ويضـحكون ويمزحون ويمدون أيديهـم للراقصات بغير حشـمة والراقصـات يلاطفنهم وأهل القرية يضحكون !

آتتِ النساء بقرعات الشراب فاحتساها القوم بتلذذ وشره ، وطلبوا المزيد ·· فجيئ لهم بالمزيد ·

راقبت أصحابى وقد زاغت أبصارهم وتفجرت شهواتهم وتعالت صيحاتهم وخلعوا ملابسهم وعربدوا بعضهم على بعض ··

فلما اكتمل عريهم جاءتهم الفتيات بأوراق شجر عليها زيوت ودهانات غريبة ، فصارت كل واحدة تدعك كل واحد من أصحابى ، ظهره وصدره وعنقه ورأسه ووجهه فيظهر النشوة ويتصايح تعبيرا عن التلذذ ·

لما كنت فى كامل ملابسى لم تقربنى الفتيات ·· وكل من كان حاضرا من أهل القرية يظهر المرح ويضحك ويصيح ·

ثم قام الملك ، فقام لقيامه أهل الجزيرة وتقدموا جمعنا فتبعناهم برضا ··

قال أحد التجار : طبعا آن أوان الحمام ·

وقد ظن أنهم يأخذوننا للحمام ·· حيث كانت أجساد رفاقى سخنة ·

مضينا خلفهم ورفاقى أسلس قيادا للغرباء من

النائمين يضحكون ويتصـــايحون ولكنهم يطيعون حتى وصلنا الى واد به أشجار قصيرة ذات أوراق ، فدعانا أهل الجـزيرة لأكل الأوراق وفعلوا قبلنا ففعل رفاقى مثلهم ..

ودهمنى رعب زلزل كيانى حيث رأيت أهل الجزيرة يسوقون رفاقى بالعصى الرفيعة ويوجهونهم .. ورفاقى بأجسادهم العارية اللامعة قد صاروا كما تخيلت أكثر امتلاء والادهان تلمع على بشرتهم ، لكن عيونهم أكثر شرودا ..

وكانوا منقادين للغرباء مرحين ضاحكين مقبلين على أكل الأوراق والحشـائش بشره . والقبطان معهم وفى مقدمتهم يفعل مثلهم .. فقطعتنى الحسرة عـلى نفسى وعلى رفاقى واقتربت من القبطان الذى كنت منذ ساعات قد أعجبت بشجاعته وحكمته وقلت له :

ـ سيدى .. سيقتلوننا !

فنظر الى نظـرة من لا يفهم وقدم لى حفنـة من الأعشاب متلطفا ففزعت منه .

فلما أكل رفاقى ماشاء لهم الغرباء ، وازدادوا ودا وقربا معهم ومع بعضهم البعض حتى تشـابكت الأذرع

.. ساقونا الى الساحة من جديد حيث رأيت انهم قد أشعلوا نارا عظيمة وجاء الملك فجلس وجلسوا من حوله وأخذت النساء يرقصن من جديد والشمس تميـل مع الغروب .. ثم أقام الرجال حاملا فوق النار .

قام الملك فطاف بضيوفه يتحسس كل منهم ويقيس سمنته والرجال يضحكون له وهو يضحك لهم .. حتى اختار أسمنهم واقتاده برفق نحو النار والرجل منقاد له يضحك ، وزملاؤه يضحكون ..

قفزت من الهلع على قدمى وصحت بأعلى صوتى : النجدة يا أهل الله ، سيقتلونه !

فما وجدت من رفاقي غير وجوه باشة ضاحكة ، ومن الغرباء غير ضحكات لطيفة وعيون تستطلعنى ما أقول .

جحظت عيناى وأنا أرقب رفيقى والغرباء يقيدون قدميه ويديه ويعلقونه على الحامل فوق النار ويضحكون له فيضحك لهم .. فلما مسته النار صرخ وغشى عليه فمالت رأسه ، ورفاقه يضحكون منه والغرباء يقلبونه على النار ..

صرخت في رفاقى : أفيقوا !

فما سمعت صوتي في ضجيج ضحكهم .. فتركتهم خلفي وجريت أطلب شاطيء البحر ، وقد طاش صوابي وأخطأت الطريق ثم عدلت اليها .

ومن عجبي أن أحدا لم يتعقبني أو يمنعني من الهرب ..

صرت ألهث من الانفعال لا من مشقة الجري ، وقد أظلمت الدنيا في عيني مع اقتراب الغروب حتى وصلت بحمد الله الى الشاطيء . وأخذت أحد القوارب ودفعته بالمجدافين الى عرض البحر ..

ولما تأكدت من نجاتي من المتوحشين نظرت نحو الجزيرة ورأيت وهج النار من بعيد فتقطعت حسرة على رفاقي واشفاقا من مصيرهم فصرت أضرب رأسي وصدري بيدي وأصرخ أستدر الدموع من عيني ودموعي عصية وعيوني لا تكاد ترى ..

الفصل الحادى عشر :

جزيرة الحب

أكان حلما أم حقيقة ؟!

الجنون يداخل عقلى ، وأحس كأنى غارق فى اغماءة عميقة !

أحس كأنى منفصل عن العالم من حولى ، وكأنى نائم يداهمنى كابوس ثقيل ٠

فهل حقا لاقى رفاقى جميعا ذلك المصير المشئوم ، وهل كنت معهم وتخليت عنهم وفررت بنفسى دون أن أدفع عنهم !

الجنون يداخل عقلى ٠٠

وها هى السـفينة المعطوبة على مرمى ذراع منى كسفينة الأشباح وقد تحول كل أهلها ماعدا واحدا الى أشباح تضحك وتقدم أعناقها للذبح بوجه بشوش !

والسفينة الماثلة أمامى بكل ما عليها من ثروات وكل ما ضمته من ذكريات وما لقيته وواجهته من مخاطر وأحداث ·· رابضة فى المياه الضحلة ساكنة صامتة مظلمة كأنها صخرة صماء ·

السفينة التى قاومت طيور الرخ بشجاعة أهلها فقدت أهلها وقرت فى الماء بلا مستقبل وبلا أمل ··

فسبحان الذى يعلم الانسان كل شىء برموز حكمته· والله قد زود الانسان بالعقل وهو أمضى أسلحة الدفاع· فان انطمس عقله أو غاب صار أعزل ضعيفا منقادا الى حتفه بأقل جهد ··

لبثت فى قاربى أياما ·· كلما جعت ارتقيت السفينة لأتبلع بالماء والطعام ثم تدهمنى الوحشة والحسرة فى قاعات السفينة التى تحمل آثار أصحابى فأنزل الى قاربى وأنام فيه ·

فى النهار أنظر نحو الجزيرة وملء قلبى الأمل أن أجد أحد رفاقى قد أفاق من غيبته وهرب نحو البحر·· لا أحد !

بعد أيام قلت لنفسى : يا عبد الله · ما الذى يبقيك هنا وحدك ؟ الجزيرة لن أجرؤ على نزولها بعد

اليوم ، فان فرغ الطعام والشراب في السفينة ماذا تفعل ؟

قررت أن أتحرك وألاقى قدرى محاولا النجاة من الموقع المفزع الذى امتلأت أرضه وسماؤه بأطياف الفزع والأحزان ·

جمعت في قاربى كل ماتيسر من الطعام والشراب حملته من فوق السفينة ·· ثم فكرت في الثروات والتجارات التى خلفها فوقها الأصحاب وقررت أخذ ما خف حمله وغلا ثمنه منها وكتابة اسم كل مسافر على بضاعته ·· وردها الى أهله أن نجانى الله وعدت الى بلادى سالما ·

ففعلت ذلك كله واستخرت الله وأعملت المجدافين الى عرض البحر ·

أيام بعد أيام قضيتها بين البحر والسماء وحيدا خائفا أطلب اتجاه الشمال مسترشدا بالشمس نهارا وبالنجم القطبى ليلا ··

أجدف ساعة وأستريح ساعة ، أنام بالليل أو بالنهار وأحرك المجدافين كلما سمحت عافيتي ، وأشرب أو أتناول الطعام بقدر ··

ومع ذلك نفذ الزاد ولم أصل الى شيء من الأرض ·· ماء فوقه ماء ·· وسماء على سماء ·· ولا شيء بي سوى الجوع والظمأ ·

انقطع أملي فقلت : لماذا أهدر عافيتي في التجديف وما بقي لي منها الا القليل ولا أعلم أين أنا من الكون ؟·

صنعت مظلة فوق رأسي ورقدت في القارب وقد تركته لهوى الموج وتيارات البحر وأسلمت قدري لله تعالى وصرت يقظان كالنائم ونائما كاليقظان أرى الرؤى وتنتابني المخاوف وأحس بشفتي قد تشققتا ··

بعد حين لم أعد أشعر حتى بآلامي ·· صرت مجرد قطرة تنطوي على رمق من الحياة ·· سابحة في محيط من الهلاك ·· أريد أن أنام فلا أصحو ·· وربما يسرقني النوم الى الموت في هدوء وبلا ألم ··

وفجأة ·· تناهى الى سمعي غناء مطرب !

كانت الدنيا ظلاما وأنا راقد في عمق القارب لا أقوى على النهوض ··

تشبثت بجانب القارب ورفعت رأسي والموسيقى العذبة تتردد في جوانب الأفق فرأيت لدهشتي جزيرة مضيئة أمامي وعليها حوريات يرقصن ··

جزيرة الحب ؟!

فركت عينى ومددت يدى فى المـاء وبللت رأسى ووجهى وأنا غير مصدق .

جزيرة الحب !

كما تصفها الحكاية ، نور وبهجة متفجرة .

تحاملت عـلى نفسى وقعدت فى القـارب ورأيت القارب يندفع بقدرة الله الى الشاطىء منسابا بيسر .

اهتزت أعطافى وتفجرت النشوة فى صدرى وعجبت من نفسى وهى تهجس لى : هنا يموت الناس عشقا !

ومع ذلك لم أتردد فى أن أدلى قدمى فى المـاء . والراقصات الحسناوات حين رأيننى أشرن الى بالاقتراب والدخول فى حلبة الرقص ..

تقدمت غير هياب .. وقد شملنى سرور تطايرت معهمن قلبى كل أحاديث الموت واستبدت بى النشـوة وأنا أهرول فى المياه الضحلة نحو الشاطىء وأملأ عينى بحسن الحوريات البديعات ورقصهن الخلاب وقد تسربت الموسـيقى الى شراييننى ودماغى وأعصـابى وعظامى فصارت منى وصرت منها ..

ولما صرت بين الجميلات ·· غنيت على موسيقاهن
ودخلت حلبة الرقص على ايقاعهن فأمسكتنى احداهن
بدلال مثير وهمست في أذني : أيها الغريب ·· لا تتعجل
قضاءك فتدخل حلبة الرقص ·· اذا أحبتك احدى
الحوريات واحتضنتك هلكت ·

وكانت أقرب الى من الأخريات ··

فمددت ذراعي احتضنها بشوق ، وشعرت ساعتها
انى أتلاشى ، وكنت فرحا بالتلاشى فى أحضانها ··
غائبا فى حبها ··

ولكن شيئا ما ضربنى على وجهى ··
وسمعت صوتا يقول :

ــ أما قلت لكم انه حى ·· انت ·· يارجل !

فأدرت رأسي ونظرت ··

رأيت سفينة فوق رأسي وعليها بحارة ينادوننى ،
فنظرت حولى فلم أر غير جانب السفينة ملتصق بقاربى
والشمس فى كبد السماء ·

ظللت عينى بكفى ·· وسألت :

ــ أنا حى ؟

فضحك البحارة وقال أحدهم :

ـ تسألنا أم نسألك ؟!

فحاولت أن أنهض وما قدرت فملت في القارب حتى سقطت في الماء ونبهتني برودته فعلمت أن أعضائي ستخذلني وسأغرق .

فهتفت بصوت مبحوح :

ـ النجدة !

وضحك البحارة مني وألقوا الى الحبل حتى أتعلق به .

الفصل الثاني عشر :

جوهرة

عشت فوق السفينة كالفتي المدلل .

أحكي للتجار حكاياتي .. فمن يصدقني ومن لا يصدقني ..

غير ان المصدقين والمكذبين كلهم كانوا ينصتون لي كان على رءوسهم الطير .. شغوفين مسحورين .

ان المرء قد يروى ما جرى ..

ولكنه لا يستطيع أن يبوح بسر نفسه وما اعتراه من روع أو مرارة الا لأقرب الناس اليه . وأقرب الناس الى قد فقدته وضاع منى أثره ..

المرء قد يروى ما حدث ..

الا أن الآلام والمخاوف والهواجس والشهوات تظل فى النفس أسرارا لا تباح .

عادت سفينتنا الى البصرة التى استقبلتنى بالترحاب واستقبلتها بالحب والترحاب .

قصدت الى القاضى وسلمته ثروات الغائبين من رفاق سفرتى المشئومة . ودفعت بمالى وبضاعتى الى الدلال .

ودخلت السوق فاشتريت أفخر الملابس ، ثم مررت بالحمام فأزلت متاعب الرحلة .. وقصدت بعدها خان جابر .

لم يصدق جابر انه يرانى سالما !

عانقنى بشوق الصديق ، وجلس الى يرحب بى ويستمع الى حكاياتى وهو يحمد الله على سلامتى . فلما سألنى عما كسبت من البحر من مال أو جوهر .. قلت له :

ـ اننى تعلمت يا صديقى من أهوال البحر درسا هو أثمن كنوزى ..

قال : ما هو .

قلت : الرضى والقبول . لم أعد ذلك الطفل الذى يبكى ان تنكر له الأصدقاء ، أو يقنط ان دار عليه الزمان تعلمت ان الحياة لها أطوارها وفيها الحلو والمر

.. وعلى الانسان أن يرضى بها كما تكون ، وأن يقنع بما قسم الله .

دهش الرجل وسألنى :

ـ أتعنى انك لن تخرج ثانية للرحلة فى البحر ؟

قلت : نعم . وقد عاهدت نفسى وأنا فى أتعس حال على جزيرة المتوحشين بأنى ان نجوت وعدت الى بلادى سالما لا أركب البحر ثانية أبدا .

قال : الخيرة فيما اختاره الله .

ثم قال : اذا ما استرحت قليلا .. أتحب أن تصحبنى لتتفرج معى على ما تحب ؟

ـ لا عدمتك . وما يكون ؟

قال كأنه يتشهى : صوت هو من ترانيم الملائكة لمغنية وفدت الى البصرة يسمونها جوهرة ويزعمون انها من تلاميذ ابراهيم الموصلى ذاته .. اذا علا صوتها خطف الأرواح ، وان خفضته ذهب بالعقول .. سنقوم اليها اذا مالت الشمس برحلة تحت الأرض ..

فضحكت من تهويله حتى سقطت فى ذراعيه أتخبط .. وأنا أقول : وأنعم بالجوهرة !

***

حين مالت الشمس تقدمتني جابر في طريق متعرج خلف السوق حتى اذا أدركنا بابا طرقه ، ففتح الباب وتقدمنـــا غلام الى قاعة مكتظة بالزبائن انتحينـــا منها جانبا وسرعان ما وافانا الغلمان بالشواء والشراب ..

كان الصخب يعلو على غناء المجموعة ، ثم صمت الناس فجأة ، وضرب العازفون لحنا قويا ، وانشـقت ستارة .. انجلت عن « حيــاة » .. حبيبتي ومغنيتي وأسعد أيامي الماضية ..

غنت على لحن عميق ممدود :

« آه على بغدادها وعراقها ..

« وظبائها والسحر في أحداقها .

« ومجالس عند الفرات بأوجه ..

« تبدو أهلتها على أطواقها . »

ثم جـرفتني موجة عاليــة من ترديد مجمــوعة العازفين ، واذا صوت حياة على قمة الموجة ، يرفرف في أسمى مكان ..

نظرت اليها في عينيها ، فلقيتني بنظرة العارف الواثق مما يعرف ، وباشارة من يدها انعطف العازفون

على لحن من القرار ، وران على القاعة صمت كأن على رءوسهم الطير .. وحياة ترتقى سلم الموسيقى بخطو موقع الى أعلى سماء ، وهى تغنى ..

« ولى كبد مقروحة من يبيعنى ..

« بها كبدا ليست بذات قروح .

« أباها على الناس لا يشترونها ..

« ومن يشترى ذا علة بصحيح .

« ائن من الشوق الذى بجوانحي ..

« أنين قصيص بالشراب قريح . »

فضج الناس من الطرب ، ووقفت فى مكانى كأنى وقفت ببابها أو بين يديها ، وقد غمرنى حبها ، ورأيتها من خلال دموعي تتقدم نحوى والموسيقى تردد خطرات غنائها من ورائها ، والمستمعون يهتفون : آه .. آه ..

قالت لى حياة : أهو انت ؟

قلت : بربك انه أنا . فهل نحن فى حلم ؟

قالت : نحن فى اليقظة والحمد لله .

وقلت : وهل طاب لك الزمان ؟

قالت : وهل صفى لك زمانك ؟

قلت : عندى من الدنيا ما يكفينى .

قالت : وما عندك يا عبد الله غير المال ؟

قلت : الشوق لك . فهل يرضيك ؟

قالت : وماذا تريد ؟

قلت : أن تعودى الى بيتى سيدة فؤادى .

قالت : طردتنا من بيتك يا عبد الله . فهل نسيت

قلت : هل تغفرين ؟

قالت : وقبلها بعتنا بخمسمائة دينار .. أو قد نسيت .

قلت : انت التى طلبت منى أن أبيعك .

قالت : واحسرتاه .. ألم تكن انت الذى بعت ، وألم تكن انت الذى أخذ الدراهم ؟

أنا ؟!

وهل نسيت ؟!

وتقاذفت القاعة أصوات من هنا وهناك .

ـ نحن في الانتظار .. لعله الحبيب القديم .. ما الحب الا للجديد .. كلنا أحبابك يا جوهرة .. ولنا نصيب .

قلت : عودى معى الى البيت .. بربك .

قالت حياة : انتظر حتى نسأل وجوه الناس . يا قوم . رجل كان قد باعني بخمسمائة دينار ، فلما رأى تعلق القلوب بنا وارتفاع شأننا شعر أن الشارى بخسه الثمن وجاء يطلب حقه ، فان كنت أساوى أكثر من خمسمائة دينار ، فالرجل مظلوم وعليكم أن توفوه الثمن أو يردنى الى بيته ، فمن كان منكم ذا مروءة فليعطه ما يعوضه وما يفتدينى به والا سلمته نفسى . اظهروا مروءتكم .

ودوت الموسيقى لتغنى :

« ائن من الشوق الذى بجوانبى ..

« أنين غصيص بالشراب قريح » .

ولكن صيحات الناس علت على صوتها :

ـ نحن لها .. نفتديك بالروح .. ما قصدت الا أهلها ..

وقذفوني بالدنانير ، مع الشغب على والشتائم ، وهم في مرح وصخب، فما شعرت الا بيد جابر تجذبني بقوة وهو يقول : ستقتلنا عافاك الله · قم بنـا فى التو ··

وتناوشتنى الأيدى تدفعنى وتجذبنى ، وضحكات السخرية تشمت بى ، ونظرات الوعيد تترصـدنى ، وأنا هالك متهـالك ، قلبى ينتفض من غضب وخوف وحرج وانفعال ، وعيناى تتعلقان بهذا الـوجه الذى ما أحببت فى حياتي مثلما أحببته شيئا ··

غرقت فى المهانة والذل والعشق والرفض والويل، وجابر يجذبنى ، والدنانير تصفع وجهى ، « وحياتى » تغنى ضاحكة بوجهى ··

لعنة الله على هذه الدنيا ! ··

لعنة الله على هذه الحياة ! ··

صرت أضرب سريرى بقبضتى ، وجابر يهـدىء روعى فى الخان ويهيب بى :

ــ هون عليك يا عبـد الله ·· ما هـكذا يصنع الرجال ! ·

عندئذ أفقت ، وتمالكت نفسي ، وقلت :

ـ غدا أشترى متجرى وأركب البحر ، لا بقاء لى هنا يوما آخر .

ـ ألم تقل لى انك عاهدت نفسك ألا تركب البحر؟ هداك الله ..

ـ لابد مما ليس منه بد ..

الفصل الثالث عشر :

قسمة الكنز

مرت الأيام والسفينة تشق الماء فى بحر هادىء وطقس بديع .

قضيت أوقاتى فى السمر واستماع الغناء .. فعاودنى المرح ، وتعلقت بالحياة وخيل لى انى شفيت من حنقى وغضبى وأحزانى ..

وكما أن للبحر قدرة على نسج الشعور بالانقطاع عن الدنيا .. فأهل البحر يملكون القدرة على نسج مشاعر التواصل بالتسرية والمؤانسة والطرب والامتاع .

وسطح السفينة فى النهار ، اذا واتى الطقس وهدأ البحر يصبح منتدى للسمر يجتمع فيه رفاق الرحلة بلا كلفة ويتبادلون الأحاديث والنكات .

وكانت الرحلة قد سلخت آسابيع فى جو بديع وبحر هادىء رائق .. فتآلفت القلوب وتعارفت النفوس .

والمرء حسن في الظـروف الحسـنة •• لا تدرى ما يكون في المحنة •

ولكنى لا أريد أن أسبق الأحداث ••

كنا في سمر وضحك وطرب•• ولكن صيحة تناهت الى أسماعنا أسكتتنا على الفور ، والتفتنا مستطلعين ••
القبطان :

ـ القوا جميع المراسى !

فهب القاعدون وقوفا ينظرون ••

كانت السـفينة في عرض البحر ، ولا يلوح أى شاطىء في الأفق • وكان البحر هادئاوالشمس ساطعة • الا أن السفينة كانت تجرى على صفحة الماء بسرعة جواد السباق •• فبهتنا ، وعلمنا أن القبطان يريد أن يثقل حركة السفينة •

وسرعان ما أنزلت القلوع ••

ولكن السفينة أستمرت في جريانها ••

ولما جاءت صيحة من غرفة الدفة :

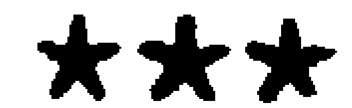
ـ الدفة لا تتحرك يا ريس !

شق القبطان ثوبه وصاح :

ـ آن وقت الصلاة يا أهل الله ! •• فقد دخلنا بالأمر المقدر بحر المغنطيس •• وتياره الجارف يستعصى على كل حيلة ، وسيدفع سفينتنا وقوارب النجاة وكل الأجسام الطافية الى الصخور والهلاك ، ما لم تدركنا العناية الربانية بما يفك آسرنا من التيار • والله هو المنجى !

انقلب الحال الى صراخ وصياح وابتهال وهرج •• وعم الهلع ، وبهت الجميع ، فمنهم من بكى ومنهم من سجد لله ومنهم من ألقى بنفسه فى البحر •• فكنا نرى البحر يجرفه حول السفينة بسرعة وهو يتقلب على الماء بلا حول ولا قوة ••

تبدت لنا الصخور والشعاب بهياكلها المرعبة •• تندفع نحونا بأقصى سرعة ، فعلمت أن النهاية قربت فأغمضت عينى وشق صدرى فزع مفاجىء لم يترك لخواطرى أية فرجة للوهم أو الذكريات •• وأحسست أنى غائب لا محالة عن الوعى ، ولكن قبل الغيبة الكاملة أحسست برجة هائلة وسمعت بأذنى صوت تمزيق الخشب والحديد على أسنة الصخور •• وأخذتنى الغشية •



خيل لى أنى أسمع ضحكات .

وبين الضحكات سمعت صوت رفيق سفرى « ميسور » يهتف : نجاني الله ! ..

فتحت عيني فرأيته يجرى على شاطىء ..

تحسست أعضائى فوجدتنى معافى ..

قمت قاعدا ، فرأيت أن البحر رمانى على الشاطىء .. وكان يحف بالشاطىء جرف عالى الصخور ، فهو مساحة من الرمل محصورة كحفرة يغسلها الماء بموجات مندفعة .

أقبل على « ميسور » يعيننى على النهوض :

ـ نجاك الله يا عبد الله . قم !

فقمت مذهولا أقول : الحمد لله .

قال ميسور : تعال ننظر من نجا من الرفاق .

وأخذنى من ذراعى .

كان الشاطىء مغطى بأكوام من الصناديق والأخشاب وحطام السفن ، فضلا عن بعض الأجساد .

كان « وليد » أقرب الناس الينا ، فوجدناه جريحا

يرقد نصفه فى الماء فجذبناه • ورأينا نور الدين يتكىء على ذراعه وعيناه تحملقان ، فما آن رآنا حتى صاح : ضاع مالى ! ••

فما ملكت إلا الضحك مما يقول •

فحصنا سائر الراقدين فوجدنا بعضهم قد مات ،

ولما لمسنا « عبد القادر » انتفض واقفا ، فلما رآنا أخذ يعانقنا بفرح ودموعه تنهمر •

وجدنا « عثمان » قاعدا تحت الجرف فى الظل ، فما ان اقتربنا منه حتى صاح : « ابتعدوا أيها الشياطين ! » • وأخرج من كمه سكينا يلمع ، فتحاشيناه ••

ووجدنا « عجيبا » يفيق ، فقلت له : تعالى معى نداوى رفيقا جريحا •

قال : « مرحبا بأهل الدنيا ! »

فما ملت على وليد لأفحص جراحه حتى سمعت « ميسورا » يهتف :

ـ يا أهل الله ! أرأيتم ماحولكم من حطام السفن؟! أنظروا ما تحت أقدامكم أيها السعداء !

فنظرنا وخطفت قلوبنا المفاجأة ..

فحولنا بين حطام السفن الكثيرة التي أغرقها بحر المغنطيس ثروات متناثرة .. ذهب وجـواهر وثياب ملوك وسـيوف مرصعة وتيجان وحـلى . ودنان الماء وصناديق الطعام وكل ما كانت تحمله سفن غرقت هنا على مر الأزمان !

ثروات فوقها ثروات !

أخذ الطرب ميسورا فصار يختطف من تحت قدميه العباءات المرصعة بالجواهر فيرتديها فوق بعضها ويضع العقود الثمينة فى عنقه والخواتم في أصابعه ويشـد السيوف الى وسطه وهو يرقص طربا ويغنى كطفل ..

استخف الموقف سائر الرفاق بشتى الصور ..

أما « نور الدين » فقد ارتمى يحتضن بذراعيـه الثروات وأجهش بالبكاء .

وأما وليد فقد زحف من بين أيدينا فلمـا انتبهنا اليـه وجدناه ينزف دما وهـو يكوم أمامه كومة من الثروات .

وصار ميسور يرمي الأشياء المثمنة لهذا وذاك وهو يصيح :

ــ ارتدوا أيها الرفاق أثمن الثياب والحلى ، فاننا ضيوف الملك قارون ، وسنباهيه بما نحن فيه من ثراء !

ثم التقط مزمارا وعزف عليه بينما تعالت الصيحات: آه .. آه .. آه ! ..

وانطلق الآخرون يرقصون حوله متمايلين ..

ولكن شقت مرحهم صيحة من عثمان مخيفة :

ــ ارفعوا أيديكم عن الثروة !

وتقدم خطوتين ، وهو يحدج الجميع بنظرة صارمة . ران الصمت . وجمد الرفاق .

ــ ماذا قلت ؟!

كان عبد القادر أسبقنا للكلام ، فلمع الشر فى عينى « عثمان » ، وأبرز السكين بيده ، وقال :

ــ أخاف عليكم من غوايتها .

قال ميسور بخفة : عافاك الله من الخوف والقلق ..

فقال عثمان بصوت خطير : وان تقاتلتم عليها سيقتل بعضكم بعضا حتى تفنوا جميعا .

قال « عجيب » مستنكرا : فمباذا تشير يا سيد ؟

قال « عثمان » : سأقسم لكل رجل نصيبا ٠

فقال عبـــد القادر : ومن ولاك قاضيا للقســـمة يا شيخ ؟!

قال « عثمـــان » : أنا اقواكم ، وأقدركم على كف شركم ٠

ولوح بالسكين ٠٠

قلت : وهذا أعجب من كل ما سمعناه سابقا ٠

فضحك « ميسور » بمرح وقال : وأطرف !

قال « نور الدين » بصوت يائس : دعوه يفعـل ما يريد ٠

وسأل « وليد » : وكيف تقسم المال بيننا ؟

فهتف عبد القادر : هذا سؤال لا يسأل ٠ فالرجل شرير ٠ والثروة تحق لنا بالتساوى ٠ نقسمها أكواما ثم يختـــار كل منا قســـما بترتيب السن ٠٠ الأكبر فالأصغر ٠

صاح «عثمان» : لاتثرثر انت! أنا أعرفكم جميعا ·
انتم تجار أشرار مغامرون ، تتبعون الهوى والأمر بالسوء · ويغلبكم الجشع والطمع · وكما تحتاجون اماما يؤمكم فى الصلاة ·· تحتاجون سلطانا يكف شركم ويقيم العدل بينكم ويسوسكم ·

قال « ميسور » : الرجل بعد أن ترشح قاضيا ولى نفسه سلطانا !

صاح «عثمان» : أتعرف انت أرضا بلا سلطان ؟!

فقال عبد القادر : الرجل مجنون · هيا نكتفه كتاف المجانين ··

وهم به ، و « ميسور » يقول : بل دعه نضحك منه ··

ولكن الضحكة ماتت حيث طعن عثمان عبد القادر بالسكين طعنة نجلاء فسقط الرجل يتخبط فى دمه وعثمان يصيح فوق صرخته :

ـ الى الوراء أيها الأشرار ! واتركوا كل شىء على الأرض ··

صاح « نور الدين » : شيطان رصد الكنز !

وصحت أنا : لا تلقوا السلاح ·

ولكن عثمان سبقنا فالتقط قوسا وأطلق سهما فوق الرءوس :

ـ القوا كل سلاح وكل متاع !

فرمى كل منا ما بيده من سلاح ومن متاع

وتقدم نحونا مهددا ··

ـ الى الوراء · الى الوراء ··

فلم نتوقف الا وأرجلنا فى الماء ، وهو يقول : من كان منكم يريد أن يكون خادمى وفى طاعتى سينال نصيبا من الثروة ، والآخرون نصيب الذى قتل · الى الوراء ··

فتراجعنا مذعورين فى الماء ·· الا « عجيبا » الذى أقبل على عثمان يهتف : أنا أخدمك يا سيد ، واجعل لى نصيبا من الثروة !

فقال له من فوره :

ـ سيكون لك النصف · اجمع كل ما خف حمله وغلا ثمنه وكومه فى المكان الظليل تحت الجرف هناك، وأسرع !

انطلق « عجيب » بهمة يجمع الثروات .. وقال من بعيد : قرب الماء والطعام يا سيد ..

ـ هذه اجمعها كلها بلا اهمال ..

وقفنا هكذا فى الشمس نصف النهار ، و «عجيب» يلم شتات الثروة بهمة ونشاط .. فلما مالت الشمس صرنا نبلل وجوهنا بالماء ونحن وقوف به . فأتى عجيب ببعض الماء يسقى عثمان ، وكان الظمأ قد برح بنا ، فصاح به نور الدين :

ـ اعطنا نصيبا من الماء والطعام ، ولا ننازعك فى سائر الأشياء .

قال عثمان : مهما كان عندنا من طعام أو شراب لانفرط فيه ، لأننا لا نعلم متى نخرج من هذه الحفرة ، فلا تطلب لنفسك أو لغيرك شيئا .

قال نور الدين : سنموت !

فقال عثمان هازئا : عليك رحمة الله !

ارتمى نورالدين وهو يرتعش على ركبتيه وصاح: اذن خذنى عبدا طائعا لا يخالفك فى أمر ، واعطنى جرعة ماء !

دفعه عثمان بقدمه : اذهب الى الشيطان ٠

فاندفع نحوه نـور الدين يصيح : ولو كنت انت الشيطان نفسه ، فانى خاضع لمشيئتك بجرعة ماء ٠

ــ ليس عندنا لك نصيب فى شيء ، فابتعد تنجو بحياتك ٠ ! ابتعد !

ولوح في وجهه بالقوس والسهم فصاح «نورالدين»: لم يقبلنى عبدا بجرعة ماء ، وماء البحر يملأ الآفاق ٠٠

ورمى نفسه فى الموج ونحن نحاول ادراكه فمـا استطعنا من قوة دفع الماء آن ندركه ، بينما صار يتقلب على الموج ويتقاذفه الماء حتى غاب عن أنظارنا فى لجة البحر ، فأدركنا انه غرق ٠ وتمزقت صدورنا بما وقع، ولم نعد نملك أنفسنا من الحزن فقعدت في الماء واحطت وجهى بذراعى لأبكى خفية عن زملائى ٠٠

سمعت صوت عثمان يتهدج :

ــ اعط كلا منهم جرعة ماء ٠

فشربنا ، وأنسحب عثمان وعجيب فى ظل الجرف وقد كوما الثروات ورآيتهما يصلحان بعض الصناديق المهشمة ليضعا فيها الكنز ٠٠

قال « ميسور » : فلننطلق لنبحث عن بقايا طعام، أو شراب حتى لا يضطرنا الجـوع والظمأ أن نتسـول قوتنا .

فانتشرنا نجمع ما عافت نفس عجيب أن يلتقطه من بلح مغموس فى الرمل أو قدر مكسور بقاعه قطرات ماء ، وانتحينا ناحية والشمس تميل فى الأفق .

أكلنا ثم قمنا ندفن الموتى ، ونقرأ كلام الله على قبورهم ..

ثم قلت لرفيقى : لا خروج من هذا الجب .. الا أن نصنع سلما من الخشب والحبال نرتقى عليه الى أعـلى الجـرف .

سأل « وليد » . وهل يتركه لنا أن صنعناه ؟

فقلت : وأية حيلة لنا فى ذلك غيرها ؟

انتشرنا نجمع الأخشاب والحبال ، وميسور يقيس ارتفاع الجرف بعينيه ، ويرتب الأخشاب بحيث يصير السلم متوازن القوة .. فلما أدركنـا الليـل نمنا ، وصحونا بكرة نعمل بهمة ونشاط .

أخيرا .. أسندنا السلم الى الصخرة ، واتفقنا أن

يصعد وليد أولا لأنه آخفنـا وزنا ·· وأن ننتظـره ليستطلع المكان فوق ثم نتبعه ·

صعد وليد السلم محاذرا ·· درجة درجة ، ونحن نستد أخشابه بأيدينا ··

ولاحظت أن عثمان ورفيقه يرقباننا بانتباه ·

فلما وصل وليد القمة ·· اختفى بعض الوقت ، ثم بدا يلوح لنا فوق الجرف ويصيح :

ــ ماء وشجر · نهر صخاب ، فواكه من كل صنف · تعالوا تعالوا ··

فهب عثمان واقفا يصيح به :

ــ أيوجد عمران وبشر ؟

قال وليد : لا ·

ــ وهل النهر يصلح للسفر فيه ؟

قال وليد : يلزمكم قارب ·

فصاح به عثمان : اذن فأنزل وساقاسمكم الطعام والشراب وأعطيكم بعض المال اذا صنعتم قاربا ··

فصاح به وليد :

ـ والله لو عرضت على الكنز كله لا أنزل بعد أن فزت منك بحيـاتى ٠٠ فوداعا أيهـا الرفاق وافعلوا ما بدى لكم ٠

اختفى وليد ، بينما اقترب منا عثمان وصاحبه ٠٠

أسر لى ميسور : يحسن أن نطيع ٠

قلت : نعم ٠

قال ميسور لعثمان : واذا أصلحنا قاربا من قوارب السفن المحطمة هنا ، فكيف نستطيع أن نرفعه الى فوق؟

قال عثمان : سندبر هذا بالحبال ، بعد أن يكون بعضنا فوق وبعضنا تحت ٠

قدم لنا الطعام والشراب ، وأخذ يتلطف معنـا بالحديث وقد انتقينا أصلح الأخشاب من عدة قوارب محطمـة ، وأقمنـا منهـا قاربا واحدا لا بأس به ٠٠ وتدبرنا فى رفعه فقال عثمان :

ـ سنرفع الثروة أولا ٠

صعد عثمان السلم أولا ٠ ثم تبعه ميسور ، وأقاما معا فوق الصخرة قاعدة للرفع تجرى بها الحبال على بكرة

وارخوا الحبال .. حيث صرنا آنا وعجيب نربط بهـا الصناديق ويتعاون عثمان وميسور على ضمان اتزان القاعدة والبكرة من فوق ، ونحن نشد الحبال من تحت لنرفع الصناديق الواحد بعد الآخر .

كنت أشـهد فرحة عثمان فوق بوصول الصندوق وهذره مع ميسور .. بينما كان عجيب عندى يرقص طربا ومرحا ويتلطف معى .
وكنت أدعو الله آن يهديهما للخير ، بعدما اقترفا من آثام ، وان ينجينا من الشر .

جاء دور القارب فرفعناه شبرا شبرا عـلى جانب الصخرة ، محاذرين دائما من اصطدامه بالحجر .

وكان التعب والارهاق قـد نال منـا ، والعرق يتصبب من جسدينا ، وعثمان يهيب بنا من فوق :
ـ الشدة يا رجال . كان الله فى العون .

فلما حط القارب فوق سحبـه عثمان وميسـور واختفيا بعض الوقت ، فقلق عجيب وصار يصيح :
ـ عثمان . أخى عثمان .

ثم اشتد به القلق، فأخذ يرتقى السلم، ويقول لى:

ـ انتظر حتى اصعد لفوق • حتى لا نثقل السلم بصعودنا نحن الاثنان معا •

ولم يخطر ببالى أبدا أن أسابقه فى الصعود ، أو أن ألحق به عن قرب ، لخوفى مما سيكون ، ومحاذرة مما سيقع •• وقنعت بالانتظار ، وأنا فى اضطراب عظيم•

وكان عجيب قد وصل الى ربع المسافة فوق السلم، حين بدا عثمان فوق يصيح به :

ـ يا عجيب• اقتل من عندك فقد قتلت من عندى،

ثم الحق بى ••

ففرح عجيب ونزل مهرولا نحوى يشهر السيف • وجريت من خوفى منه • كنت أعزل عن كل سلاح ، وقد تملك عجيبا جشع يتفجر من عينين وحشيتين ، لم أر فى حياتى قط ما اجتمع فيهما من بريق القسوة وبريق السعادة معا •

ولكن ذهنى الهمنى فالتفت أصيح به :

ـ أدرك الرجل فهو يمطلك ليفوز وحده بالثروة •

فتردد ووقف • ثم حزم أمره وعاد الى السلم يرتقيه بلهفة ويصيح بعثمان أن ينتظر • فما وصل

عجيب الى أعلى السلم حتى ظهر لى عثمان •• ودفع عجيبا بقوة فوقع من حالق والسلم فوقه • ولما اقتربت منه وجدته مات ، وعثمان يضحك فوق •

عصف بى الانفعال ••

بللت وجهى بماء البحر وقعدت هناك •• لم أشعر فى حياتى بما داهمنى آنذاك من الكمد والعجب من الناس • فكم رجلا نجا من العواصف ليلقى حتفه فوق صناديق المال •

لم أستعجل تدبير الهرب من هذا المكان النحس • وخليت الوقت لعثمان كي يهرب بثروته ••

التمست الموضع الأول الذى اختاره لنفسه عثمان حيث جمع الطعام والشراب فأصبت بعضا منهما، وكانت الشمس تميل فى الأفق فنمت ••

تناوشتنى الأحلام المزعجة ، فكنت أصحو فأنتبه لما أنا فيه فيغشانى حزن فوق حزن وأعود للنوم •

فى الصباح قمت • فدفنت جثمان «عجيب» ورأيت هدوء ملامحه واسترخاء أعضائه وأنا أتأمل حكمة الله فاطر السماء والارض ، وصانع النفوس ••

لم يبق أمامى الا اصلاح السلم ، وجبر ما انكسر من أخشابه أو ما انحل من حباله ..

فلما أتممت ذلك رفعته بكل مشقة على جدار الصخرة وأخذت أرتقيه محاذرا خطوة .

فلما وصلت فوق ، وجدت الدنيا غير الدنيا ..

فانى قادم من فوق ركام السفن والشاطىء الصخرى القاحل ، ومعالم الكوارث ومدافن الموتى .. الى جنة خضراء ذات طيور وحياة ..

اتجهت للنهر ..

فواعجبا ! ..

رأيت القارب محملا بالصناديق ومربوط بعناية الى الشاطىء ، وفوقه كل الكنوز ..

وعلى جنبيه يرقد « عثمان » و « وليد » قتيلين !

فقدرت ان وليدا لم يبتعد عن الموقع بعد أن أعلن عزمه على الرحيل ، وانتظر ، فى مكمن ، فرصة تحين للانتقام أو للاستيلاء على الثروة .. كيف أدرى ؟

فلما قتل « عثمان » « ميسورا » ، ووضع الثروة فى القارب واستعد للرحيل برز له وليد بقضيب من

الخشب فضربه على رأسه ‥ ولكن عثمان كان به الرمق بعد ذلك ليطعنه بالسيف فى صدره ‥

ورقد الاثنان قتيلين جنب القارب ٠

فما أتعس المآل !

لم أستطع البراح الا بعد أن عثرت على جسد « ميسور » ‥ وحفرت حفرة دفنت بها الرفاق الثلاثة ، وقرأت بعضا من كتاب الله ‥

ولبثت ساكنا بعض الوقت أستجمع شتات نفسى ، ثم ألقيت جسدى فى القارب وحللت رباطه فانساب مع مجرى الماء وقد مالت الشمس للغيب ٠ ولعلى نمت بعض الوقت ، فلما صحوت كانت النجوم تطل على من الظلام ، والقارب منساب ٠

تأملت ما جرى واستفزنى غضب وانكار ٠

فقد رأيت فى حياتى الموت على كل صوره ٠

رأيت الزوابع وشيطان البحر وتحطيم السفن والغرق رأيت الرخ والأفاعي القاتلة وفتك الصخور ‥ ومع ذلك لم أر فى حياتى أكثر اثارة للنفس بالغضب من رجل قاتل ٠

فالرجل القاتل هـو وحده من دون سـائر أدوات الهلاك ٠٠ الذى يعرف انه يقتل ٠

الرجل القاتل شر من كل عواصف البحر ، وأخبث لأن عواصف البحر تمضى فى طريقها الخطر بريئة عن العمد والقصد الى القتل ٠

ها أنا أسبح فى النهر فوق كنوز قارون ، ولا أملك نفسى التى تجيش بالقشعريرة وأنا أتذكر كم رجلا فقد حياته فوق هذا الكنز ٠٠ وكم من الأصدقاء والرفاق والأبناء والارامل يبكون اليوم رجالا ماتوا هنا ، وهم لا يعرفون تفاهة السبب الذى قتل به أحبابهم !

الفصل الرابع عشر :

أميرة الهند

سمعت ضحكات انثوية رقيقة ، ثم أحسست باهتزاز الزورق .

قمت من نومى أستطلع فرأيت نساء هنديات يهززن قاربى وتتضاحكن مرحات ، فلما رأيننى قمت قاعدا فى القارب صرخن وجرين متدللات نحو الشاطىء .. فعلمت انى وصلت العمران فدفعت الماء بالمجداف أطلب الشاطىء حيث خرجت البنات ، وربطت القارب الى شجيرة هناك وتبعتهن ، وقد حملنى شبابى على الطرب من جمالهن .

فلما دخلت حرشا أطلبهن ، وجدت الجند يحيطون بى متحفزين ، واحدى البنات لا تزال ترتدى ثيابها قد برزت لى تصرخ بالهندية .

ودفعتني في صدري بغضب ·· فأحاط الجند بي وهي تصيح بلسانها الهندى ·

تملكني الخوف فقلت :

ـ سامحك الله ··

فقالت بلسان عربي : انت عربي ؟!

قلت : نعم :

قالت : وما أتى بك الى هنا ؟

قلت وأنا أتحسس موضع ضربتها على صدرى : القدر رماني لأتلقى كرم ضيافتكم ·

فغالبت الضحك وقالت :

ـ ألا تعلم ان التلصص على البنات وهن في حمامهن أمر يستوجب العقاب ؟ ·

ـ حمامهن ؟! ·· قلت : ظننت ان زورقي يجرى في النهر ··

فقالت الفتاة : ألم تر البوابة على النهر لتعلم انك دخلت بستان الملك ؟

قلت : بستان الملك ؟ أهلكني تيار الماء وأنا نائم في زورقي ·

قالت : وهل جئت من بلدكم نائما في زورق ؟!

قلت : لا والله · فقد كنت في سفينة غرقت في بعض النواحي فأصلحت الزورق وآجريته في النهر ··

قالت : سنتحقق من ذلك في قصر أبي ··

وأشارت الى الجند : فاقتادوني الى محل ضيافة الغرباء بجوار قصر الملك ، فوجدته بيتا متواضعا خشنا وقدرت أن هذه المدينة لا تعرف بعد ترف الحياة الناعمة .

★★★

حمل الى الخدم صناديق الثروة من الزورق ، ففتحتها للمرة الأولى فخطفت بصرى التحف الثمينة وكانت شيئا كثيرا جدا ·

صدقني ·· لقد أطربني ما أحصيت في حيازتي من الأشياء الثمينة ، وكنت أحسب اني سأنفر منها لما أريق حولها من الدم · وقدرت ان الأشياء تمضي من يد الى يد فتذوب من حولها ما ارتبط بها من أحداث أليمة أو ذكريات مؤلمة ·

.. دعاني الملك إلى مجلسه فانتقيت من صناديقي بعض الهدايا الثمينة وذهبت اليه فوجدته جالسا بين

وزرائه ورجاله والى يمينه ابنتــه الاميرة ٠٠ فراعنى جمالها وهى فى أتم زينتها ٠

وكان الملك يجلس على سرير متواضــع ويتــدثر بعباءة خشنة ، وقد ارتدى وزراؤه المــلابس فى غــير أناقة ، فأحسست بالحرج من كونى قد حرصت عــلى ارتداء أثمن ملابسى وأجملها ٠

سألنى الملك عن حــكايتى ٠٠ فحــكيتها له وهــو يضحك ويتمايل من الضحك حتى يضحك معــه رجاله وهو يقول :

ـــ زدنا يا رجل من عجــرك وبجــرك وأحــاديثــك المخترعة ، ولا تدخر شيئا من آكاذيبك المسلية ٠٠

فقالت ابنته : ولكنى أصدقه يا أبى ٠

فقال الملك : لأنــك يا « رانا » لا تزالين طفــــلة لا تعلمين ما الدنيا ٠٠

قلت وأنا أكتم غيظى : فى هذه الدنيا يا مولاى أشياء لم أرها فى حياتى ، ولكنى أصدق وجودها ان شهد بذلك غيرى ٠

قال الملك : لا أصــدق الا ما أراه ، وقــد رأيته فى حياتى كل الأشياء ٠

قلت : عفوك يا مولاى ، لعلك رأيت أشياء كثيرة ، ولكنك لم تر نبالة وجهك .

طرب قليلا ، ثم ضحك وقال :

ـ وهل يرى الانسان وجهه الا مهتزا على صفحة الماء ؟

قلت : نعم ، فعندى الشيء الذى ترى فيه وجهك كما أراه الآن .

وأخرجت من صندوقى مرآة قدمتها له ، فنظر فيها وانزعج ، ونظر حوله فأخذت منه ابنته المرآة ونظرت فيها وشهقت ..

قلت : كل شيء فى صندوقى يا مولاى ، هدية لك ، وهى طرائف ليس مثلها عند الملوك ، فدعنى أعرضها عليك .

وضعت بيدى على كتفيه عباءة مرصعة بالجواهر وعلى سريره مفرشا من الدمقس ، وتحت قدميه سجادة ثمينة من العراق ، وعلى جانبيه مصباحين من الذهب أوقدتهما فسطع ضوؤهما ، وأمامه منضدة مطعمة بالصدف والفضة ، ثم قدمت له سيفا مرصعا بالأحجار الكريمة ..

هتفت البنت : ما أجمل هذا !

فقدمت لها من الصندوق ثوبا مطرزا من الموصلي لففته حولها وزينته بالعقود والدبابيس المرصعة ، ووضعت على رأسها عمامة موشاة بالذهب والماس ينسدل منها وشاح موشى بخيوط الفضة والذهب .

شمل القاعة طرب وتعالت الصيحات وأمسكت الأميرة « رأنا » بذراعي وهتفت :

ـ ابقه يا أبى ! .. ابقه فى بلادنا ليحكى لنا مزيدا من أخبار ما لم نر وما لم نسمع به !

★★★

أهدى لى الملك بيتا فى المدينة ونزلت فى ضيافته أتفرج على بلاده فى النهار ، واعانى السأم فى الليل ، وأنتظر .

سمعت من الناس أنه قلما تأتى الى هذه البلاد سفينة ، ولكن أملى لم ينقطع .

فكرت في أن أعالج السأم بعمل أقوم به .

فمرة كنت في ضيافة الملك ، وكان يسألنى عن حالى وعما رأيته في مدينته فقلت له :

ـ يا مولاى . لقد رأيت الفرسان في بلدكم يركبون الخيل بلا سروج ، والسرج أليق وأكثر راحة في الحرب أو في السفر .

قال الملك : وما هو السرج ؟

قلت : لو أذنت لي قدمت لك سرجا هدية .

وكان بصناديقي سرج ثمين أحضرته معي .. فخرج الملك الى باحة القصر ومعه ابنته ورجاله فأسرجت له جواده فركب عليه ، واختبر توازنه على الجواد ومشي به وأنا أرشده الى ما يصنع بالركاب وكيف يسوس الجواد . فلما دار في باحة القصر دورتين ، واطمأن الى السيطرة على الجواد هتف :

ـ ما أيسر الركوب بالسرج ! .. كأنى جالس على سريرى بالذات ! .

فصفقت ابنته من الطرب وسألتني :

ـ أعندك سرج لي ؟

ولم يكن بصناديقي غير هذا السرج ، فقلت :

ـ اذا سمح لي مولاى فأنا أجمع نجارا وحدادا

ومنجدا فنصنع سروجا كهذا السرج كما يرى الملك ٠
فأمر الملك بتنفيذ ذلك ٠

★★★

لما رأى أعيان المدينة حفاوة الملك بي ، وانسوا منه الميل لى ٠٠ تسابقوا الى زيارتي والتلطف معى واهدائي ٠٠ فلم أبخل على أحد منهم بهداياى الكثيرة ٠

فتحت دكان السروجي ، وأشرفت على عمل النجار والحداد والمنجد ٠٠ وتسليت عن وحدتي وعالجت سأمى بالاستغراق فى العمل ٠

كانت الأميرة تمر بى فى الدكان ، وتغدق على من رقتها ولطفها ٠٠

مرة قالت لى : يا عربى ٠ نسأل عنك كثيرا ، لنطمئن عليك ، وانت لا تسأل عنا أبدا ؟

قلت : بارك الله فيك ولا بارك فى ٠٠

فضحكت وقالت : تلصصت علينا فى الحمام فأغضبتنى ومع ذلك عفوت عنك ، فهل تريد أن أغضب منك ثانية ؟

قلت وأنا أتحسس موضع ضربتها على صدرى :

ـ كان عفوك مؤملا يا مولاتى فما بال غضبك ؟

ـ فكيف بك ان ذقت عقابى لك بسبب اهمالك السؤال عنى ؟

ـ ان سخطت على فهذا عقاب أليم .

ـ أنا ساخطة .

ـ فعلى أن أطلب الصفح وأن أسعى الى رضاك .

ـ ولن أرضى حتى تصنع السرج لى وتعلمنى ركوبه كما علمت أبى .

ـ حبا وكرامة ..

ركبنا أنا والأميرة فى الخلاء ، على جوادين مسرجين، وأنا أرشدها الى طريقة السيطرة على الجواد والتوازن فوقه وأحكام قيادته ..

وكنت أعمد أحيانا الى اظهار مهاراتى فتضحك جدا وتريد أن تقلدنى فأحذرها .

لما وصلنا الى ضفة النهر نزلنا نستريح ، وجلسنا بين الزهور البرية . فتذكرت أوطانى ، وما ببلادى من الترف والتمدين والفنون والعلوم وعجبت مما بها

أيضا مما يؤلم ويقض ، حيث تذكرت « حياة » وما كان منها معى ·

قالت الأميرة : ما أطول صمتك ··

قلت : تذكرت بلادى ·

قالت : لا تدع الحنين يذهلك عما انت فيه من راحة البال · انت فى بلد أهله يحبونك ويعظمونك · ألا يسرك هذا ؟

قلت : نعم ·

قالت : يبدو عليك غير ذلك ·

قلت : ليتنى كنت مثلكم ولى عاداتكم وبنفسى ما بنفوسكم ·

قالت : لا أتمنى لك ذلك · فقد أحببناك كما انت ، ولما عندك من الذكاء والمهارة · لا تأبه لعاداتنا وكن دائما انت ·

قلت : وددت لو استقامت أمورى وعشت فى بلادكم ·

قالت : هذا أفضل مما يقال عندنا فى مثل هذا الحال فعندنا يقال : وددت لو أموت عندكم ·

وقامت تجرى وهى مضطربة ، فعلمت آن الأميرة قد تعلق قلبها بى فاعترانى الخوف ·· حيث ان ابنة الملك تكون عادة موضع تنافس بين شباب الأسر الغنية ، ولعل اظهار هواها يعرضنى لمخاطر لم أطلبها ·

عمدت الى العودة للمدينة بسرعة ·· فما أن افترقنا ، كل منا فى سبيله حتى لاحظت هرجا فى السوق ومناديا يصيح : سفينة ! ·· يا آهل البلد ·· بسفينة !

فخفق قلبى بقوة ، ولويت عنان الجواد نحو المرفأ ، فوجدت سفينة فى الأفق تتجه للشاطىء فعمدت الى بيتى بأسرع ما أستطيع ، وجمعت ما عندى مما خف حمله وغلا ثمنه فى صناديق وأنا مضطرب من انفعالى · فلما أتممت ذلك فكرت في زيارة الملك لاستئذانه فى السفر ، فاذا طارق يطرق على الباب ورجل من الحاشية يدعونى الى القصر ·

كان رجال الملك يحيطون به ، وكل منهم فضلا عن سيدهم ، من أصدقائى وممن انتفعوا بمشورتى وهداياى فلم أضطرب لاجتماعهم على هذه الصورة ، ولكنى تعجبت من غياب الأميرة فى ساعة الوداع هذه ·

ـ دخلت سفينة المرفأ يا عبد الله ، فهل عرفت ؟

ـ نعم يا مولاى .

ـ قلما تدخل سفينة في مرفئنا لأن البحر من حولنا خطر . ولكنى علمت ان هذه السفينة تأتى من البصرة ، ولعلك تجد فوقها من تعرف ..

قلت : نعم يا مولاى .

قال الملك : فعلام عزمت ؟

قلت : عن أى شيء تسألنى يا ملك الزمان .

فاستاء وقال : ألا تعلم عن أى شيء أسألك ؟!

قلت :لا تؤاخذنى يا مولاى ، فمازلت مبهور الأنفاس مما سمعت .

قال : لقد أكرمنا ضيافتك يا عربى ، فهل تشكو من أى شيء ؟

قلت : حاشاى . وأنا مدين لك الى آخر العمر ..

قال متلطفا : ونحن مدينون لك من حيث علمتنا صنائع كثيرة وأضفت على حياتنا ترفا ولطفا لم نعرفه

قبل • ولذلك فقد استشرت رجالى فوافقونى انك عندى أغـلى من كل الأشياء التى أحببناها • انت أثمن شىء أملكه • فأطلب ما شئت أقضيه لك •

قلت : أكرمتنى يامولاى فوق ما أستحق، ولا أطلب الا اذنكم فى العودة الى بلادى وأهلى •

فغضب وقال : غدر بك لسـانك يا عربى ، فما هكذا يكون شكر الملوك على عطاياهم •

قلت : ماذا قلت ليغضبك يا مولاى ؟

قال : أيرد للملك قول أو اشارة !؟

قلت : لم أرد لك قولا أو اشارة •

فأشار بيده ، فاذا الجند أحاطوا بى ، واقتادونى اقتيادا الى باب جانبى بالقاعة فنزلت سلما فما بلغت نهايته حتى وجـدت نفسى فى السجن ، وأغلقوا عـلى بابه وذهبوا ••

مضى النهار فلما أتى الليل جاءونى ببعض طعام عافته نفسى ••

جافانى النوم ، ولما أصبح الصباح داخلنى الخوف، فاختلط بالسخط فى نفسى ، فارتبكت ••

السفينة العربية فى المرفأ ••

وأنا هنا سجين لا يعلم عني أحد شيئا ، ولو قتلني الملك ، لن يعرف أحد محنتي !

لما مالت الشمس جاءني سجاني بالطعام ، فلما رأى طعام البارحة أمامي قال :

ــ لم تأكل طعامك ٠

قلت : لا أريد ٠

قال : لا تحزن لما انت فيه وأولى بك أن تسعد باعزاز الملك لك ٠

قلت : اعزاز الملك ؟!

قال : غدا تذهب السفينة وتعود أعز ندمائه ٠

قلت : وهل يصفو لى مجلس معه بعد اليوم ؟

قال : أو كنت تحسب انه يفرط فيك أو يتركك تسافر بعد أن أحب مهارتك وبديع صنائعك ؟

قلبت رأسى عجبا !

لقد قال لى انت أثمن شيء عندى وأغلى شيء أملكه

فيالخسة التفكير وحماقة التعبير !

كلما التفت ناحية صادفت عجبا ، ومن أعجبه

ما صادفت أن يصبح كرمي ومساعدتي سببا لعبوديتي، وأن تصبح مهارتي وذكائي سبب الازدراء بي وسجني.

قلت للسجان : أنا انسان ولست شيئا يكتنزه الملك، أو أنا من جملة مقتنياته .

قال السجان : وكيف تعجب من ذلك وفي هذه الدنيا كل رجل يملك الآخر . هذا هو الناموس ، مهما زين المنافقون أحوالنا . فهل تعرف في بلادكم غير ذلك ؟ ..

تأملت قول السجان، فعلمت ان الدنيا ضاقت بي. ولا أحسب أني أحسست في حياتي بالضيق مثلما أحسست في تلك الساعات ..

فاني ما سافرت من بلادي الا لمحب رماني أو محبين امتصوا خيري ثم نبذوني نبذ النواة ، وكما ركبني عجوز البحر استغلني أصدقاء محسوبون علي . لقد كنت مجرد شيء هنا وهناك ، أو ليس الأفضل أن أكون شيئا مرغوبا فيه ومحبوسا في قصر الملك ، من أن أكون شيئا رمته الحبيبة في خان البصرة لجماعة من السكارى يهزأون به أو أن أكون شيئا رماه البحر فقيرا مسكينا على حائط ضريح « سيدي الغريق » ؟!

تمردت على نفسى ولعنت المقارنة !

أنا لست شيئا ! أنا انســان ٠٠ ولن أدع لأحــد سبيــلا أن يمتلكنى بالمعروف أو بالعــدوان ، حبا أو انتفاعا أو استغلالا ٠٠ فأنا انسان !

أنا رجل حر ، ولن أدع لأحد سبيلا الى حريتى ٠

فتح باب الزنزانة فأوقف ذلك خواطرى ٠

وجدت الأميرة أمامى ٠

وضعت سبابتها على شفتيها ثم قالت بصوت عال :

ـ قم يا عبد الله ، فالملك يطلبك ٠

تبعتهـا صــامتا ، والســجان حائر ممتثــل ٠٠ فاقتادتنى فى ابهــاء القصر حتى وجــدت نفسى فى الطريق ٠

كانت الدنيا ظلاما ، وهى تتقدمنى وأنا أتبعهـا حتى بلغنا زقاقا يؤدى الى المرفأ ٠ فتوقفت وواجهتنى:

فز بنفسك يا عبد الله ٠ أمامك المرفأ والسفينة ستبحر فى الصباح ، وقد اكتريت لك عليها والقبطان ينتظرك ، ولن يعلم أبى الا وانت فى عرض البحــر سالما ٠٠

ـ وانت ؟

ـ لا تقلق على فأبى سيتلطف بى بعد غضب قصير .

قلت : سيدتى . ضحيت برضى أبيك من أجلى

قالت : أرى دموعا بعينيك .

ـ تعالى معى الى بلادى ..

ـ لا أجرؤ .

ـ تحبيننى .

ـ ليتك أحببتنى كما أحبك .

ـ أحبك .

ـ لو كنت أثق فى حبك لركبت معك فى الحال .

ـ أقسم لك ..

ـ لا تفعل .

وجرت من بين يدى ، وهممت بالمضى الى السفينة ، فما خطوت خطوتين حتى توقفت منفعلا : الى أين يا عبد الله . أو تترك من أحبتك لتعود تبحث عمن نبذتك .. وتتاجر فى الخسارة .

عدت ادراجي مسرعا فعند أول منعطف وجدتها واقفة تنتظر ودموعها تنهمر على خديها · تلقيتها فى ذراعى فأحاطتنى بذراعيها وأنا أقول :

ـ يا أميرة فؤادى ! ·· أنا أسيرك وأحبك ولا غنى لى عنك فى الدنيا كلها ·

فشهقت ونادتنى باسمى وأنا أقبلها بشوق فاض منى فعلمت انى ما كتمت حبى لها بصدرى فيما مضى الا اشفاقا من صدها وخوفا من أبيها ، ومن المتنافسين على زواجها علمت كم كنت أحبها ·

الفصل الخامس عشر :

الحياة بعد الموت

تزوجت الأميرة فى حفل رائع ..
قضيت شهورا فى سعادة أنستنى غربتى .

عادت لى مشاعر الطمأنينة وراحة البال التى كانت هجرتنى منذ أفلست فى صباى الأول ..

لم يدخر الملك أو رجاله وسعا فى رعايتى والحفاوة بى ..

كنت أقضى نهارى فى معملى أدرب الصناع على صنع مختلف الطرائف غير ما علمتهم من صناعة السروج وزينة الفرس .

وفى المساء كنت فى قصر الملك أو فى بيتى مع أضيافى نستمع للغناء أو نشاهد الرقص الهندى البديع ، ونقضى جانبا من الليل فى السمر .

كانت حكاياتى تشوق كل من اجتمع حولى من أهل

المدينة ، فان انقطع الحديث تزاحموا لسؤالى عن بغداد والبصرة وما فيهما من عمران وأحوال وأشياء • وينصتون مشغوفين ••

وكانت أميرة فؤادى « رانا » تحيطنى دائما برقتها وحبها وانسها فلا تغيب عن نظرى ساعة الا افتقدتها واشتقت لها •

كما هوت أميرتى ركوب الخيل بعد آن دربتها على ذلك ، فكانت ترافقنى كثيرا فى ارتياد ما بظاهر المدينة من غابات وآحراش وريف •• فنقضى نهارا فى الخلاء الأخضر الغنى بالجمال والحياة •

فذات مرة جاءنى نجار معملى حزينـا وقال لى : عندى نبأ سىء يا سيدى • فقـد ماتت زوجة الحـداد فهل ترافقنى لتعزيته ؟

فأسفت أسفا شديدا وذهبت معه •

عجبت اذ رأيت الحداد فى بيتـه قاعدا بين أولاده يبكى وهو أشعث الشعر ممزق الثياب يلطم خديه ••

وصاح بنا :

ـ يا مصيبتى ! آه مما ألم بى ! •• ماذا سيقع لأولادى الصغار المساكين •

وتحتضنه ابنته وهى تصرخ : أنا فداؤك يا أبى . لا تبك وأنا فداؤك !

فقدرت انه لابد كان يحب زوجته حبا بالغا ، فواسيته معزيا : يعطيك العمر الطويل يا رجل . لا تجزع .

فأعول وقال : ضاع عمرى فأين لى به وقد ماتت زوجتى ..

ملت على النجار أهمس له :

ـ لابد أنه كان يحب امرأته حبا فائقا ليجزع عليها هذا الجزع ..

همس لى النجار : انما يجزع على روحه لا عليها .

قلت : يجزع على روحه ؟!

قال : لأنه يدفن اليوم مع زوجته .

ـ ماذا قلت ؟!

قال : هذا ناموس البلد . كل زوج تموت زوجته ، أو زوجة يموت زوجها .. يدفنان معا .

صحت رغما عنى : حيا ؟!

همس النجار : نعم ٠

قلت : ما أفظع العقوبة !

قال النجار : ليست عقوبة ، وانما رفقة الحياة الدنيا تمتد فى الحياة الأخرى ٠٠ هذه عقيدتنا ٠

لاحظت أن الصمت عم البيت ، حيث تناهت الى الحاضرين صيحتى فانتبهوا لما أقول ٠

فخاف النجار وهمس لى : لا تسأل !

فصاح الحداد المسكين : دعه يسأل ٠ دعه يعترض ٠ دعه يتكلم ٠ فهذا الرجل الكريم يأتى من بلاد غير بلادنا وأفضل من بلادنا ، ويرى فيما تقضون به على جناية بلا ذنب تفرضونها على وعلى أولادى ، فتقتلون الناس بما لا يستحقون ٠٠

حبست لسانى عن كل قول وناجيت نفسى :

– لا اله الا الله ٠٠ ماذا يفعل الناس يا رب العالمين ؟!

وطفرت دموعى وأنا أنظر للرجل الميت الحى أمامى ، وأحسست بغشية ٠٠ فجذبنى النجار وقال لى : دعنى آخذك للبيت ٠٠

فوالله ما كنت قادرا على المشى لولا انه أسندنى ، وعاونني على الذهاب الى بيتى وقد كرهت أيامى ..

لما رأتنى زوجتى مريضا حدبت على ، وسألتنى فلم أقل لها شيئا . ولما لزمت البيت جاء التجار يعودنى ، فسألته :

ــ بالله عليك قل لى . كان الرجل فى غاية الجزع، ومع ذلك لم يهرب . لم لم يهرب ؟

قال لى : الهرب ذنب يساوى الكفر . فان هرب وعثروا عليه يقتلونه . أين يمكن أن يختفى .. ويهجر العيال ؟ ..

★★★

لم يهنأ عيشى بعدها أبدا .

كنت أبذل قصارى جهدى للنسيان ، فأعاود العمل والمرح والحديث والاستماع للغناء .. فان سعلت زوجتى أو تعثرت فى مشيتها اقتلعنى الجزع مما أنا فيه فاضطربت نفسى .

وقد كنت أبذل قصارى جهدى لأمنع فكرى عن الاسترسال ، واتجنب الوحدة ، واطرد ما يطرأ على

فجأة من أفكار ، واشغل وقتي كله بالعمل أو باللهو ٠٠
فلا أعدم لحظات تذكر غريبة تملأنى كآبة ٠

كنت أصطاد الغـزال مع الملك ، فسبقت الركب وراء الغزال ، واقتحمت بفرسى اخدودا ضيقا بسرعة خاطفة ، ولم تسعفنى من خطر شمابه الا مهـارتى ، ورميت الغزال فأرديته ، فقال الملك لرجاله :

ــ أنظـروا جرأة عبد الله وشـجاعته ٠٠ اقتحم الاخدود كرجل لا يخشى الموت ٠٠

فتذكرت بسبب كلمته ما آعمد الى نسيانه !

ولما كنا فى الخيمة نستريح ، ونتناول المشروبات ٠٠ قال الملك : أنظروا هذه الخيمة صنعة ولدى عبدالله ٠ كم هى جميلة ولطيفة ومزينة ٠٠ هـذا رجـل يحب الحياة !

فتذكرت بسبب كلمته ما اعمد الى نسيانه !

زهدت فى عملى ولازمت بيتى وزوجتى ٠٠ فكنت أستغرق فى الحديث معها ، فان توعكت أو أصابها صداع أظهرت اللهفة على رعايتها ، فكانت تضحك وتقول لى :

ـ لم أكن أحلم أن تحبنى هذا الحب الجياش يا عبد الله . ان سعادتى بك وحبى لك يسموان فوق كل حد ..

فأخجل من نفسى واعطف على حديث آخر .

ومع الأيام صارت خواطرى تغلبنى على امرى وتمتنع على مجاهدتى آياها .. فأطيل الصمت ، أو يسرح خاطرى رغما عنى ، أو انفرد بنفسى فأخفق فى الانتباه لما حولى أو لمن حولى .

كنت أتأمل ذاتى ..

لقد صادفت الهلاك بكل الصور ..

أشرفت على الموت أكثر من مرة ، وشاهدت الناس يموتون بأسباب مختلفة .

وما عرفت أنى اتعلق بالحياة بهذه اللهفة التى تكاد تغلبنى على أمرى ..

فأى شىء جرى لى ؟!

شجاعتى تتسرب من بين أصابعى ، وخوف الموت يغشانى كما يغشى الجبناء أو الاغرار الضعفاء ..

فماذا بك ياعبد الله ؟!

أقول : لعل شبح الدفن بالحياة ، والموت البطىء تحت الأرض ، ان يكون اكثر ترويعـا للنفس من كل ماشهدت من ضروب الهلاك ! ..

ولكن الذى كان يمـلأنى مرارة وانكـارا لذات عواطفى أنى لم اكن اخشى الموت لنفسى ، وانما كنت اخشى على نفسى من موت زوجتى .. وهو شعور جوهره خيانة الحب والتدليس العاطفى ، والاثرة الخبيثة ..

فكنت أنكر على نفسى مالم أعهده من قبل فى خلقى وانظر لاميرتى التى آحبهـا فـأكره آفـكارى واثرتى وخوفى وابغض نفسى ..

ــ بالله عليك قل لى ماذا دهاك ..

ــ ماذا دهانى ؟

ــ منذ آسابيع وانا اراقبك .. تتصرف بغرابة ..

ــ اتصرف بغرابة ؟!

ــ لا تردد كلامى كالببغاء ..

ــ لا أفهمك .

ــ أتحسبنى طفلة ؟!

ـ لست طفلة ..

ـ تعثرت فأصابك الهلع ، وتوعكت فأصابك الهم، وما تناولت طعاما الا ذقته قبلى ..

ـ أحبك .

ـ لست أراك سعيدا . الحب سعادة .

ـ أخاف عليك .

ـ اذا لم تقل لى ستمرضنى .

ـ بربك لا تمرضى .

ـ لابـد أن تقـول لى . وان كنت تحبنى حقـا فلا تكتمنى شيئا .

أحبها ، ولن تستقيم مشاعرى أو أسترد احترامى لعواطفى الا أن أصارحها .

ـ منذ أسابيع ذهبت أعزى حداد معملى الذى ماتت زوجته .. فعلمت ..

ـ ماذ علمت ..

ـ بدفن الاثنين معا ..

ـ وماذا همك من ذلك ؟

ونظرت الى بعينين واسـعتين ، فما ملكت الا أن أجيب مرائيا :

ـ أخاف ان مت فى بلادكم ..

ـ .. ماذا تخاف ؟

ـ ان يصيبك ما أصاب الحداد ..

فصوبت سبابتها الى وجهى :

كذاب !

ـ بربك ..

ـ حسبتك تحبنى .

ـ أحبك ..

ـ بل تخشى على أن أموت فأحرمك الحياة .

ـ أخشى أن أموت أنا ..

فغضبت وصاحت :

ـ لا تزد .. فما أحببت أنا ذلك المـرائى الذى يحدثنى الآن . أرى المرأة ان مات عنها زوجها تستعجل الدفن وتظهر الزهد فى الحياة . أما الرجل ان ماتت زوجته لا يكف يستعطف الناس ويجأر بالصراخ ..

قلت : كلاهما ظلم .

قالت : ولكنك انت تجاوزت كل حد ، فقد أصابك الجزع من مجرد الخاطر والتصور . من أى عالم انت ؟! مثلك لا قلب له ولم يعرف فى حياته الحب . ربما ترمى من أحببتها بعد السأم منها أو تبيعها بالدراهم ، فأين لك أن تفهم أو تقدر حب ابنة الهند .. صدعت قلبى وامتهنت حبى فآه من غربتى فى بيت حبى ومن ضياعى!

وجرت من بين يدى تجهش الى خارج الدار ، وتبعتها فما أدركتها ، ورأيتها ركبت فرسها . وجريت وراءها أناديها فمن صياحى وبكائها جمح الجواد فسقطت على الأرض فجريت اليها واحتضنتها وأنا مخلوع القلب ونظرت فى عينيها فلم أر الا عتابا رقيقا أدمى قلبى فقلت :

ــ والله أحببتك أحببتك فوق ما تظنين يا وحيدة قلبى !

فابتسمت ، ثم سقط رأسها على ذراعى فعلمت أنها ماتت ، وأحسست كأن سكينا محمى شق قلبى ..

★★★

ماحدث لى بعد ذلك لا أذكره جيدا ..

فقد قضيت يوما وبعض يوم بين الاغماءة والافاقة ،

ورأيت الملك يعزينى ، وغلبه الحزن فبكى أمامى .. ثم رأيت حبيبتى راقدة على محفة محمولة وهى بكامل زينتها وعليها أجمل جواهرها .. ثم أحسست بنفسى ماشيا يكاد يحملنى أصدقائى من فرط ضعفى ..

وعند فتحة المقبرة أدلوا بجسد حبيبتى والملك يتلطف بى ويربت على كتفى ..

ثم أدلونى فى المقبرة بعد أن دفعوا بين ذراعى بكيس فدخلت الظلمة .. ولما احسست بقدمى تلمسان الأرض اغلقت فتحة الضياء فوقى وشملنى الظلام ، فتحسست الأرض تحتى وقعدت ساكنا محزونا .

علم الله ان حزنى على حبيبتى غلب حزنى على نفسى فذرفت الدموع هناك حتى تعبت فنمت .

★★★

أفقت من نومى فلم أبصر شيئا فى الظلام .

أحسست بدبيب العافية يعود إلى جسدى ، ويشحذ انتباهى . جوعان ظمآن ، ومن حولى رائحة نفاذة .

تذكرت أنهم أعطونى كيسا بين ذراعى فتلمسته وتحسست مابه ، وما أشد فرحى اذ وجدت به سبعة أرغفة خبز وبعض الزاد وقدر ماء ، فأصبت قليلا من كل شىء خوفا من نفاد الزاد .

راح الذهول فجعلت أتأمل ما أنا فيه ·

ان لم تقتلنى رائحة الموت ، فسيعجل بموتى الجوع والظمأ ·

اعتادت عيناى على الابصار فى الظلام ، ووجدت الأجساد من حولى متراكمة فقمت أفتش عن مكان بعيد عنها وافسحت لنفسى مساحة سويتها بقدر امكانى لتكون مقامى ··

عجبت من نفسى بعد ان اشتغلت بهذا الامر ان اهتم براحتى وانا رجل مقضى عليه ·

لم اعد اعرف نهارى من ليلى · ولعل هذا ان يكون السبب فى أكلى وشربى بلا روية أو حساب ·· فقد فرغ زادى بعد مدة ·

أو لعل يأسى من الحياة أو حزنى قد أصابانى بالنهم حتى فرغ زادى ، كما أصابانى بهوس الجوع والعطش بعد أن فرغ زادى ومائى ·· فرأيت فجأة رأى العين الشمس الساطعة على البحر الواسع وسمعت بالأذن صيحة القبطان : الشراع الكبير ·· ارفع !! ·· فضربت عينى وأذنى بكفى حتى عاد يشملنى الظلام والسكون فهدأت نفسى ·

ولكن فيضا من الضياء غمر الركن البعيد من المقبرة فجأة ، وسمعت أصوات البكاء ، فعلمت انهم يدفنون بعض الناس ٠٠ فتملكني نشاط عنيف وقبضت بيد حديدية على احدى عظام الميتين وأنا أحملق في الرجل الحي الذي يدلونه بالحبال وهو يحتضن كيس الزاد ٠

فلما أغلقت المقبرة وساد الظلام كنت أرى شبحه الحائر ، وعلمت انى سأرتكب أفظع جريمة ارتكبتها في حياتي ، فجاهدت لأتمالك نفسي وأتحكم في أطرافي ٠٠ ولكن نفسي أفلتت من وثاقي وأطرافي خرجت عن طوعي ٠٠ فرأيتني كمن يرى شخصا آخر منفصلا عنه ٠٠ انقض كعاصفة هوجاء على الرجل المسكين، والشيطان نفسه يدفع ذراعي ٠٠ فهويت بالعظمة على رأس الرجل فسقط يتخبط ٠ وثنيت بضربة ثانية حتى تأكدت انه مات ٠٠ فانتزعت الكيس من بين ذراعيه وانسحبت الى موضعي البعيد كضبع كاسر ٠٠ فأكلت حتى شبعت وشربت حتى ارتويت ، وأنا في غاية الفزع حيث علمت انى لم أعد أملك من أمرى شيئا ، فكأن شهواتي ماردا من الجن انفجر من ذات نفسي منفلتا من كل سيطرة لي عليه ٠

تصورت بعقل رجل آخر غير الرجــل الذى يأكل ويشرب من زاد القتيل بذاك النهم ــ تصورت بعقــل الرجل الآخر عثمان ٠٠ وقتله رفاقى فى الجزيرةاللعينة فتعذبت وعصفت بى خيالات الهوس، فلم يزدنى صراعى مع نفسى الا تمردا وتوحشا وقسوة !

« سأعيش » ٠٠ كأن صوتا فوق صوتى يهتف بى٠ وأنكرت الصوت !

لكنى انتبهت فجأة ٠

أحسست بشيء غريب يمرق ٠٠ فشددت قبضتى

على عظمتى وسكنت تماما ٠

كان حيوانا !

ما تبينت شبحه حتى عاجلته بالانقضــاض عليــه

بعزم شديد ٠٠ غــير انه أفلت من ضربتى وجــرى ، فتبعته غير هياب - الا انه اختفى !

نظرت يمينا ويسارا وفوقى فلم ار له آثرا ، ولكن شعاعا بارقا مس عينى أثنــاء البحث فعلمت انى رأيت نجمة فى السماء !

كأن رجلا في الجحيم رأى طيفا من الجنة !

أنشبت أظافرى في التراب بذلك الموضع كمجنون ، وقد قر في ذهني ان ذلك الحيوان قد دخل الى المقبرة وخرج منها من خلال حفرة •• آغرته بحفرها رائحة الموت واشتهاء نهش الاجداث •

حفرت الموضع فوقي فانهال التراب والحصى على وجهي ورأسي ، ووسعت الحفرة حتى رأيت السماء فوقي فوقعت على ركبتي وذكرت الله أطلب النجاة والغفران وفوق ظهرى ما يثقل الجبال من الذنوب •• ثم قمت بهمة فوسعت الفتحة بما يسمح بمرور جسدى ونفذت منها الى الدنيا آشهق لأغترف من هوائها النقي بصدرى، وصرت أقفز من الفرح حتى ادمى الحصى قدمي ••ولكني لم أسمح لنفسي بالصياح أو حتى بالهمس •• فقد خفت ان يكون المكان مأهولا •

شحذ خوف الاخطار كل ملكات الحيطة والحذر بنفسي ، فتسللت محاذرا هنا وهناك استطلع المكان فوجدته قفرا غير مأهول •• فقررت ان انام بقية الليل في الهواء النقي ، ثم آختبيء بالنهار في المقبرة •

غفوت حتى أيقظتني أشعة الشمس فدخلت الحفرة

وداريتفتحتها بحجر ، وكمنت فى مكانى أنتظر الليل ·
فى الظلام أضاءت بذهنى خطة للهرب ·

خلعت ملابسى الثمينة وجمعت جواهرى ووضعتها فى كيس الزاد ومزقت قميصى وقررت أن اخـرج فى هيئة شحاذ أو ناسك ، واسعى لسرقة قارب فى الليل ، واوغل فى البحر والله المنجى ·

سأحتاج الى زاد ·

أتسول الزاد فى طريقى ، أو أسرق ما تتسنى لى سرقته ·

لابد من المخـاطرة ، فالقعود فى المقبرة موت ، والقعود فى هذا البلد سيعرضنى للاكتشاف ثم الموت ·

حين قدرت ان الليل جاء قمت أقصد الحفرة ، وأنا قابض على كيسى وبه جواهرى ·· ولكن خاطرا ردنى الى المقبرة ، حيث تذكرت انهم يلبسون الميت جواهره ··

كان الوحش القاتل قد ملكنى فلم أستطع ممانعته · ورأيت نفسى أقلب الأجداث كاللص وأنزع ما عليها من جواهر وأضعه فى كيسى ، وأجمـع ما تنـاثر فى التراب من جواهر ومعادن وحلى بهمة الغريق يدفع الماء بذراعيه ، ونفسى تنكر على ما أفعله ولا تكف ·

ولكن قدمى كانتا تتخبطان ويداى ترتعشان ··
وأنا أدوس فوق الميتين وأقترب من جدث حبيبتى ·

كانت لحظة خطيرة وكنت أندفع اليها ··

كانت ضربات قلبى تــزداد عنفا وأنا أقترب من حبيبتى حتى ضميرى كان يدفعنى بعد أن كان يمنعنى كأنه يدفعنى للانتقام منى ··

لما رأيتهــا ·· جاشت عواطفى فارتميت عــلى جسدها أبكى وأهتف باسمها وأقبلها قبلات الندم وأطلب الصفح وأسأل الله لها الرحمة ·

كانت باردة كالثلج ·· مفزعة كالموت ·

وخلعنى الخوف فجريت حتى خرجت من الحفــرة كطفل مروع ·

مضت ساعات قبل أن أثوب الى نفسى ·

فلما أفقت الفيتنى ماشيا فى الليل ، أحمل كيس جواهرى على كتفى كما يحمل الشحاذ كيسه على كتفه ·

وجدت شجرة فانتزعت منها فرعا واتخذته عصا أتوكأ عليها ·

زدت شعرى تهويشا وزدت وجهى تلطيخا بالتراب وانطلقت أبحث عن زاد وماء ٠

ولما استطبت برودة هواء الليل ٠٠ ومضت بذهني خاطرة عجيبة ٠٠ وهى انى لم آكن فى حياتى آبدا غير هذا الشحاذ السراق الرث الفظ المتوحش المسكين ٠٠ أحمل جواهرى علـــى كتفى وآطلب حيـــاتى من الموت ، وزادى من الجوع ومائي من الظمأ، ونجاتي من العاصفة وسعادتى من الشفاء والعدل من الظالمين ٠٠ كمن يطلب الماء والزرع من الصخر الصلد ٠

الفصل السادس عشر :

قطرة ماء

قضيت يومين أسعى فى ريف المدينة ولا أجرؤ على دخولها حتى لا يتعرف على أحد ممن خالطت من أهلها ٠

ولم أتوان عن سرقة بعض البيض من أعشـــاش الطيور أو بعض الخضر من الحقول تحت ستار الليل ، وكلما أمنت ٠٠

ولكن بعض الفقراء كانوا يحسنون الى فى الطريق بكسرات خبز آكل بعضها وأضع بعضها فى كيسى مع الجواهر والذهب ٠

ولما رأيت الناس يعاملوننى كشحاذ خطرت لى فكرة ٠٠ أن أشحذ خبزى فى المرفأ وأنتظر وصول سـفينة عربية فأتسلل اليها فى جنح الظلام ٠

ركبنى الهـم والخـوف من أن تضبطنى الشرطة

وترودت كثيرا ٠٠ بسبب لكنتي واعوجاج لساني في لغة البلاد ولكن أمل النجاة دفعني الى المخاطرة ، وظننت اني أستطيع اصطناع الخرس فلا أتكلم ٠٠

جلست في المرفأ جلسة شحاذ ولما عبر بي النـاس وأحسن بعضهم لي أفرخ روعي ٠٠ ثم استقر بذهني ان الناس لابد أن تصدقني ، ولا حاجة بي للخوف ٠٠ حيث اني فعـلا شـحاذ ٠٠ ومهما كان في كيسي من جواهر ، ومهما كان في خزانتك من مال فأنت شحاذ وأنا شحاذ ، ونحن في زمن الشحاذين ٠

فما قولك في رجـل يشـحذ حياته من المـوت ، وطمأنينته من العاصفة ، وطعامه مو أنياب الجـوع ، وسعادته من الظالمين ٠

أليس هذا عالمنا الذى نعيش فيه ؟

وهل نحن الا الشحاذون ؟

وها أنا جالس على حافة الماء أنتظر سفينة عربية تحملني من مدينة قضت على بالموت ، وتمر بي الناس لا تكاد تنظر لى أو تراني ٠٠ ولكنها تزيد همى حيث تشبه الناس في بلادى فتثير حنيني ٠

أتشبث بالحياة ، وأتذكر أيامي نادما على اغترابي وسفرى من بلادى ٠

ولماذا أسافر ؟

شيء ما بنفسك يا عبد الله يرميك رغما عنك فيما تكره ويدفعك للهلاك ..

شهوة كامنة للانتحار وقتل النفس ..

وفي صـــدرك لهب لا ينطفيء ، يؤججه بدواع واهية .. الغضب العاصف ، والقنوط العميق، والحنق المستعر ، وأوجاع تصرخ ، وقلق مستبد ، وشـــهوة جياشة لعدم التلاؤم ومجافاة الرضى ومجـانبة النسيان ومخالفة القناعة بما قسم لك !

فمن أين هذا اللهب العربيد في قلبك ؟!

وكيف تركته يرعى أيامك ويهلك نفسك ؟!

أنت مظلـــوم الا أنك لم تتحرز من ظلـم غيرك ، مجني عليك وجان ، سجين وسجان ، مقتول وقاتل .. فلم تتنكب الأخطار وتجأر بالرفض وتتلهف على النفي والخروج .. كلما واتتك فرصة للعودة والاستقرار؟!

رست سفينة عربيـــة في الميناء ، ونزل التجـار والبحارة يبيعون ويشترون ، فانتظرت حتى جن الليل وتسللت على السقالة فضبطني البحـار الحـارس وكاد يصرخ الا أنني وضعت يدي على فمه وجررته الى سطح السفينة وقلت له بالعربية .

ـ أنا ملاح عربى وأريد أن أقابل القبطان ·

ـ نائم ·

ـ أيقظه ·

وجررته الى قمـرة القبطان وفتحت البـاب فهب القبطان من فراشه يقول :

ـ من تكون ؟

قلت له : أنا ملاح عربى تزوجت هندية فلما ماتت دفنونى معها ولكنى هربت من القبر ولجأت اليك ·

فما ازدادت عيناه الا اتساعا ··

قال : أعد على ما قلت ·

فأعدت وزدت ، وهـو مصدق ومكذب ·· خائف ومطمئن ·· قلق وحائر ··

قال : اثبت لى هويتك ·

قلت : يا ريس ·· هـويتى لسـانى وعليك أن تسلمنى لقاضى البصرة فهو الذى يعرفنى ·

قال القبطان للبحار :

ـ احبسه فى مخزن التجار حتى تبحر السفينة ·

قضيت في المخزن يوما وبعض يوم وأنا خائف ، فلمـا اهتزت السـفينة علمت انى سالم وان السفينة سرعان ما تبلغ البحر العميق فى طـريق النجـاة ٠٠ فنمت :

أيقظني البحـار وقادني الى غرفة القبطان الذى أكرم وفادتي وأطعمني وسقاني ٠٠ وبعد أن استرحت بدلت ملابسي وحكيت له بعض حكايتي فصـار يقلب رأسه وأنا لا أعرف ان كان صدقني أم لا ٠ ولكنه بعد ذلك صحبني الى عنبر الركاب وقدمني الى جمعهم بقوله :

ـ هذا رجل يقول انه تـاجر عربي من البصرة ، وان اسمه عبد الله بن عثمان وشـهرته السـندباد ، وسافر من بلاده منذ عامين ، فان كان عند أحدكم أخبار من بلاده وتخصه فليخبره بما يهمه ٠٠

فهتف أحد التجار :

ـ أعرفه ٠٠ لعنة الله عليه ٠٠ ألست الرجل الذى كان يحب المغنية بحان البصرة « جوهرة » وأهانهـا فشغبنا عليه ؟ ٠٠

فأطرقت محرجا بينما قام الرجل يربت على ظهرى متلطفا وهو يقول :

ـ لا تنقم علينا لما فعلناه تلك الليلة .. أتعفو ؟
وضحك وهو يضمني بعطف أخوى .

★★★

تلقانى جابر صاحب الخان بشوق ..

وتذاكرنا طويلا ما كان بيننا من حكايات المودة ، وحول أخبار زبائنه .. فقال فجأة :

ـ فرت جوهرة من البصرة بعد رحيلك من فرط ما استعر حولها من تنافس أدى الى نزاع ومشاجرات .. فآثرت السلامة واختفت ليلة ان وقع حادث أدى الى تدخل الشرطة ..

ـ وهل أصابها مكروه ؟

ـ هى لم يصبها أذى . ولكن شابا ثملا أثقل فى الكلام تلك الليلة واحتج عليه الزبائن فشهر سكينا ودارت معركة سالت فيها الدماء .. شىء لم يكن يحدث فى الأيام الحلوة الخالية .. قبل أن يثرى الصعاليك والسوقة من تجارة البحر وسلع الترف ويشغبون على أولاد الأصول ببجاحة وادعاء وتبذل لم نكن نتصور فى الزمن الخالى أن يكون من صفات الأثرياء ..

تنهدت وقلت :

ـ تمنيت لو أننى استطعت أن أنتزعها تلك الليلة مما هى فيه من مخاطر ..

ـ وهل كان كبرياؤك يسمح لك أن تبقى فى الحان بعد أن أثارت الناس عليك ؟

ـ تعسا للكبرياء . لقد أحببتها .. وكان بوسعى انقاذها .

ـ وهل كانت تحبك .. هذا هو السؤال .

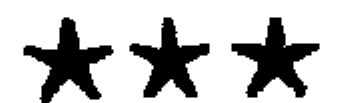
ـ كل امرأة يطيب لها الاستقرار .. لمه الله استكبارها .

ـ وكل رجل يطيب له الاستقرار .. يقولون ، فهل يطيب لك أنت ؟

ـ لست مثلها .. فأنا .

ـ ولم لا . لعلك تحبها لأنك مثلها .

ـ قاتلك الله يا جابر .. فأنت تعلم انى مثلها ، وانى لذلك أريدها ..



كنت قلقا أستعجل العودة الى بغداد ..

كنت أريد أن أختلى بنفسى بين جدران بيتى فى الكرخ أتأمل حالى وأندم علـى ما اقترفت من ذنوب فى حياتى وأناجى ربى .

فما أطعت جـابر اذ ألح على أن أنتظر اكتمـال القافلة الشاخصة الى بغداد ، وأمرته أن يأتينى ببعض الحرس والمئونة .

ـ الأيام اختلفت يا عبد الله ، وأصـبح الطريق غير مأمون ..

قلت : لا عليك من هذا .

فقال : لقد عم الجفاف واحترق الزرع ، وهاجـر الفلاحون الى المدن يطلبون الرزق حيث ازداد الأغنياء غنى ، وتجمع الاشرار في عصابات تهاجم القـوافل الصغيرة .. فلا تخاطر بنفسك .

ضحكت من النصيحة ما شاء لى الضحك .

اكتريت ثلاثة جمال وبعض الحراس وانطلقنا فى البادية .

كان الجو لطيفا ، وامتداد الصحراء أشاع بنفسى طمأنينة وهدوءا ٠٠

وذات يوم رفع حارس يده وصاح :

ـــ حذار ٠٠ اللصوص ٠

نظرت حيث يشير فرأيت جماعة من الفرسان على خط الكثبان مقبلين نحونا ٠

قلت : ما معنى ذلك ؟

قال : سيهاجموننا ٠

قلت : لعلهم مسافرون فى حال سبيلهم ٠

ونشط الرجال فوضعوا الجمال بينهم وأحاطوا بها كدائرة مسلحة ، وقال رئيسهم لى :

ـــ ادخل فى الدائرة يا عبد الله ٠

قلت : والله لا أفعل ٠

وسللت السيف وكنت على رأس المدافعين ساعة دهمنا الهجوم ، وأحد الحراس ينفخ نفيرا عاليا مزعجا استثار فينا الحمية فحملنا على الأشرار حملة رجل واحد ، وسقط الرجال من الجانبين ، وأحسست تخاذل رفاقى فقصدت من ظننته رئيسا للصوص وله وجه بشع يشقه ندب غائر فحملت عليه ، وأصبته وأصابنى اصابة

خلعتنى من فوق الفــرس فتشبثت بسيور المقود بينما الفرس يسحلنى فوق الرمل ، وسمعت خصمى يصرخ صرخة الظفر ، وأحد حراسى يصيح :

ــ النجاة النجاة ..

وكان صوت النفير المزعج آخر ما سمعت قبل أن يغشى على ، والفرس يسحلنى على الرمال الناعمة .

خيل لى انى أسمع أصوات النفير تتجاوب من كل صوب ، ولكنى لم آكن أقوى على تحريك أعضائى ..

أحسست انى راقد عــلى الرمل مســتوى الجسم ، وسمعت أصواتا تتحدث .

شــيخ يقــول : آنظــرى من جاءنا من الضيفان يا شمس .

وامرأة تقول : رجل جريح ياعم ، وجرحه نازف .

قال الشيخ : اسقيه شربة ماء واغسلى جرحه .

فقالت المرأة : لم يبق عندنا غير قطرات من الماء فى هذا الجفاف اللعين .

قال الشيخ : لقد صارت اذن من نصيبه .

قلت لصاحبة اليدين اللتين تلمسان جرحى :
ـ « حياة » ..

وعجبت انى لقيتها ساعة احتضارى فى الصحراء .

كانت عيناى غائمتين ، ولكن انطبع فيهما شبح لخيمة خلقة ، وعلى بابها شيخ ثابت النظرة الى الأمام كأنه أعمى وبيده مسبحة .. ووجه حياة يميل فوقى ، ويداها تبللان جرحى وشفتى .

حاولت النهوض فلم أستطع ..

حاولت الكلام فلم أنبس ..

حاولت ادارة وجهى لأنظر حولى فما قدرت ..

ومع ذلك سمعت الشيخ يقول :

من القادم يا شمس ؟

قالت « حياة » : الشرطة ياعم .

وسمعت وقع حوافر الجياد .. وصوت رجل يقول:
انت عبد الله بن عثمان السندباد صاحب القافلة ؟

حاولت الكلام فلم أستطع ..

فقال الشرطي : أفق يا سيد .. فقد حفظنا لك مالك ..

قالت حياة : جرحه غائر ونزف دمه ..

وقال الشرطي : أدركنا القافلة وقبضنا على اللصوص وأنقذنا له ماله .. فلابد أن نحمله معنا .

أردت أن أقول فلم أستطع النطق :

ـ مال الميتين . كل مال فى الدنيا هو مال الميتين .. من لم يسرق الأحياء فهو سراق الميتين !

وسمعت الشيخ يقول : أين يذهبون به ؟

وأيديهم تحملنى من كل أطراف جسمى ..

قالت «حياة» : حفظوا عليه ماله ياعم ليغنيه عنا .

وقال العجوز : الله كريم .. حيث دبر له بضع قطرات من الماء فى وعائنا .

وشعرت باهتزاز جسدى ، واعترانى خوف من السقوط .. فتحت عينى بصعوبة فرأيت انى محمول على محفة سويت فوق الجمل ، مربوطة بسيور ..

حولى بعض الحراس الذين كانوا معى ، وبعض فرسان الشرطة يرمحون حولنا بنشاط .

وخلف الجمل الذى استويت عليه رجل يتعش ..
قد ربطوه من رسغيه فى ذيل الجمل ، وجهه بشع ويشقه ندب غائر ، وعيناه متحجرتان ..

أحسست بالغثيان . لكن الشرطى اقترب منى وعلى وجهه ابتسامة الظفر ، ولما رآى عينى تطرقان قال لى :

ـ مالك أعدناه لك .. وقبضنا على السراق .

خذلتنى قواى فلم أستطع القول :

ـ مال الميتين . كل مال فى الدنيا مال الميتين .

من لم يسرق الأحياء فقد سرق الميتين ..

★★★

قضيت شهورا والطبيب يعالج جراحى ..

كنت أتماثل للشفاء ببطء .

غير ان شيئا واحدا استبد بخواطرى .

كنت قد دعوت القاضى الى بيتى ، فور ان استطعت استقباله ، وكلفته أن يبحث فى الموضع الذى هاجمنى به اللصوص فى الصحراء عن شيخ زاهد أعمى وربيبته التى سماها « شمس » .. ولعل أن يكون أسمها « جوهرة » أو « حياة » فاننى رصدت مائة ألف

دينار وهبتها لهما على قطرة ماء بذلاها لى بسجية طيبة وأنا أحتضر ، فحفظت لى حياتى ٠٠ فى الموضع الذى هاجمنى فيه اللصوص ٠

بعد شهور زارنى القاضى ٠٠

قال لى : كلفت رجالى البحث عن صاحبى الهبة ، ومسحنا الموضع الى عشرات الفراسخ فى كل اتجاه ، واستعنا بشهادة رجال الشرطة الذين حملوك وانت جريح ٠٠ فلم نعثر الا على شيخ زاهد أعمى ، أنكر ان امرأة كانت معه ، وشهد انه رأى الشرطة تنقذك ، ولكنه أنكر انه اشترك فى ذلك ٠٠ ولما أغريناه بالاعتراف بحديث الهبة ضحك وقال : ان كل مال عبد الله لا يشترى قطرة ماء فى هذا الجفاف لو نفد الزاد !

ألححت على القاضى أن يوالى البحث عن « حياة » ٠٠وعن شيخها الغامض، وبذلت مالى رخيصا لاسترجاع هذه اللحظة وأهلها ٠٠ من بين كل لحظات حياتى ٠

وكلما مضت الأيام يذوب أملى في العثور عليها ، ويزداد ضيقى وبرمى ٠٠

لم أعد أهنأ ببيع أو شراء ، بغناء أو بسمر ٠٠

لا أعلم ما ألم بى وما يستبد بنفسى من مشـــاعر متناقضة ..

وجدت نفسى فى البصرة ، وفى خان جابر نشرب الشاى ونتسامر .

قال لى جابر :

ـ حسبتك لن تعود الى ركوب البحر ..

فقلت : وأنا كنت أظن انى لن أعود الى ركـوب البحر .

ـ ماذا يجعلك تضيق بما انت فيه من راحة ويسر؟

ما الذى يضنيك ؟

فأطرقت أتأمل السؤال ..

وسألت نفسى : أعندك يا عبد الله الجواب ..

نحن نتاجر فى الجواهر والمعادن الثمينة ، والبدو يموتون من الجفاف، فهل يثير عجبنا ان تلعننا السماء ، حتى نرى بعيوننا الأشباح، وتتلبسنا شياطين القلق ؟

الفصل السابع عشر

جزيرة الغول

دبرت متجرا وأبحرت فى دنيا الله ..

طابت لنا الريح شهرا ، وشغلنى عن همى رفاق السفر فهدأت نفسى وعدت الى مرحى ونشاطى ولهوى بالسمر ولعب الشطرنج ..

وذات يوم سمعنا صيحة للقبطان فوق ظهر السفينة:

ـ نزل الشراع الكبير ..

جاوبتها صيحات البحارة :

ـ الشراع الكبير .. نزل .

فاندفعنا نستطلع الخبر ، وكان البحر هادئا والريح رخية .. فقال القبطان لنا :

ــ لا تضطربوا يا أهل الله ، فليس الا كسر بذراع الدفة سيجرى اصلاحه فى الحال •

فلما خلعوا ذراع الدفة انقطع عزم السفينة فسار الموج يدفعها ويجرفها كيف يشاء ، وخاف القبطان أن يفقد السيطرة تماما فصاح : القوا المراسى كلها !

ولما ألقيت المراسى ثقلت حركة السفينة فى البحر، وصارت تقاوم للثبات •

ولكن « الناظور » فوق صارى الشراع صاح : « جزيرة ! » •

فالتفتت جميع العيون الى حيث يشير •• فكأننا رأينا النجاة بأعيننا • وصاح القبطان :

ــ مجاديف اليسار •• وأدخلونا فى مياه الجزيرة الهادئة ••

وانحرفت مقدمة السفينة نحو الجزيرة ، فقال أحد الركاب :

ــ أية أرض هذه ؟ •• الله يسلم !

قال القبطان :

ـ لا أعلم أية أرض هـذه ، فهى خارج مسارنا الطبيعى • ولكننا سنرسو هنا حتى صباح الغد لاصلاح الدفة ، ويحسن أن نستطلع الحال ••

فلما دخلت السفينة المياه الضحلة قال القبطان :

ـ يا معاذ • خذ عشرة رجال فى قارب واستطلعوا شاطىء الجزيرة بحذر حتى نقضى الليل باطمئنان •
لا أعرف ما دفعنى أن أقول :

ـ دعنى أذهب معهم ياريس ، فانى عليم بجزر المحيط •

قال القبطان :

ـ لا بأس • وانفخوا النفير فى حالة تعرضكم لأى خطر •

أطل علينا الركاب والبحارة من فوق ظهر السفينة ونحن بالقارب نقترب من الشاطىء •

فلما وصلنا الى الشاطىء نزلنا يتقدمنا معاذ ، الذى قال :

ـ لا تنتشروا • لنتحرك سويا • اتبعونى •

مشينا خلفه ، والى جانبه بحار قد علق النفير فى عنقه ..

اخترقنا حرشا كثيفا فانقطعنا عن رؤية السفينة وانقطع من فوقها عن رؤيتنا ، ومشينا مسافة ننظـر حولنا بحذر ..

ـ جواهر !

صاح حامل النفير فرفع معاذ ذراعيه آمرا بالوقوف فجمدنا ورمينا بصرنا حيث أشار حامل النفير ..

كانت تلمع أمامنا فى ضوء الشمس كومة منسقة من الماسات واللآلىء نظمت بهيئة عجيبة ..

همس أحد البحـارة : هذا كنز .. الا أن له صاحب نسق حجارته بعناية .

قال معاذ :

ـ ما الذى يحيط بالجواهر ؟ كأنه بيت ؟

فتأملنا ما يشير اليه وتعجبنا منـه .. فقد كان يحيط بالكنز سيقان غليظة من البوص ليست متصلة كالحائط وليست متفرقة بحيث يمكن النفاذ من خلالها

.. ولكننا رأينا فيما أمامنا من سيقان البوص فرجة كأنها باب أو فجوة . وكانت الأغصان وأوراق الشجر متشابكة حول سائر السيقان بحيث لم نتبين تفاصيل هذا العش أو البيت أو الصندوق العجيب .. فلبثنا ننتظر ما يقول معاذ .

وشوشة الهواء للشجر عن يمين دارت لها أبصارنا، وقد تيقظت كل حواسنا ..

لا شيء .

فباشارة من يد معاذ .. تقدمنا كتلة واحدة نحو الكنز ونحن نتلفت بانتباه ..

ما أن وصلنا عنده حتى أحطناه كالحلقة وانحنينا نمد الأيدى لنلمس الجوهر وقد بهرنا ضياؤه .

صوت عنيف انتزعنا من جلودنا ، حيث رأينا بابا من جنس سيقان البوص يغلق الفجوة التى دخلنا منها ويدين عملاقتين تربط الباب بحبل سميك !

ومن بين الأغصان وسيقان البوص رأينا عينين لامعتين فى حجم طستين كبيرين ، يتوسطان رأسا بشما لا تسعه الغرفة المتوسطة .

أزاح الغول العملاق أغصان الشجر حـول بيت البوص ونهض على قدميه فاذا رأسه كأنها فى السحاب، وحمل البيت بيده فارتج حتى ترنحنا وسقط بعضنا فوق بعض صارخين من الرعب ·· وقد أدركنـا انه يحملنا فى قفص محكم بعدآن استدرجنا لدخوله ببريق الجوهر ··

نفخ حامل النفير نفيره فأرسـل صرخـة متصلة متلهفة حملتها الريح حتى ترددت أصداؤها من حولنا·

ولكننا لم نسمع خلاف النفير واصداءه الا وقع أقدام الغول وتكسر الأغصان وعواء الضباع من بعيد ، وكأن الحادث الرهيب قد استنفرها فتبعت صائدنا من بعيد وتنادت بأمل آن تتسقط فى آثر الصـياد فتات الصيد بعد الفتك به !

سمع أهل السفينة النفير ، فتطلعوا ناحية الصوت ·· وبعد وقت رأوا الاشجار تهتز والاغصان تفترق ثم برز العملاق هائلا يحمل القفص ونحن فيه متجها صوب البحر ، يقصد السفينة ··

سقط الناظرون من الهلع ·· الا ان القبطان صاح من فوره على البحارة :

ـ مجاديف اليمين واليسار ·· جدف ! ·· ابتعد عن الشاطىء ··

واخذت السفينة تبتعد ببطء ، والمجاديف تعمل فى الماء بهوس ·· الا أن العملاق كان يقترب منها بأسرع مما تريد السفينة ان تبتعد عنه ··

وضع الغول قدما فى الماء فثار الموج ، ومد يده لصارى السفينة فلم يدركه ·· فلبث يفكر لحظة · ثم لأمر ما عدل عن ملاحقة السفينة وقنع بغنيمته فى القفص وقفل عائدا الى الاحراش ··

كنا فى القفص نترنح ونحاول الثبات ، والقفص يتطوح فى يد العملاق ·

الا أن جناننا قد طار ، وركبنا الهلع ، فتخبطنا بلا حول ولا قوة ··

قال معاذ : لقد ابتعد بنا جدا عن البحر ، فخطوته نصف فرسخ ·

وقلت : لقد وصل الى مكانه وهذه ناره ·

ساحة واسعة بين الاشجار ، لعله سوى أرضها بيديه ، واوقد فى وسطها نارا عظيمة ·· حطبها أشجار كاملة ، يرتفع منها الى عنان السماء دخان خانق ·

والى جـانب النـار كومة من الاغصـان واوراق الشجر .. وضع الغول صندوقنا على مسافة منها وركع جنبها وكشف بعض الاغصان فرأينا تحتها الوجه البشع للغولة وليفته ، التى كانت راقدة تحت الاغصان مريضة فيما يبدو ..

ربت على رأسها بحنان وزام لها وزامت له ، فكأن قصف الرعد جمجم فى الفضاء ، ثم اطمأن الى غطائهـا ومال على النار ينفخ فيها فكأنه آثار عاصفة ارتفعت لها ألسنة اللهب حتى لفحتنا حرارتها من بعيد ، وصار لها ضياء عظيم .

★★★

أشار تاجر فوق السفينة بأصبعه وصاح :

ـ حريق !

فقال القبطان : بل هى نار الغيلان .

فدق التاجر صدره وشهق :

ـ أيشوون رفاقنا ليأكلوهم ؟!

فزجره القبطان بنظرة صارمة وصاح :

ـ أطلقوا ادوات النفير بلا انقطاع .

فكل من كان من البحارة يحمل النفير نفخ فيه ..
حتى اتصل النداء ..

★★★

سمعنا نداء الرفاق فوق السفينة ، ومعناه الوعد بتدبير الانقاذ .. ولكن المصيبة كانت أفدح من غراء الرجاء .

فقد عاد الغول الى وليفته فقعد جنبها ، وتناول بيده الماء من قدر كبير وصار يبلل جبينتها وهى تتنهد بأمى .

صاح أحد رفاقنا البحارة :

ـ يا سبحان الله ! كل هذا الحنان ثم يأتى الينا ليأكلنا ..

وسرعان ما نهض الغول مقتربا من القفص ، فتفرقنا من الهلع وهو يرقبنا بهدوء . وصاح رجل :

ـ الى السلاح يا رجال !

فلولا ما نحن فيه من كرب لكان لندائه وقع السخرية ، فماذا تفيد السيوف والسهام فى غلظة هذا الجبل العملاق ..

ومع ذلك شهر أكثرنا السيوف من ذهولنا ، وفتح الغول باب القفص فتحة محدودة تسمح لكفه بالنفاذ الى الداخل وصار يتلمسنا بأصابعه ، ويقلب الواحد بعد الآخر يقيس لحمه وشحمه ، ثم يدعه الى غيره ، ونحن نضرب أصابعه بسيوفنا فلا تصيبه بأى خدش، ونتشبث بالابتعاد فلا نقدر على الافلات من يده .. حتى اختار أحد البحارة فأخذه وهو يصرخ ووضعه تحت اصبع قدمه ريثما يغلق باب القفص بالحبل .

برق في ذهني خاطر فانتزعت من كتف معاذ جعبة أسهمه وصحت به : احملني ..

وقفزت فوق كتفه ، فلما أدخل الغول الحبل بين أعواد القفص وأراد أن يلفه ليخرج طرفه من بين أعواد الباب .. الصقت جعبة السهام بين الحبل والبوص فلف الغول الحبل حولها وربطه ومضى برفيقنا الذى سكت صياحه حتي غلبنا الظن انه غشي عليه من الفزع .

تطلع الي معاذ يسألنى فقلت له :

ـ اذا انتزعنا السهام من جعبتها سيتخلخل رباط الحبل وربما استطعنا أن نحله ونهرب ..

أخذ الغول البحار في يده فعرضه على وليفته التى

أغمضت عينيها باعياء ، وتناول هو سيخا مصقولا من الزان وخرق به جسد المسكين الذى أفاق ليطلق صرخة أخيرة قبل الموت ‥ ثم سكت ٠

وضعه الوحش فوق النار وآخذ يقلبه ، ورفاقنا فى القفص عراهم التشنج وهوس البكاء ‥ وشعرت أنا بقواى تنهار فسقطت على الأرض أخفى عينى بيدى

أى موت ردىء ‥ وها نحن ننتظر مصيرنا كل فى دوره !

كان معاذ أشجعنا فأهاب بنا :

ـ تماسكوا أيها الرفاق فلابد من العمل ‥

فهب أكثرنا واقفين يتساءلون ، فبدأ معاذ بالصعود على كتف أحد البحارة ، والتعلق بأحد سهام جعبته حتى انتزعه من مكانه وسقط به على الأرض ٠

كان افراغ الجعبة من سائر السهام أسهل ، فلما انتهينا من ذلك جذبنا ربطة الحبل الى أسفل ، ولما صارت فى متناولنا أعملنا فيها السيوف لتقطيعها ، وتناوبنا على هذا العمل الشاق ساعة ‥

فسنح الغول رفيقتنا وأكل وأطعم رفيقته وتجشأ ‥

وكرع الماء وأصدر أصواتا بشعة ، ثم أفسح لنفسه جنب رفيقته ونام فصدر عنه شخير مخيف .

أسدل الليل عباءته على الدنيا ..

وجمع القبطان فوق السفينة عشرة من أشجع البحارة قلبا ووضع على رأسهم مساعده على العمارى وأوصاهم قبل النزول الى قاربهم :

ـ كونوا على حذر . وانظروا أولا ان كان انقاذ رفاقنا ممكن ، فانى لا أريد أن أضيعكم بلا شىء . ان كان بالجزيرة الكثير من الغيلان فعودوا بسرعة . أفضل عندى أن تعودوا يائسين من أن تهلكوا دون أن تفلحوا فى انقاذ رفاقكم . تسللوا متسترين بالظلام فى غاية الحذر ولا تشعلوا المشاعل فى مسيرتكم .

خذوا النفط . استخدموه للدفاع وللهجوم ، واحذروا كمائن الغيلان فهم أذكياء كالبشر فى نصب المكائد . والله معكم .

وعلى الشاطىء تكلم على العمارى فى رفاقه ناصحا: أوصيكم بالصمت والسكون والهدوء . لا تتفرقوا . سنمشى كتلة دائرية لنرى فى كل الاتجاهات .. واتجاهنا نحو النار .

وتقدموا هكذا شاهرى السلاح ، دون آية جلبة ، وفى وسطهم أربعة بحــارة يحملون جــرتين مليئتين بالنفط ، متجهين فى كتلة واحدة صوب وهج النار ٠

★★★

انقطع الحبل ، فلاح لنا أمل الحرية ٠٠

قلت لرفاقى :

ـ اذا فتحنا الباب عنوة وجرينا فربما انتبه من نومه ، وسيسهل عليه جمعنا والفتك بنا ٠٠

قال معاذ : فما الرأى ؟

قلت : لابد أن نصيبه أصابة تعوقه ٠٠

قال أحد البحارة : فلنجرب حظنا والسلام ٠

قلت خطوته فرسخ ، ولن نصل الى الشاطىء قبل وقت ٠

ونظرت فى عيون الآخرين ٠٠

وقرأت فيها بوضوح ما امتلأ به قلبى من رغبة فى الانتقام !

همهم بعضهم : نعم ٠ وكيف ؟

قلت : بأسيافنا فى ناره ذاتها ٠

قال أحدهم : لم تخدشه سيوفنا ٠

قلت : في عينيه ، بسيوفنا متوهجة من النار ٠٠ لن يطاردنا وهو أعمى ٠

قال معاذ : أنا رجلك ٠٠

وقال آخرون : وأنا ٠٠ وأنا ٠٠

قلت : وأنا أحدكم ، ولنكن أربعة ، نهاجمه كل اثنين من جهة حتى لا ندع له فرصة للافلات ٠ وليختبيء الآخرون فى الأشجار ٠٠

امتلأ قلبى بروح العدوان ، وتقدمت مع رفاقى متصلبى الأعضاء الى النار فوضعنا فيها سيوفنا ٠

وتقلب الغول وزام فارتعشنا من الهلع ٠٠ الا أن أيدينا كانت ثابتة على السيوف ٠٠ حتى احمرت النصال وتوهجت ، فأشار بعضنا الى بعض ، وتسللنا نحوه من الناحيتين ، وكان راقدا على ظهره يغط فرأينا أن يقف الواحد على أكتاف الآخر ، فعندما استوينا أنا ومعاذ فوق رفيقنا صحت به : الآن !

فدفع كل منا سيفيه باليدين فى العين ! وصدرت

صرخة سقطنا من هولها على الأرض ·· وجرينا متفرقين صوب البحر ·

قام الوحش وقامت وليفته فرأت وجهـه يتفجر بالدماء وهو ينتزع السيوف من عينيه ، ثم قفز واقفا واندفع يصرخ فى يأس ، ووليفته تتعلق به وتسـقط من الاعياء · ثم ركع على ركبتيه يتحسس وجودنا على الأرض فلما لم يعثر على أحد منا توعدنا بالصراخ ، وحثت رفيقته التراب على رأسها ، ثم نهضت تبحث عنا بعينيها فى الظلام وتعلنه انها تنتقم له ··

تفرق جمعنا بين الأشجار وقد خلع الرعب قلوبنا، وتقدم الغول ووليفته وراءنا نحو البحر ، فندمت على ما فعلت حيث تغلبت شهوة الانتقام على حكمة الرأى ، وأيقنت باليأس من النجاة وأنا أجرى كالمجنون ، وألمح رفاقى يجرون متفرقين كالمجانين ·

وفجأة ·· لمحت جمـاعة على والبحـارة ، الذين بوغتوا بنا ، فجمدوا فى مكانهم ··

أحسوا بنا نجرى هنا وهناك ، كما أحسوا بمطاردة الغول لنا مما أحدثه ووليفته من جلبة · كانت أقدامه تدق الأرض كالطبول ، وهو يقتلع الأشجار فى طريقه

ويقتحم الأغصان ويصرخ من الغضب ، ووليفته تنادى عليه وقد أعياها الانفعال فهى تمشى خطوة وتقعد تولول برهة ، ثم تنهض من جديد ٠

صاح على : جهزوا النفط وأشعلوا المشاعل ٠

فما أن هيأ البحارة قدرى النفط حتى ظهر الغول أمامهم فهالهم قوته وغضبه وارتعدت فرائصهم من هول منظره وانهمار دمه ٠ لكن على صاح :

ـ اشعلوا الفتيل وتفرقوا ٠

فأشعلوه وتفرقوا ، وخطا الغول خطوة نحو ما سمعه من أصواتهم فصار فوق القدرين لحظة انفجارهما فغمره رشاش اللهب وتعلق بكل أنحاء جسده فأخذته الحيرة واستبدت به آلام الحرق ! ٠٠ لحظة ثم انتبه فجرى نحو البحر يلتمس اطفاء النار ٠٠ فلما وصل الشاطىء كان كتلة من الحريق ألقت نفسها فى الماء فارتفع الموج حتى غمر سطح السفينة واكتسح ما عليها وكل من عليها ولم يتعلق بشىء ثابت ، فلما انداحت الموجة واستوت السفينة نظر من عليها فرأوا الجسد العملاق بلا حراك يطفو على الماء ٠٠ فأمر القبطان بالنداء بالنفير على رجاله ، الذين كانوا يجرون هنا وهناك بين الأشجار يلتمسون الشاطىء بكل ثمن ٠

وصلت الشاطىء بشق النفس ، ورأيت شبح السفينة فى الظلام واضحا وسمعت النفير فقعدت أتنفس الصعداء ..

والتفت يمنة فرأيت الغولة تبكى وتعول فوق جسد رفيقها وتجذبه نحو الشاطىء ثم تنحنى لتمسح وجهها فى جسده المحترق بحنان عميق !

فتعجبت مما عانيت من روع وغضب ، من خوف وشهوة للانتقام ، من ضعف واقدام وقسوة ..

وتعجبت مما رأيت فى الغيلان من وحشية ورقة ، من قسوة وحنان ..

ولما اكتمل انقاذنا واجتمعنا فوق السفينة ، صار كل رجل يحكى للآخرين ما عنده .. الا أنا ، فقد شملتنى مرارة واستبد بى الضيق حتى زهدت فى الكلام وعافت نفسى الحديث ، ولم أستطع أبدا أن أنسى اننى كنت على يقين من أننا كنا نستطيع الفرار تحت جنح الظلام دون أن نصيب الغولين بالكارثة ، ومع ذلك فقد قلت لرفاقى غير ذلك ، وأرادوا أن يصدقونى بكل تعمد .. لا تحركهم الا رغبة جامحة فى الحاق العقاب بالوحش ! ..

الفصل الثامن عشر

عودة « حياة »

لم تهنأ نفسى بالرحلة بعد ماعانيت ، الآ ان السفينة انتقلت بنـا بعد ذلـك من مرفأ الى مرفأ .. وصرنا نبيع ونشترى ونربح فيما نبيعه وما نشتريه اضعافا .. ثم عادت بنا الى البصرة .

تعجلت الرجوع الى بغداد ، فلما استرحت من عناء السفر شخصت الى السوق حيث رافقنى أحمد الدلال الذى أنست اليه منـذ سنوات ، وكان وكيلى فى البيع والشراء ..

كان السوق أقل بهجة مما ألفت وأقل نظافة وأكثر ازدحاما ..

كان يتسكع به عدد متزايد من الشحاذين والعاطلين والمتسببين فى الرزق بالحمل والمعاونة والنداء عـلى

السلع غير العديد من الدراويش والمبخرين والحـواة وأصحاب المجون والحيل ممن لا مهارة عندهم ..

قال لى أحمد الدلال :

ـ اختلفت الأحوال يا عبد الله . فمع ان سـلع الترف صارت أكثر رواجا وأغلى ثمنا حيث اشتد عليها الطلب .. فان الريف يزداد فقرا ، والبدو يتزاحمون فى المدينة بعد أن قل الزرع وعز الرى ..

قاطعته بقولى :

ـ مر ولم يسلم !

قال : من ؟

فتوقفت وأشرت الى تاجرالحرير الذى مر بنا لتوه، فنظر الى أحمد الدلال مليا وقال :

ـ لم يعرفك يا عبد الله ، فكم غيرتك السنون !

فى دارى تأملت وجهى فى المرآة ..

تعسا للسنين ، وسحقا لها ! ..

.. قررت يومها أن أمر على بعض الأصدقاء لأسمع الغناء وأنعم بالسمر ..

تلقانى الصديق بالأحضان وأجلسنى فى صدر السفرة ورأيت أمامى من الطعام والشراب ما لذ وطاب ..

وكان المغنى ينشد :

« فرغ الدن وراح الأصدقاء .. يا فؤادى

« فأنشد اللحن بأوتار العزاء .. يا فؤادى

« فالذى كان بليل ذى صفاء .. يا فؤادى

« لن يراه الصبح مرفوع اللواء .. يا فؤادى »

فقلت للمغنى من مكانى :

ـ أليس عندك يا صاحبى غير هذا اللحن المفجع ؟!

فران الصمت على القاعة .. لم يقطعه غير ضحك صديقى الذى أثار بعض الضحكات .

★★★

فى الصباح أحببت أن أزور الصديق الحميم لأبى الشيخ مصطفى تاجر السجاد .

كان الرجل قد غلبته الشيخوخة وضعف بصره ، فصار من فرحه بلقائى يتحسس وجهى بيديه ويربت على ظهرى بحنان وشوق .. ويقول :

ـ ابن صديق وحبيب شبابى .. كم تغيرت !

قلت : مضت سنوات ياعم .

قال : وأين كان مقامك ؟

قلت : فى البحار العالية .

قال : كل هذه السنين ؟

قلت : نعم .

قال : وهل استقام معك الحظ ؟

قلت : نعم .

قال : وبارك الله لك ؟

قلت : أنا الآن أغنى مما كان أبى ..

قال : ما شاء الله .

قلت : وأقل قدرة مما كنت على الاستمتاع بالحياة .

قال الشيخ : مازلت تتذمر ؟!

قلت : نعم . متذمر .

قال : مم تشكو ؟

قلت : سأم على الأرض ولهفة على ركوب البحر ..
وسأم فى البحر ولهفة الى العودة للبر .

نظر الى الشيخ وقال :

ــ هل لك زوجة ؟

قلت : لا .

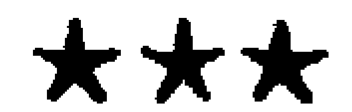
قال : تزوج يا ولدى وأنجب الأولاد . الزواج يثبتك فى الأرض كشجرة .

قلت : عماه . أنفقت المال وأطلقت الرسل ورصدت الجوائز لمن يعثر على حبيبة صباى ، ولم أفز بخبر عنها للآن ..

رفع الشيخ حاجبيه وهو يقول :

ــ عجبا ! أقول لك تزوج امرأة ، وانت تريد أن تتزوج صباك !! ..

وأنا أشد منك عجبا ياشيخ .. فلا أذكر ان قلبى خفق من بعد صباى ، ولا أذكر أنى أحببت نفسى أو أيامى الا قبل رواح الصبا وقبل اقبال الحياة ! ..



جلست وحدى فى القاعة أتعشى ..

كان بطبقى الجبن والزيتون وأمامى الماء القراح ..

قلت لنفسى : يا عبد الله ، لعل الذى أصابك ليس الا دوار البحر حيث تلبسك كالمرض المزمن ..

وأجبت نفسى : أنا أغنى الناس .. ومع ذلك فأنا أفقرهم ، لأن لى حاجة وأشعر بالحرمان ..

فما رأيت الا باب القاعة يفتح على مصراعيه .. وتدخل « حياة » ..

بهت حتى وقعت اللقمة من أصابعى ، وقالت :

ــ تتعشى وحدك ؟

قلت : لا أصدق عينى ..

وقمت فتلقيتها بالأحضان .. ثم قعدت جنبى تتأملنى بعينيها الواسعتين .. ثم نظرت حولها بالقاعة وقالت :

ــ هذا هو عبد الله بن عثمان السندباد . هذه داره وهذا ذوقه المرهف وحبه للترف والجمال .. الا أن المسكين يتعشى وحده ، وداره غارقة فى الصمت ..

فتلقيتها ثانيــة في ذراعي وسالت دموعي عــلى كتفيها ٠

★★★

بثت «حياة» الحركة فى بيتى ، فاذا الصخب يعود اليه ، والأصدقاء ٠٠

قررت أن أدعو لحفل لم تر بغــداد مثله ، وأدعو القاضى ليعقد العقد ٠٠

قالت حياة :

ــ بذرت مالك يا عبد الله فى البحث عنى ٠٠

قلت : وهل وصل اليك أحد من رسلى ؟

قالت : لا ٠ ولكن المدينة كلها كانت تتحدث عما أنفقه السندباد للوصول الى بغيته ، ويصفوننى كبنات الحواديت ٠٠

قلت : لم يلحق بك أحد من رسلى ؟

قالت : لا ٠ بل جئتك بنفسى وجئت اليك بنفسى ٠

لم يكن البيت يسعنا ٠٠ وكنــا نســتعجل الــوقت وننتهب اللذات ونمرح ونتحدث الليل للصباح ٠٠

ولما اجتمع التجار والأصحاب فى الحفل الموعود وبعد أن عقد القاضى العقد وتتابع المغنون ·· وقفت حياة بين العازفين وغنت :

« بدت لى فى البستان باسمة الثغر »

مفككة الأزرار محلولة الشعر »

وهتفت جوقة العازفين :

« فقلت لها : آه ··

وأنشدت حياة :

« فقلت لها أشكو اليك الهوى ·· قالت »

« أراك الى صخر شكوت ولا تدرى »

وهتفت الجوقة : آه ··

« وأنشدت حياة :

« فقلت لها ان كان قلبك من صخر ·· »

« لقد نبع الماء الزلال من الصخر

وهتفت الجوقة : آه ·· آه ··

وكل من حضر حل عمامته أو شق جيبه أو نهض واقفا غير مصدق والجميع يهتفون :

آه ٠٠ آه ٠٠ آه

فما سمعنا الا وباب القاعة يفتح عنوة ويظهر منه الدلال ممزق الثياب ملطخ الوجه بالدم ، وما أن توسط القاعة حتى صاح :

ـ انتم هنا يا تجار بغداد ، والسوق ينهب ؟!

فما رأيت والله الا رجالا يثبون ، ويتخبطون ، ويتسابقون ، ويتعثرون ٠٠

★★★

ما حلمت أن أرى فى حياتى مشهدا كهذا ٠٠

سوق بغداد العتيد تتناهبه الحرائق ، وذوى الخرق المرقعة على ظهورهم ، والحفاة والمتوهين وذوى العاهات والصبية ينهبون السلع ، والسيوف والسكاكين والعصى تتقاطع ، وجحافل الناس يهاجمون والجحافل يدافعون، والحريق يسابق الفريقين ليفوز بنصيب الأسد، والصياح قد بلغ عنان السماء ٠٠ بينما الجواهر تتناثر على التراب والناس تنقض عليها انقضاض الصقور

وتتخاطفها تخاطف الحيـوانات للفـرائس ، وكل شيء يتنازعه الناس يتمزق •• القماش والسجاد ، بينما تتحطم التحف البللور وتمزق الأبواب والستور ••

ثم دقت طبول الشرطة ، ودهم السوق فرسـانهم بسيوف تبرق فى الصعود وفى الهبوط • لتضيف الى الصورة البشعة رشاش الدماء • والى الصيحات ترقيما من الحشرجات والآهات ، وسقط من كان على ساقيه ، وطار من كان يمشى على قدمين •• فتناثرت أشلاء فوق أشلاء ، ولم تبق بعد المعركة أنفـاس تتردد •• غير أصوات أدوات النفير تعلن انتصـار الشرطة •• وقد سقط الناس وتبددت السلع الثمينة وانتشر الحريق •

★★★

قالت حياة :

ـ لم تفلس يا عبد الله • مازلت غنيا •• فلماذا ركبك الهم ؟

قلت : لا • لم تذهب ثروتى •

قالت : فكيف ذهب مرحك ؟

قلت : أتأمل تجربتى مع الاخطار •

قالت : لم لا تبيعها كما تبيع الجواهر ؟

قلت : أبيعها ؟!

قالت : نعم • التاجر يأتى من البحــر بالجــوهرة الرائعة فما أن يبيعها فى السوق ويقبض الثمن •• حتى ينساها فلا يفكر فيها بعد ذلك أبدا •

قلت : تجربتى أغلى من جواهر التجار ••

فنهضت الى وسط القاعة ووقفت تنادى كالدلالين فى السوق :

ـ هلموا هلموا •• يا أهل بغداد ! سنبيعكم ما هو أغلى من جواهر التجار ، وأثمن من توابل الطعام •• تذكارات السندباد •• من قرأ الحكمة فيهــا استغنى بالرشد والمعرفة ، وبز أهل الزمان ••

قلت : ماذا تبيعين ؟

قالت وهى تنادى نداء الدلالين :

ـ سن قردة أحبت عبد الله السندباد فى جــزيرة القرود ، وظفر الرخ الذى الذى طار به فى السماء •• فص ملح أحرق الزرع، وله ملكة فى الهند لا يقتلها غير مقدار الحفنة من الماء •• والعصا التى ساق بها شيطان

البحر السندباد ، وسخره للخدمة ، حتى سكر الشيطان فقتل العبد سيده .. عود ورد لا يذبل أبدا ولا تذهب رائحته ولا ينبت الا فى جزيرة العشاق ، حيث تحتضن العذارى بحارة السفن فيموتون عشقا ! .. هلموا هلموا .. سيف الطاغية عثمان الذى ولى نفسه قاضيا للقسمة فى جزيرة المغنطيس ، وقتل رفاق سفره ليفوز بكنز الأجيال ، ثم قتل غيلة كما قتل الآخرين اغتيالا .. وجاء لكم عبد الله السندباد بالسيف لكى تتأملوه ، وتتعظون بالحكمة المستقرة فوق حده الصقيل ! .. وتفرجوا تفرجوا ، على كيس الشحاذ الذى جمع فيه السندباد ثروات الميتين والمدفونين أحياء بمقابر الهند، وكان قد دفن معهم ، الا ان دليله للنجاة كان سنجبا لطيفا ، كنا سنأتيكم بفروته لولا انه فر منا وفاز بالنجاة ..

استخفنى ظرفها فصحت :

– بستين درهم فضة ، نبدأ المزاد !

قالت : بمائة درهم فضة سنبيع كل شىء ، لا نبيع بأقل منها ، حتى لا تضحك الناس منا جيلا بعد جيل وهم يقرأون سائر الخرافات .

اخزى الله شيطانك يا « حياة » ·· اخزى الله شيطانك ··

★★★

حملت زوجتى أول أبنائى ··

كنت أضع كفى عـلى بطنها فأحس بدفعات الجنين على باب الحياة ، وأعجب فأقول :

ــ سيرث ثروتى ، ولكنه لن يرث حكمتى ··

كما ورثت ثروة أبى ولم أرث عنه الحرص والتدبير

فتضحك حياة وتقول :

ــ أتمنى ألا يرث عنـك القلق والخلط والحـيرة والطيش وسوء التدبير والقسوة يا عبد الله ·· فهذه كلها بعض صفاتك التى تنطوى عليها ما تسـميه أنت حكمتك ··

نعم والله ·· الحق معها

★★★

كنت مع أضيافى نسمر بعد العشاء ، وقد تبارى الحاضرون فى استظهار أبيات الشعر التى تتبلور فيها حكمة العرب السابقين ·

سمعنا أبياتا لابن أبى سلمى والفرزدق وأبى العتاهية والمتنبى ، وراعنا ما فيها من نصاعة فى البيان وعمق فى الفلسفة ..

ثم هتف بى أحد الأصدقاء :

ـ وأنت يا عبد الله . لقد سافرت وغامرت وتاجرت وخضت المحن ، قل لنا قولا جامعا مانعا للحكمة التى استخلصتها مما رأيت وسمعت وعانيت .. ماذا تعلمت وتريد أن تعلم غيرك ؟

كنت ثملا .. وقد طاب لى الطعام والشراب ورفقة السمار ، فجهرت بالقول وقد دفعنى الغرور والتيه بالنفس أن أقول :

ـ رفاقى .. لقد طفت بالبحار أقرأ الانسان وأقرأ الطبيعة ، رأيت من صنوف القسوة والوحشية والطغيان فى الطبيعة وفى البشر ماله قوة القوانين الثابتة والحتمية النافذة . وهى قوانين للهلاك الطبيعى وللهلاك البشرى وهلاك الحياة ذاتها .. ولكنى رأيته مع ذلك الطبيعة تتجدد ولا تفنى ، ورأيت البشر يتكاثرون لا ينقرضون ..

أنا نفسي تعرضت لكل ألوان المخاطر والمهالك ..
ونجوت ، وأحسست بحنان الشجر والماء ورقة الانسان.

كنت أسأل نفسي دائما : كيف نجوت يا عبد الله ؟

كيف ينجو الناس وتنجو الطبيعة كل يوم تحت
الحصار والمداهمة المستمرة لقوانين الهلاك ؟

وعلمت أن البشر كالطبيعة ينطوى على قوة للحياة
.. وأن الطبيعة وان الطبع لهما قوة للنجاة ، وقوانين
للنجاة .

ان قوانين النجاة أقوى من قوانين الهلاك ..

اذا كان الغرق قانون طبيعي نافذ ، فالطفو أيضا
من قوانين الطبيعة النافذة .

اذا كان الجشع والظلم والبطش طباع بشرية
غالبة ، فالمقاومة والدفاع والتضامن وحب العدل طباع
بشرية أغلب منها .

وان الفضيلة والرذيلة مقاستان بهاتيك القوانين
بكل بساطة : كل ما يهلك الانسان والزرع خطيئة ..
والفضيلة هي ما يحيي الزرع والانسان ! ..

صفق الحاضرون لى طربا .. وتمايلوا من السكر، وهتف أحدهم :

ـ لله درك يا عبدالله ، أتيت بما لم يأت به الأوائل من الشعراء ، فغننا صوتا من أصوات حكمتك ..

فضربت أوتار عودى بقوة ، وفكرت فى ولدى الذى أنتظر ولادته فوق ..

وصحت بأعلى صوتى آملا أن يسمعنى :

ـ وهبتك يا ولدى للقلق والمعرفة .

وهبتك للتجربة والأخطار والنجاة ..

للطبيعة وللانسان ولعناية الله ..

ثم غنيت له بصوت قوى :

« لا تخف يابن الرياح »

« من أعاصير الرياح »

« لا تخف يابن الحياة »

« من تباريح الحياة »

« لا تخف يابن الطبيعة »

« من تصاريف الطبيعة »

فكل من كان حاضرا صار يصيح : آه ·· آه

وما أفقنا الا باندفاع احدى الخادمات في مجلسنا وصياحها :

ـ قم يا عبدالله بارك لزوجتك ولولدك الذى أتى الساعة للقياك ··

فهب ضيوفى يرحبون بالمناسبة ،وأهدانى كل منهم هدية ·· ولكن ولدى كان هديتى الغالية ·



الفصل التاسع عشر :

الصين

ما الذى دعانى لركوب البحر ؟

سؤال كان يصرخ فى عينى حيـاة وهى تودعنى وطفلى على كتفها ينظر الى بعينين بريئتين .

مرض لم يشفنى الله منه .

لا أجـد جوابا غـير انه مرض اسـتحكم بنفسى ولا أشفى منه .

ملل وضجر واكتئاب ..

لا تسألينى يا حياة . لا يسألنى أحد ..

لا المال مطلبى ولا الثروة بغيتي وعندى منها الكثير، ولكن قلق النفس يدفعنى الى السفر ، حملت تجارتى الي البصرة ، وحدثني جابر عن سفينة تقصد الصين ، ولم

أكن قد سافرت اليها من قبـل . فسرعان ما اكتريت عليها وكنت فوقها والسفينة تختال فى عرض البحر .

انتقلنا من مرفأ الى مرفأ ونحن في أحسن حـال ، نبيع ونشترى ونتفرج على عمارة جزر البحر .. حتى صرنا في بحر الصين الكبير .

قضينا أياما طويلة بين الماء والسـماء نستعجل الوصول ونقطع السـاعات الطويلة بالسـمر والغناء ورواية القصص . حتى فاجأتنـا صيحة القبطان ذات نهار رائق :

ـ يا أهل الله .. لقد هاجمتنا الحيتان البيضـاء الكبار فخذوا حذركم .

فأطل كل منا من جهته الى البحر ورأيت على مسافة من السفينة حوتا كبيرا ابيض يقفز فى الهواء ويرتطم بالماء فيرتج البحر كله من حوله حتى تتمايل السفينة ويترنح كل من كان على ظهرها أو يسقط فيتشبث بأقرب شيء اليه من الخشب أو الحبال .

وقد أطل برأسه من المـاء حوت آخر كبير أقـرب ما يكون الى السفينة ، وحدجنـا بعينه التى رأينـاها قبالتنا وهو يشق الماء بقربنا ..

ثم امتلأ الماء بهم ..

هتف القبطان لبحارته :

ـ ادفعوا قاذفات الرماح ..

وتعالت أصوات البحارة : قاذفات الرماح . قاذفات الرماح .

وقال الريس : تشبثوا بالحبال .

وصاحت البحارة : الحبال . الحبال ..

فتدلت الحبال من الاشرعة وقيد كل رجل نفسه بطرف من أطرافها . بينما دفع البحارة آلات قذف الرماح وهى أشبه بأقواس النشاب القوية وثبتوها على جانبى السفينة .

ورأيت حوتا يندفع نحو السفينة بقوة . وصاح الريس : الدفة لليسار . ثلاثون درجة .. لليسار .

تجاوبه صيحات البحارة : ثلاثون درجة لليسار ..

فارتجت السفينة وهى تنحرف عن مسار الحوت المهاجم نحو اليسار . والقبطان يصيح : رماح اليمين .. صوب .. أطلق .

فاندفعت نحو الحوت ثلاثة رماح قوية اخترقت

جسمه فتفجر دمه فى نافورات ثلاث ، فغاص في البحر يترنح وارتجت السفينة بدفع الماء من حوله فسقط أحد البحارة فى الماء وصاح القبطان : الحبال للغريق!

فرمى له البحارة حبلا تشبث به •• ولكن الحوت أدركه وابتلعه على الفور مع طرف الحبل •

ولكن البحارة انشغلوا من جديد بأمر القبطان : رماح اليمين استعد ••

وكان الحوت الكبير المهاجم من يمين السفينة قريبا جدا ••

صاح القبطان : اطلق !

فانغرست في جسده الرماح ولكن السفينة ارتجت بشدة ، فوقع جزء من الشراع العرضى ودفعنى فى صدرى فقذف بى فى البحر ، وبلغتنى صيحة القبطان حبال للغريق ••

ووجدتني سقطت فوق جسد الحوت تماما ، وبين الرماح المرشوقة في لحمه تتفجر تحتها نوافير الدم ، فأمسكت بالرماح بقوة حتى لا أسقط فى الماء فيبتلعنى كما ابتلع رفيقى • ولكنه غاص فى البحر يتقلب من الألم، وأنا متشبث بالرماح أدفعها بغير وعى فى جسده •

وغمرني الماء حتى أيقنت من الغرق ، ولكن الألم دفع بالحوت الى صفحة البحر من جديد وقفز في الهواء وأنا فوقه حتى خلت انى حاذيت ناظور السفينة ، ثم سقط في الماء يشقه بسرعة تثير الدوار ، وتخيلت ساعتها أنني كنت قد سمعت الناظور وآنا بحذائه يصيح : جزيرة ! .

ولعل حب النجاة قد هيأ لى مالم آسمع في الحقيقة .. ولكن أملا راودني حين تذكرت انى سمعت في أحاديث البحارة ذات يوم ان الحوت اذا جرح وسال دمه عمد الى المياه الضحلة قرب الشاطىء خوفا من هجوم أسماك القرش .

كنت في عمق الماء آكتم آنفاسى وآتشبث بالرماح من حولي وقدماى على ظهر الحوت الذى يشق طريقه بسرعة فأحس كأن تيار الماء يريد أن يقتلعني من موقعي وأنا أقاوم مقاومة المتشنج ..

ثم آنا في الهواء فوق حوت طائر يشق الهواء في قفزة عالية فيكاد الريح يقتلعني وآنا آملأ صدرى بالهواء وأحس دماء الحوت تتدفق حول قدمي ورشاشها يصفع وجهي فأغمض العينين .

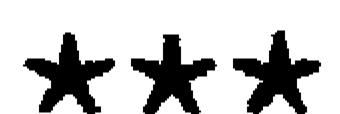
فاذا فتحت عيني برهة هالني أن صفحة الماء مرشوقة بزعانف أسماك القرش تحوم حولنا وتتهيأ للهجوم على الحوت المحتضر وأنا فى مركز الهجوم تماما حيث أنى أقف فى حمام الدم الذى تقصده هذه الوحوش الكاسرة ٠

ـ أسرع أيها المنكود ٠

كل شيء فى كيانى يصرخ بالحوت ويهيب به أن يمرق من بين أعدائه بما تبقى له من قوة ٠

فى عمق الماء من جديد أحسست بهجوم الأسنان البشعة ، تقتطع من الحوت قطعة وترتد على أعقابها بينما يهجم الآخرون ٠٠ تحت أقدامى لا أكاد أراهم فى عكار الدم حول المعركة ٠٠

الآن فى الهواء وقد تعلقت أنياب الوحوش البحرية بالجسد ٠ وسقطت قبل أن يسقط فيرتطم بالأرض الضحلة ارتطاما أطير له أنا فى الهواء لاسقط على شاطىء بين الأرض والماء فيدفعنى الخوف بآخر مابقى من قوتى الى الارض الطيبة حيث يشملنى الظلام فيلتهم آلامى المبرحة فى غيبة عميقة ٠



لا أعرف كم ساعة أو كم يوما قضيت فى غشيتى ، ولكنى عندما صحوت ونظرت ٠٠ رأيت الحوت يكاد أن يكون هيكلا عظميا بلا لحم وقد تناثرت أشلاؤه في بحر من الدماء ٠

أنا عطشان !

أمامى رمال فوق رمال ، وورائى بحر مالح أحمر من الدماء ٠

تحاملت على نفسى ومشيت وانا بين اليقظةوالنوم ٠ أحسست بالشمس تميل فى الافق ثم أحسست بها فى كبد السماء وأنا لا أعرف يقظان أنا أم نائم ، ولكنى أحس بأنى أمشى على قدمى فى رمال بعدها رمال ٠٠

كنت فى وسـط قرية مهجـورة ، وأمامى بئر ٠ تحاملت على نفسى وتعلقت بجداره ، وجدت الدلو ولم أجد الحبل ، وجدت الحبل لم أجد الدلو ٠ ملت بجسدى فوق الجدار أطلب الماء بيدين ممدودتين فلا أرى أمامى غير ظلام لا آخر له ٠٠ فأنادى :

ـ ادركونى ياأهل الله !

أسقط على ظهرى فتبهرنى الشمس ، أظلل عينى

وانظر حولى فاذا آنا فى رمال بعدها رمال · لابئر ولا قرية ولا بشر فأغرق فى الظلام ·

أحس وانا فى الظلام آن شيئا آلقى على جسدى · أتمنى ألا أكون قد مت والنـاس تهيل عـلى التراب ، أريد أن أتحرك ليعلموا آنى حى ·· فلا أستطيع ·

برد يلفح وجهى ·· رشاش ربما · أغيثونى من الظلام ··

★★★

اشم رائحة حساء · افتح عينى · كل شىء غائم من حولى ولكنى احس بشىء جامد بين اسنانى وسخونة حول فمى ··

أطفـال فى البحر يرش بعضهم بعضا بالماء · ثم صيحة غريق !

الأطفال يهرولون نحو الشاطىء ، وآنا آنظر اليهم بخوف وغير فهم وجسمى يطفو على سطح البحر وأريد ان أصيح لست غريقا بعد فأدركونى · ولكن لاصوت لى ·

هجوم اللصوص على القافلة ·· اشتباك بالسلاح · اللص ذو الوجه المندوب يدق المقلاع برأسى وله وخز الابرة فى أذنى ··

اريد ان انتفض من الالم فأحس بيد تدفعني وابرة في أذني تغوص ٠٠اريد ان افتح عيني ولكنى لا ارى الا وسادة عليهـــا ابر طوال ٠٠ ونـار تلفحنى من كل جانب ٠

★★★

أفتح عينى ٠ لا آذكر من آنا ٠ لا آعرف أين أنا ـ فوقى كوخ وحولى أشياء ٠ آريد آن آتحرك فأجد نفسي أتقلب على فراش ٠٠

وجه يطل على من فوق ، عليه ابتسـامة وعينين عجوزتين صافيتين ٠ أهمس :

ـ من انت ٠

فيقول : سنياهامى ٠ سنياهامى ٠٠

ـ لا أفهم ما تقول ولن تعرف ما أقول ٠ حياك الله يا منقذى ٠٠

ـ سنياهامى ٠ سنياهامى ٠٠

ـ أية لغة أنقي استغاثتي وقيامك بالنجدة ٠٠ لقد تفاهمنا والحمد لله ٠٠

أريد آن أنام ٠٠

أستيقظ من سخونة لفحت وجهى · الشيخ يقدم لى الحساء ·· أشرب وأنام ·

أصحو على لغط وهمهمات فأجد نفسى أتأرجح على سرير يحمله أربعة رجال · الطيور فى السماء · منقذى يضع جنبى قربة ماء وبعض فواكه · الرجال يمضون بى وهو يبتسم وجمهرة من الناس تنظر من حولى ··

ـ بارك الله فيك ·

الطريق طويل ، نمت معظمه وصحوت أقله ·· السرير يتأرجح دائما · الرجال يهمهمون بأغنية رقيقة · أحدهم يطل على من فوق ويجس جبينى بيده ·

أطل برأسي ·· ناس كثيرون يطلون على برءوسهم · السرير قد تم وضعه على حوامل ثابتة فى الأرض · حولى أكواخ وناس كثيرون ·· وكل من أطل على يقول:

ـ ميناهايا ··

ويمضى الى سبيله ··

الى أن أطل على شيخ عجوز وقال :

ـ انت عربى أيها الغريب ·

فكدت أقفز فى الهواء من الطرب ..

ـ نعم عربى ياعم . ملاح عربى .. أين أنا ؟

فوضع الشيخ يده على صدرى وأعادنى الى فراشى برفق :

ـ لا بأس عليك ومرحبا بك .. انت ضيفى فلا تقلق .. انت فى الصين .

يا رحمة السماء.. ظللى بجناحيك الناس أجمعين.

صاح الشيخ بالرجال الذين حملوا سريرى الى داره ونقلونى الى فراشه وانصرفوا ضاحكين متفكهين يقولون : سيهاهى .. انتو ماسيهى ياها ..

خرج العجوز وغاب برهة ثم عاد يدفع فتاة صغيرة جميلة وهو يقول :

ـ أنظرى يابنتى كم هو ضعيف ويحتاج الى رعايتك .

ونظرت البنت بعينين يلمع فيهما الحنان :

ـ لا تقلق يا أبي .. سيشفى باذن الله .

الفصل العشرون :

زواج اكتمال القمر

قال لى الشيخ :

ـ الميناء القريب من هنا يا ولدى هو شين جى حيث تأتى السفن من العراق وعمان ٠

فقلت : هل ستأذن لى ؟

قال الشيخ : وهل مللتنا بهذه السرعة ؟ ٠

قلت : لا والله ٠

وقالت البنت : حتى تشفى تماما ٠

★★★

كانت البنت ترعانى كأب أو كزوج ٠

وكانت تمشى معى فى الحقول بقدر طاقتى وتجمع الزهور لى وتحادثنى فى كل شىء ٠

أقول لها : لا أعرف كيف أشكرك ٠

فتقول : لا تقل لى هذا أبدا ٠

ــ لا ينكر الفضل الا لئيم ٠

ــ مازلت ضعيفا وتحتاج الكثير ٠

ــ لست ضعيفا ٠

ــ أن جادلتنى سأتحداك ٠

ــ هيا تحدينى ٠٠ فلنتسابق ٠

وجرينا فى الحقول كطفلين ٠٠ ولكن قلبى خذلنى فقعدت وأنا ألهث وأقول :

ــ لقد نسيت ، ولكن قلبى ذكرنى ٠٠

ــ أى شىء نسيته وذكرك به قلبك ؟

ــ نسيت أنى درت حول الخمسين ، فرحم الله الشباب ٠

قالت : وكيف قضيت شبابك ؟

قلت : أتعلم ٠

كنا ذلك المساء قد فرغنا من العشاء و نحتسي الشاى فقالت البنت فجأة :

ــ وماذا تعلمت ؟

وملأت ناظري بجمال وجهها الصغير البرىء ومسحة السؤال الصريح يضفى عليها براءة ، وحلاوة مع الفضول

قلت : مع انى آجيب هذا السؤال طول عمرى على أوجه مختلفة · فان عندى اجابة جديدة اليوم ·· نعم · تعلمت ان الحب أقوى من غريزة الامتلاك · وان ضجرى فى بلادى يرجع أيضا الى آنانيتى وطابع الاثرة وحب الذات عندى ·· فقد نسيت حبى للحيــاة فى انقاض احساسى بفقدان ما آحب ومن آحب وشهوة الاسترجاع التى تنبع من نفس وريد الغضب الذى تنبع منه شهوة الانتقام ·· لذلك ضجرت حين استرجعت ما فقــدت وهان على ما استرجعته بعد مشقة ونسيت حبى له ·· الآن أتعلم ان الحب يمكن أن يكون بريئا عن شــهوة الامتلاك ، وان الغفران يمكن آن يجبر اصداع القلب فيحيا الانسان مع من يحب حياة جديدة تتجاوز بالنسيان ما كان · واذا كان الانســان ينشد السـعادة فانه هو الذى يصنع السعادة أيضا كما يصنع الشقاء لنفســه بنفسه · الآن وداعا للشعور بمرارة ما آلم بالنفس فى

طلب السعادة واسترجاع ما نحب ، ووداعا للضجر فى البيت وفى الوطن ، فلو أعادنى الله هذه المرة سالما الى بلادى فانى أعود الصبى الذى كان ينعم بالحياة وبالحب وصفاء الحياة كما كنت قبل رحلة الآلام ·· الآن عرفت ان أصل الأشياء عندى هـو ذلك الصفاء والسـماحة والطمأنينة التى عبرت الآلام فى طلبها ثم نسيت انها كانت مطلبى وغايتى وراحة قلبى ··

وقفت البنت أثناء حديثى وقد اضطرب وجههـا وجرت الى الخارج كأنها تريد أن تبكى وحدها ·

دهشت وسألت أباها

ــ ماذا بها ؟

قال الشيخ : أيهـا الرجل السـاذج ، تزعم انك تعرف مكنون نفسك ولا تستطيع أن تقرأ عيون صبية صغيرة مثلها ؟

ــ لا أفهم ·

ــ أفهم أيها الكهل · البنت تحب ·

ــ أتعنى ··

ــ نعم ··

ـ انها ..

ـ نعم ..

ـ أنا ؟

ـ ولما أظهرت الحنين الى بلدك وأهلك غلبها الحزن.

ـ ولكن ..

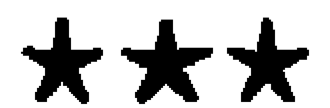
ـ أعرف ما تعنى . فارق السن .

ـ أيها العم ..

ـ اسمع يا ولدى. آنا رجل عجوز لم يبق من عمرى الكثير . وسأترك ابنتي للحياة صغيرة ووحيدة ، وأحب أن أهبها لك ليطمئن قلبى . انها ذات خيال وذكاء . خذها معك الى بغداد دار السلام ، ابنة متبناة أو زوجة أو ما تشاء فانى أحب أن تعيش ابنتى من بعدى فى ديار الاسلام .

قلت : بل زوجة ياعم ، فما أريد لها أن تشقى بحبها لى ..

قال : اذا اكتمل القمر فى السماء .. تتزوجان على تقاليدنا باذن الله .



أكتمل القمر وقد تهيأت القرية للاحتفال بالزفاف فاجتمعت الفتيات حول العروس يكملون زينتها ثم التأم شمل الناس فى ساحة القرية حيث اجتمع الموسيقيون فى جانب يدقون طبولهم وينفخون فى أبواقهم وأخذنى الشباب الى ناحية من الساحة بينما أخذت الفتيات عروسى الى الناحية الأخرى وبدأ الرقص والغناء على نظامهم ٠

انتشرت حول الساحة أطباق البخور وكانت له رائحة قوية نفاذة تزيل التوتر وتريح الجسد وتثير الخيال وتحلق بالنفس فى أجواء بديعة بحيث يزداد كل شىء جمالا وعمقا وشفافية ٠

اقتحم الساحة فجأة مجموعة من الشباب على هيئة الطيور الجارحة يرقصون رقصة عنيفة وهم يصفقون بالأجنحة ٠

ثم اندفعت العروس وسطهم ترقص على ايقاعهم وكل من اقتربت منه يختطف جزءا من ملابسها فتندفع صاحباتها الى الحلبة يغطون بالزهور ما تعرى من جسمها ٠٠

داهمنى غضب وأحسست بالنار تجرى مع دمى فى

العروق واندفعت بين الراقصين أطلب انتزاع البنت من بينهم فصاروا يصفعونني بأجنحتهم حتى غلبوني على أمرى ورفعوني فوق الأجنحة وخيل لى أنهم قد طاروا بى فى الهواء ، فصرخت من السخط ومن الهلع ·· وأنا أرقب اقترابنا من قرص القمر واتساع دائرته ، فلما بهرني ضوؤه انطلقت من حلقى صرخة : لا اله الا الله!

فتفرقت الطيور من حولى وأخلوا سبيلى لأسقط من حالق وقد أيقنت انى هالك ·

ولكنى ذهلت حيث وجدتنى أهبط على الأرض برفق وأقف على قدمى ·· وتقدم منى طفلان فى يد كل منهما قضيبان من الذهب يدق الواحد بالآخر فيصدر رنينا واضحا ·

قال أحدهما : اذا رأيت التنين فلا تخف ، واضربه بقضيب الذهب حتى يموت ، وعندئذ ستجد زوجتك ·

وسلمنى القضيبين فى يدى ودفعنى الى وسط الساحة حيث طلع على تنين أحمر عملاق ، يتطاير الشرر من عينيه ويزمجر فى غضب·· فمن فزعى هجمت عليه مثلما هجم على وضربته على رأسه بالقضيبين فراغ منى ودار حول نفسه ثم عاد يهاجمنى أبشع مما كان ·· فما

أن اقترب رأسه المروع منى حتى عاجلته بضربتين فصرخ صرخة عالية وانقلب على جنبيه فاندفع نحوه الشباب يصيحون ويضربونه ، بينما تبدت لى عروسى من فوق زحامهم تقترب نحوى ، فى كوكبة من النبات وقد اكتست تماما بالزهور والأطفال حول الساحة فى يدى كل منهم قضيبان من الذهب يدق الواحد فوق الآخر على ايقاع الموسيقى العالية .

ولكن الذى سلبنى كل رشد أنى رأيت القمر يكبر حجمه ويقترب من الساحة ويسطع ضوؤه بينما دخان المباخر يتكاثف والناس تقترب من حولى وعروسى تطمئن على صدرى .

★★★

عشت فى هناء مع زوجتى، لا يقلقنى غير مايصيبه أباها من ضعف ووهن ، وما يصيب ابنته من قلق وخوف .

قال لى أبوها وهو على فراش المرض :

ــ اذا قضيت ، فهل عندك من المروءة أن ترعى ابنتى من بعدى .

قلت : عماه . لقـد رعتنى ورعيتنى فى ضعفى واحتضارى فهل تظننى أنسى ؟

فأغمض عينيه وهو يذكر اسم الله .

لم يلبث أبوها ان مات ، فأخذت أبيع أملاكه حسب وصيته وأتجهز للسفر مع ابنته الى بلادى .

اشتريت بالمال متجرا وسافرنا الى شنجاى واكتريتا على سفينة عربية متجهة الى البصرة .

كانت زوجتى فى أحسن حال تتلهف على رؤية بغداد وقد زايلها الحزن وتطلعت الى حياة جديدة .

الا أن دوار البحـر غلبهـا عـلى أمرها بعد أيام فمرضت وأخذت أعنى بها أنا والقبطان ومساعدوه ، وأحكى لها عن غرائب البحر وعجائب بغداد .

ولكن عجبى صار يزداد من ازدياد ضعفها . وخيل لى ان فتاتى الجميلة الطيبة تزداد شفافية ورقة اليـوم بعد اليوم .

كانت تذبل أمامى دون أن تتوجع .

وفى ليلة قالت لى : القمر مكتمل الليلة .

قلت : كيف تعرفين وانت فى باطن السفينة .

قالت : أحصى الوقت ٠

قلت : هو مكتمل كما تقولين ٠

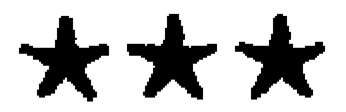
قالت : خذنى الى ظهر السفينة لأريك شيئا ٠

فحملتها الى ظهر السفينة وأرقدتها على فراش مرتجل فأشارت بيدها الى القمر وقالت :

ـ اذا تغير شكل القمر بحيث طابق وجهه وجهى فانى قد ذهبت ٠

فظننت ان تخاريف المرض هى التى أملت على محبوبتى قولها ، ولكنى حين نظرت الى وجه القمر رأيت وجهها فيه ، فنظرت اليها فوجدتها قد ماتت، فلم أصدق عينى وصرخت من روعى صرخة جمعت البحارة والتجار من حولى مشفقين على ٠

انخلع قلبى لموتها وصرت أبكى كطفل فقد أمه فى الحريق وذهلت عن نفسى وعن رفاق سفرى وهم يقيمون طقوس الجنازة كالمتبع فى البحر ٠ وسمعت النفير والآذان ورأيت جسد حبيبتى يهوى فى البحر ٠



عودة الغائب

ابتلع البحر جسد حبيبتى الصغيرة ..

وغرقت أنا فى استظهار أحزانى وأيامى .

لماذا يسافر المرء ، ولماذا يحب ، ولماذا يعود الغائب وحيدا .

زهدت فى البيع والشراء ، ولبثت فوق السفينة لا أبرحها .. وأصدقائى من التجار والبحارة يهبطون الى الموانى ويعودون أكثر مرحا وأكثر صخبا مما ذهبوا ..

والسفينة تنتقل من جزيرة الى جزيرة فى بحر الصين وتستشرف آفاق البحر الجنوبى وتعود فتدور نحو البصرة .. وبيننا وبين البصرة آلاف الفراسخ ومسافات يزيدها الحنين مسافات .

لم تبرح خيالى صورة حياة وطفلى وأربعة عيونهم دامعة تودعنى .. الآن ست عيون دامعة لا تعرف لماذا كتب علينا السفر فى بلاد الله وبحار الله الواسعة .

وأقسى ما فى السفر الا يعرف المسافر قصده ووجهته ونهاية رحلته .

★★★

كنت فى عرض البحر لا أعرف موقعى من الدنيا حين تلقت حياة استدعاء من قاضى البصرة فأخذت ولدى من كفه وسافرت الى هناك .

دخلت حياة بيت القضاء ووقفت بين يديه وفى يدها ولدى تقول :

ـ طلبتنى يا مولاى القاضى .

فقال القاضى للحاجب : ادع لى الريس فضل الله .

وتفرس القاضى فى وجه حياة وقال :

ـ انت زوجة عبدالله بن عثمان المعروف بالسندباد وساكن حارة الكرخ ببغداد ؟

قالت حياة : نعم يا مولاى .

ـ وعندك ما يثبت ذلك ؟

ـ هذه شهادة بذلك من قاضي بغداد ٠

ـ وهل له منك ولد ٠

ـ هذا ولده عبد الله ٠

ـ وهل عندك ما يثبت انه ولده ؟

ـ هذه شهادة بذلك من والى بغداد صدق عليها القاضى أيضا ٠

ـ منذ كم من السنين سافر عبد الله ٠

ـ سافر بعد ولادة الولد بستة شهور كاملة ٠

ـ ولنا وقت ونحن نبحث عنك ونطلبك ٠

ـ ما ان تلقيت الطلب حتى أتيت ٠

ـ اعلمى يا سيدتى ان عبد الله بن عثمان مات ، وأوصى لك وللولد بماله ٠٠ والصبر من الايمان ٠

وهل يغنى المال عن الحبيب ؟!

★★★

في اليوم التالى حضر الريس أبو الفضل وقدم أمام القاضى تجارة السندباد وماله ووصيته وسأله القاضى وأجابه ، وحكى ان عبد الله سقط من السفينة أثناء

هجوم الحيتان الكبار عليها ، فلما نجت السـفينة من الهجوم باذن الله أحصى القبطان تجارة السندباد وماله ، وتولى الـوكالة عنـه فى البيع والشراء ، وكانت فى متاعه وصية حفظها الى أن يسلمها الى قاضى البصرة مع المال ٠

أقامت حياة وولدها عبد الله فى خان جابر الى أن يتم بيع تجارة السندباد ٠

بعد العصر ذات يوم جلسـا حـول النافورة ولحق بهما جابر وقد غلبته الشيخوخة ، وتذكر جابر بهمـا ما كان من أمره مع السندباد ، فأخذ يروى طرفا من أحاديثه معه ، حتى انهمرت دموع الصبى عبد الله ، وأخفى عينيه بكفه ٠٠

فقالت حياة :

ـ لا تبكى يا عبد الله ٠ ادع له بالرحمة ولـكن لا تبكى ، لم يكن أبوك يحب البكاء ٠٠

★★★

لم يكن أهل الخان يشغلهم ما يجرى بالمرفأ٠ وكانت سفينة ترسو برفق جنب الشاطىء والمنادى يهتف :

سنفينة الصين !

وبعد حين أخذ الحمالون ينزلون أحمـال الركاب بينما الركاب يهبطون على السقالة الخاصـة ويمرون بالشرطى الذى يدون أسماءهم فى السجل ويتحقق من هويتهم ، فلما رأى الرجل سأله :

ـ الاسم ؟

ـ عبد الله بن عثمان السندباد ٠

فقال الشرطى : اسمك ؟

وقال الرجل : عبد الله بن عثمان السندباد ٠

فهتف تاجر فى المرفأ :

ـ يا أهل الله ٠٠ حى يرزق عاد ، عبد الله بن عثمان السندباد ٠٠ أسرعوا الى القاضى وبلغوا أهله فى الخان !

وجرى الناس كل فى اتجاه ٠

أما أنا ، عبد الله بن عثمان فقد أخذنى الذهول مما رأيت ، وسمعت الاشارة الى الخان والى القاضى ومع اننى لم أفهم تماما المقصود فقد استبد بى القلق واللهفة ونحيت الشرطى بيدى وجريت فى الاتجاه الذى يجرى اليه الناس ، فما وجدتنى الى فى مواجهة الخان وقـد

سبقني من سبقني اليه فانشق الزحام عند الباب عن حياة .. وولدى .. فى وجهيهما استطلاع غير مصدق واضطراب لا يستقر فمددت ذراعى أسبق بهما خطاى ومدا الأذرع يسبقان بها الخطى ، فكانا فى صدرى ، وكنت فى صدرهما ، كانا كولدى الغائبين العائدين وكنت كالولد الغائب العائد اليهما من البحار المجهولة ، فيالتلك اللحظات .

★★★

فى الطريق الى بغداد حطت القافلة فى موضع ظليل للراحة ، وقعدت بين حبيبتى وولدى نشرب الشراب ..

ونظرت حياة الى مليا وسألتنى :

ـ ماذا جنيت من اسفارك الطويلة المضنية ياعبدالله؟

فقلت : حبكما . حب ديارى وبلادى وأهلى ..

قالت : اما كان ذلك اقرب اليك قبل السفر ؟

قلت : كان ذلك أقرب الى وكان أبعد عنى .. فما أغرب القلب وما أعجب النفس .

قالت : وهل تتمنى الآن لو انك لم تسافر ؟

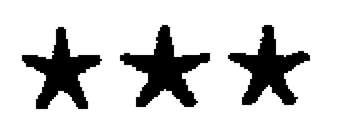
قلت : ولو انى تمنيت ذلك كما تحبين ، اكنا اليوم

فيما نحن فيه من مودة سابغة واجتماع سعيد ؟ تذكرى يا حياة .. قبل سفرى أول مرة أين كنت وأين كنت وأين كان الحبيب عبد الله ، فلو انى لم أسافر هل كنا سنصبح نحن الثلاثة ما نحن الآن ؟

★★★

هذه أوراقى وقصتى كما كتبتها يد الأقدار ، وكما أملتها النفس على . وقد انتهت بعون الله بعد سفرتى وعودتى من الصين ولقائى بأهلى .

أنا الملاح العربى عبد الله بن عثمان المعروف بالسندباد .



انتهت

قصص قصيرة

ليـــالى عـــربيـة

اللص

أنا عثمان الحريرى بسوق واسط ٠٠ كنت ميسورا ، ولى دكانة مليحة ٠٠ وكانت بضاعتي رائجة ٠٠

ذات يوم كنت واقفا بالدكان أبيع للزبائن ، واذ بفتاة ملثمة ذات عينين براقتين تدخل عندى ، فما ان سددت الى نظرة حتى ارتكبت وأخطأت فى احصاء النقود فأثرت غضب زبونة كانت مستعجلة ٠٠

ولا أعرف كيف تخلصت منها ، فان عينى لم تتحولا لحظة عن العينين البراقتين اللتين ما فتئتا تسددان الى نظرة صريحة نافذة ، ثم ينسدل الجفنان بخفر ترتعد له مشاعرى ٠

ولما خـلا الدكان كشفت لثامهـا وتكلمت فتفجر دكانى بالضياء وغردت فيه البلابل ٠٠ قالت :

ــ أبغي قطعا من الحرير الموصلى فأرنى ما عندك ٠

أعطيتها القماش وأنا لا أعلم هل هو ما تريد أم غيره .. الا انها سألتني :

ـ بكم تبيعه ؟

فقلت لها : لو تكرمت على يا سيدتي بقبوله هدية منى ..

فسددت الى نظرة مستطلعة متسائلة ، كأنها تتحرى مقدار ما بى من شغف ولهفة . تتلمس صدق ما غشيني فأبديته من هوى .. ثم قالت هامسة :

ـ نعم قبلته .

التفتت الى خارج الدكان فلحقت بها جارية لها تنتظرها وأخذت القماش ، وذهبتا مختلطتين بزحمة السوق وأنا واقف على باب دكاني أنظر ناحيتهما وقد راحت روحى وذهبت راحة بالى .. فلم أنتبه الا والزبائن تتصايح على حتى أتحول لخدمتهم .

مضى أسبوع وأنا أنتظر فى دكانى بأمل يتضاءل ، وحسرة تتضاعف ..

حتى أتت فى اليوم السابع ، ملثمة براقة العينين، ودخلت الدكان فكأنها ردت الى روحى ، فتعجلت أن

أفرغ لها واغلظت القول للزبائن الآخرين •• فلما أقبلت عليها كشفت نقابها وقعدت فى هالة من ضيائها، وقالت :

ـ ما بك يا عثمان ؟

قلت : قتلتنى •• فليلطف بك الله •• فأرخت جفونها وتخضب وجهها وهمست :

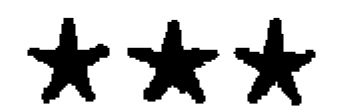
ـ عندى مثل ما عندك يا عثمان فليلطف الله يكلينا ••

قلت : فهل من رجاء ؟

قالت : ما تطلب يا عثمان ؟

قلت : الدكان مطروق ، والناس فضوليون •• فهل أطمع فى لقاء مأمون لأشكو ما بنفسى وأسمع ما عندك ؟ ••

لم ترد • وقامت ، فما استطعت أن أقوم لأودعها وخذلتنى ساقاى ، ومضت غير ثابتة الخطو فانتزعت البهجة من دكانى ، وأغرقتنى فى شرود عميق •



بعــد أيام جاءتنى جاريتهــا ووصفت الى البيت ودعتنى لزيارتها بعد أن تغفل العيون ..

فلما جاء الموعد ، وأرخى الليل ستاره معتمة على المدينة نفذت الى الحارة .. ورأيت الاشارة فوق سطح البيت المقصود : شمعة موقدة .. فلتمست طريقى الى باب الحديقــة خلف الدار ودفعتــه فوجدته مفتــوحا وقصدت جدار البيت فوجدت السلم الخشبى كما وضعته لى الجارية فارتقيت درجاته الى السطح فلفحتنى أنفاس مهــورة فخارت قواى ، وتلمست كتف حبيبتى بلهفــة فاقتربت منى فضممتها الى صدرى .. ولثمت شفتيها باشتياق .

وبالأمر المقدر خذلتنى قواى فاعتمدت عليها فى ذات اللحظة التى اعتمدت هى فيها على فترنحنا محتضنين وسقطنا على الأرض سقطة دوى لها فى سكون الليــل ضجيج ، فانتبهنا فزعين وقد امتلأت الدار بأصــوات المستطلعين .. وهرولة الباحثين والمتسائلين !

نظرت الى الحديقة تحتى فوجدت الخدم ورب البيت يحملون المصابيح والشموع ويتطلعون الى فوق فانسحبت مرتاعا ودفعت البنت لتهبط الى صحن الدار .. فجرت من خوفها وتركتنى حائرا لا أعرف من أى طريق أفر .

ووجدت أمامى بابا دخلته ، فاذا هو جاصل لا منفذ فيه وبه صرة ملفوفة ·· ما آن رايتها حتى توقد ذهنى برهة كافية لتدبير أمرى ·· فحملت الصرة واتجهت الى السلم الذى جئت منه وهبطت درجاته الى مصيرى ··

سمعت صرخة تقول : ها هو اليه !!
فاستسلمت لهم ·

بت تلك الليلة الليلاء فى حجز الوالى ·· نظر الى الحارس باشفاق وقال :

ـ لا تبدو لصا كاللصوص ولا تبدو حتى جائعا أو رث الثياب · فما الذى ابتلاك ؟

قلت : وسوس لى الشيطان ·

وعلمت فى الحبس أن الدار لكاتب فى الديوان اسمه ميسور وله حظوة عند الوالى ··

قدمونى للقاضى فى الصباح بمحكمة تزاحم فيها الناس وتضج بالصخب ، فتمنيت من الله ألا يتعرف على أحدهم فيعذبنى بالسؤال ··

قال القاضى : ما إسمك ؟

قلت : عبد الله ..

قال : عبد الله ابن من ؟

قلت : أنا غريب عن المدينة يا مولاى القاضي ، جعت .. فـزين لى الشيطان أن أسرق تلك الدار فى غفلة من أهلهـا .. وجدت الباب مفتوحـا فاجترأت ودخلت ..

نظرة القاضى حادة وهو يسأل من جديد :

ـ عبد الله ابن من ؟

قلت : فلما شعر أهل الدار بى ، وتنادوا .. خفت وحاولت الهـرب ولـكنهم أدركونى وأحضرنى رجال الوالى عندك وأنا متلبس بالسرقة ومعترف بها ولا حول ولا قوة الا بالله ..

أطرق القاضى وقال :

ـ اعترفت بالتهمة وما سألناك عنها ولكن سألناك عن اسمك فراوغتنا ألا تجيب على سؤالنا أولا ؟

قلت : مولاى القاضى . أنا عبد الله ولن يغنى اسم أبى عما اقترفت شيئا . وقد أدليت لك بما يهم فى القضية .. لا تسألنى فيما عداه .

قال القاضي : عجبا ! أتملى على ما أقول ؟!

قلت : سيدى القاضى لا تغضب فما أبغى أن أغضبك ، ولكن الله أمر بستر الناس ، ولا شأن لأبى بما اقترفت يداى . أنا عبد الله ، وقد عصيت الله .. وانت القاضى ..

قال القاضي : أتتعجل أن أحكم بقطع يدك ؟!

فقلت : أحكم بحدود الشرع ، يا مولاى . ولا أتعجلك ..

قال القاضي : وتبدو قارئا للأحكام ، عارفا بها ، وهندامك وهيئتك تشيان بما تحرص أن تخفيه .. فكيف انت لص يعتدى على البيوت ليسرق متاعا تافها؟!
ونظر الى الأوراق وأكمل :

ــ بعض القماش .. ولا تبدو جائعا كما تزعم
قلت : وسوس لى الشيطان ..

سأل القاضي بتؤدة :

ــ ماذا وسوس لك به الشيطان ؟

قلت : بالسرقة يا مولاى ..

قال : ومع ذلك فلابد أن تصرح باسم أبيك وأن تعرف نفسك للمحكمة .. فهل تفعل ؟

قلت : لا يا مولاى القاضى ..

قال : سأصدر أمرا لحاجبى أن يطرحك أرضا ويوسعك ضربا حتى تقر باسمك وباسم أبيك وهويتك .

فتمالكت وقلت : لا يخيفنى سيف الجلاد بقطع يدى فهل تظننى أخاف عصا الحاجب ؟!

فنهض القاضى مغضبا وصاح :

ـ اخلو المحكمة الى الخارج !

فنشط الحاجب لاخلاء القاعة من الناس وأغلق الباب دونهم ، فقال له القاضى :

ـ اذهب الى دار كاتب الديوان المجنى عليه وصح بأعلى صوتك فى صحن الدار وقل :

« أفى هذه الدار شاهد ينقذ لص الأمس من قطع يده ؟ » فاذا أجابك أحد ائتنى به .

اعترضته قائلا : مولاى القاضى ..

الاعتراف ينسخ شهادة أى شاهد ، فالاعتراف سيد الأدلة .. ولست أراك الا مثيرا الفضائح دون أن يغير فعلك من الأمر شيئا ! ..

ففى تلك اللحظة سمعت جلبة على الباب ، وطرق ملح .. فذهب الحاجب يستطلع الخبر وما آن فتح الباب حتى دلفت حبيبتى تطل من فوق لثامها عيناها البراقتان تتقافزان كعصفورين مرتاعين ..

ـ من أذن لك ؟!

قال القاضى بصراحة :

ـ جئتك من أجل القضية ..

ارتميت تحت قدميها متوسلا :

ـ حلفتك بالله لا تقولى شيئا ..

ـ فقالت : لا تزد ! ..

قام القاضى واقفا يقول للحاجب :

ـ ادع كاتب الديوان من فورك !

وخرج الحاجب وأغلق الباب خلفه ..

وأجلسنى القاضى عن يمينه والفتاة عن يساره ، نحن نرتعش من الخوف حتى جاء أبوها فبادره القاضى:

ـ الفتى جاء بيتك خاطبا يا رجل لا سارقا ، أتقبل شفاعتي فيه ..

فلم يصدق الرجل وصاح :

ـ أتشفع يا سيدى القاضى فى فتى يهتك حرمة بيتى !

ـ نعم فوالله ان اصراره على الاعتراف بالسرقة تسترا على ابنتك يكفى شفيعا له ، ومجىء ابنتك الى المحكمة معرضة سمعتها وسيرتها ، زيادة فى الشفاعة لهما أما شفاعتى فهى أهون من أقدام الاثنين وتفانيهما .. أن لم يكن هذا هو الحب ، فلست أعرف للحب دليلا آخر ، ولا أرى لابنتك حاميا أفضل من هذا الغلام الذى امتنع عن ذكر اسمه فلا أعرف للآن من هو .. فهل قبلت ؟

قعد الأب مغلوبا ولم يجد جوابا فى ساعته .. لكن القاضى فى تلك الليلة كان ضيفه .. حيث عقد زواج الشابين واستمع مع الحاضرين لنوبة أو نوبتين من الغناء ..

العقد

اسمى أسعد بن سعيد ..

وكان أبى من كبار التجار ، فلما اشتد عودى وصرت شابا يافعا أراد أن يدربنى على التجارة والسفر فجهز لى متجرا وخرجت فى قافلة الى دمشق ، فرأيتها مدينة ذات أشجار وأنهار وأطيار فنزلت في خان ثم قصدت السوق فبعت تجارتى وربحت فيها الشيء الكثير وفرحت بالربح فقلت أمكث هنا بعض الوقت استروح وأتفرج على مباهج المدينة .

اكتريت دارا مليحة البنيان وصرت أتلذذ بالمآكل والمشارب والنزهة حتى كاد يفرغ مالى فقلت أعود الى بلادى .. واتفقت مع شيخ قافلة على أن يأخذنى معه بعد أيام ..

وبينما أنا قاعد على باب دارى ذات يوم وهو بحارة رطيبة هادئة لا يمر بها عابر الا نادرا .. اذ مرت بى صبية ذات دلال ترتدى أفخر الثيـاب ويخفي ازارها

معظم وجهها ‥ فتجاسرت وخاطبتها فالتفتت الى فدعوتها فدخلت الباب وعيناها تستطلعان المكان فأغلقت الباب وتقدمتها للقاعة ودعوتها للجلوس فخلعت ازارها فوجدتها بديعة الجمال ففرح قلبى بها وطار لبى ‥

قمت فجئت بسفرة من أطيب الطعام والفاكهة وما يحتاج اليه المجلس من نقل وشراب وبخور ‥

أكلنا وتسامرنا ولعبنا حتى ثملنا بنشوتنا ورقدنا هكذا الى الصباح ‥ فقامت متعجلة لتذهب فقدمت لها عشرة دنانير فضحكت وقالت :

ـ يا فتى ، مهما كنت غنيا أنا منك أغنى انتظرنى بعد ثلاثة أيام أوافيك وهيىء لنا مجلسا كهذا ‥

ودعتنى وانصرفت فكأن قلبى وعقلى ذهبا معها ‥ ولبثت فى شوق أنتظر موعدها ‥ ماوافى موعدها حتى أتت فى ملابس أفخر مما كانت عليها بالمرة السابقة ، وهى تزفل فى الحلل والحلى وعليها هالة من الأناقة وحسن الذوق تزيدها فتنة وسحرا ‥

وكنت قد تهيأت لاستقبالها بما يليق من طعام وشراب وفاكهة ‥ فلبثنا حتى الصباح فى حديث ولعب وغرام غارقين فى نشوة وسرور ‥

فلما أشرق الصباح قامت فارتدت ثيابها ووضعت أمامى كيس نقود وقالت :

ـ هيىء لنا مجلسا كهذا بعد ثلاثة أيام ، واقبل منى نصيبا من النفقات .. فلما ذهبت فتحت الكيس فوجدت به مائة دينار ، قررت أن أشترى لها بها هدية ..

★★★

جددت كراء الدار وألغيت سفرى ، ولبثت شهرا فى ذلك الحـال ، كل ثلاثة أيام توافينى صبيتى حتى سلبتنى روحى وعقلى ولبى .. فنسيت أهلى ، وخيـل لى انى قاعد هنا الى يوم الممات أنهل من لذة الحياة ما لم يكن يخطر لى على بال ..

تمـكن حبهـا من قلبى وتمكن حبى من قلبها ، وقضينا أمسياتنا هكذا ننهل من بحـر الغرام ونروى الأشـعار ونقص قصص الحب والهيـام ونتنهد كمن لا حيلة له فى تباريح هواه .. ثم نعـود الى السـمر والضحك والمناجيات اللطيفة .. فيصفو جونا ويعاودنا المرح ..

توطدت علاقتنا فعلمت ان اسمها سحر وانها بنت بعض الأكابر ولكنها لم تذكر لى أبدا عن أهلها ما يروى

فضولى .. فقدرت انها تخفى عنى نسبهـا خشية ان تفرقنا الأيام فاذهب أتحدث بقصتها أو آفشى سرها .. فكففت عن السؤال .

الا انها لم تكف أبدا عن الالحاح على بسؤالى :

أتحبنى يا أسعد ؟

فأقسم بحبها .. فتطرق وتقول :

ـ الا ان حب الرجال أقصر عمرا من حب النساء . وهذه نكبتى المقبلة فيك ..

فألهج بالاحتجاج على قولهـا حتى تدمع عيونهـا وننصرف الى حديث آخر .

★★★

ذات يوم أقبلت سحر كعادتها فى الموعد ، الا أن صبية كانت ترافقها ..

فلما دخلتا وخلعتا ازاريهما وجدت الصبية الأخرى كالبدر فى التمام ، ذات عينين ساهيتين وابتسـامة ساحرة وضحكة رنانة تنفذ الى القلب .

قالت سحر :

ـ هذه أختى ياقوتة ، وقد أردت أن أسليها وأروح عنها بمرافقتى فهل نثقل عليك بضيافتنا ·

فهتفت :

ـ أنا سعيد بكما ، فرح بتشريفي بزيارتكما ··

وقمت على خدمة ضيفتى الجديدة وآنا مبهور بجمالها وظرفها ·· أحدثها لأذهب وحشتها وآخلع عنها احتشامها حتي استراحت وجلجلت ضحـكاتها واقبلت تؤنسنـا بنكاتها وعذب حديثها ··

خيل لى ان سحر غارت من اختها فى الباطن ، الا انى صرفت خاطرى غير مصدق ، وتأملتها فوجدتها فى اصفى حال تسايرنا باستمتاع ·

حين انتصف الليل وانهكتنا النشوات قالت لى سحر على غير مسمع من اختها ··

ـ اما ترى اختى املح منى واظرف ؟

فلأجل خاطرى دعها ترقد معك الليلة ، فانى من محبتى لها اود ان تستمتع بك ليلة واحدة ··

وسددت الى نظرة استعطاف ، فغلبتني عـلى أمرى فقلت :

ـ حبا وكرامة ٠

وقمت فأعددت الفراش بالداخل وفراش لسحر في القاعة ، وقعدت واختها معها حتى نامت فدخلنا الى فراشنا وانتشينا بهوانا حتى غفت عيناى ٠٠

استيقظت فجأة بعد ساعة ، وكان ضوء الفجر لايزال وليدا الا آن قلقا استطارنى وأحسست بيدى كأنها مبللة فنظرت اليها فوجدتها غارقة في الدماء فكشفت الغطاء عن ياقوتة فوجدتها مطعونة طعنات قاتلة في كل جسدها وهي باردة ودماؤها كادت تتجمد!

قمت فزعا الى القاعة فما وجدت سحر ، فعلمت انها مضت بعد ان قتلت رفيقتها من غيرتها ـ هل هي اختها حقا ؟! ـ داهمني روع وارتعدت أعضائي ٠ طفت بالبيت انظر من الشبابيك والأبواب لأرى هل راقبنا احد ٠٠

خلعت ثيابى وحفرت في القاعة ودفنت الصبية بملابسها وواريتها التراب واعدت الرخام الى موضعه وقعدت جنبه فسالت دموعي وامتلأ حلقي بالشجى ٠٠ دخلت الحمام واغتسلت من الدماء ولبست ملابسى ، وقمت أرد الفرش الى موضعه فاصطدمت يدى تحت

الوسادة بشيء صلب نظرت فيه فاذا هو عقد القتيلة فوضعته فوق صدرى وبكيت ما شاء لى البكاء ..

سلمت الدار لصاحبها وهربت مما انتابتنى بها من هواجس وسكنت الخان وأنا مضطرب أكتريت فى أول قافلة تحملنى الى أهلى ..

مضى أسبوع فى انتظار قيام القافلة فانتهت نقودى وخفت من صاحب الخان أن يطلبنى بكراء غرفتى وتحيرت ماذا أفعل ..

وضعت يدى فى ملابسى فأحسست بملمس العقد ففكرت أن أبيعه ليعيننى ثمنه على نفقاتى آياما حتى يحين موعد السفر ..

فقمت من فورى الى السوق ودفعت بالعقد الى الدلال فأجلسنى فى دكانه حتى عمر السوق فمضى الى الباحة يدلل على العقد فبلغ ثمنه فيما علمت بعدها ألف دينار مما حير الدلال فساوره الشك فى ..

عاد الى الدلال يقول لى :

ـ قد وصل ثمن العقد يا سيدى آلف درهم فهل أبيعه ؟

قلت له بعه : فهو عقد نحاس وجـوهره زائف ، ولا عليك فهو لا يساوى أكثر من هذا المقدار ..

فعلم الدلال ان بالأمر شيئا ، فمضى من فوره الى شيخ السوق وأراه العقد وحكى له ما كان مني والثمن الذى رسى عليه العقد ..

فما أن رأى الشيخ العقد وتحقق منه حتى قام من فوره الى جند الوالى وأقبلوا جميعا عـلى وأحاطوا بى كظلام مطبق وأخذونى الى الوالى الذى ما ان رأى العقد حتى احتقن وجهـه وصـاح بى والشرر يتطايـر من عينيه :

ـ من أين لك به ؟!

قلت فى نفسى : أقول سرقته ويقطعون يدى أفضل من أن أقول صاحبته قتلت بدارى فيقتلوننى بها وتذهب روحى . قلت :

ـ سرقته من امرأة عابرة فى السوق !

فأشار الوالى مغضبا الى رجاله فجردونى من ثيابى وضربونى بالمقارع عـلى بدنى حتى أحـرقنى الضرب فصحت :

ـ أقول الحقيقة !

قال الوالى خلوه !

فارتدوا عنى ..

نظرت حولى حائرا ، ثم غلبتنى الخوف فقلت : سيدى الوالى .. ربما أقول شيئا يمس سمعة بعض الأكابر ممن لا أعرف فاخل المكان لأسر لك بالحقيقة .

أشار الوالى لرجاله فهجموا على وكتفونى ووضعوا فى رقبتى جنزيرا من حديد واقتادونى بصحبة الوالى الى قصر منيف حيث دخل الوالى ولبثت أنتظر مع الجند فى الطريق وقد أحاط بنا السابلة ..

سقانى عابر سبيل الماء فاغرورقت عيناى وتذكرت ما كنت فيه من دعة وهناء حتى قدر الله لى العذاب مع طيش شبابى وقلة تبصرى ..

سألت جنديا بقربى :

ـ قلت لكم سرقته فما قبلتم .. ماذا تطلبون ؟

قال الجندى هذا عقد ابنة الوزير اختفى معها منذ أيام والجميع يبحثون عنها وعنه فاما أن تعترف بالحقيقة وتدل على مكان البنت والا ستلقى العذاب الأليم !

فعلمت انى هالك لا محالة ٠٠

خرج الوالى ودفعنى الجند الى القصر حتى دخلت قاعة فأغلقوا دونى الباب وهم بالخارج وتقدمت فرأيت شيخا قاعدا فى أقصى القاعة بيده العقد وهو يرتعد ٠٠ قال لى :

ـ قل الصدق ٠٠ صاحبة هذا العقد حية أم ميتة؟!

فقلت : ماتت يا سيدى !

فوضع العقد على عينيه وأجهش باكيا ٠٠

قال : قتلتها أيها الفاجر !

فألقيت بنفسى على قدميه ورويت له حكايتى كما وقعت ، فقام مهتاجا ودلف الى داخل الدار وعاد يجرجر بنتا ما ان رأيتها حتى غشى على من الروع ٠٠

كانت سحر !

بكت سحر اعترفت وأيدت حكايتى وهى تقبل ثوب أبيها وتستغفره وتتوسل اليه وتصيح :

ـ اقتلنى يا أبى بذنبى فما رأيت النوم لحظة بعد ان فعلت فعلتى ٠٠ اقتلنى وارحمنى بذنب ما قتلت أختى بغيرتى الهوجاء ٠

دفعها من كتفها للداخل فوقعت على الأرض ثم نهضت تعول ودخلت الدار •

بعد ساعة أفاق الوزير وقال لى :

ــ ما ذنبك انت يا ولدى ، فتلك ابنتي ، وأنا أسأت تربيتها ولم أحمها حتى من نفسها •• لقد رفضت الزواج ممن تقدموا لها من خيرة الشباب ، وكانت تختار بنفسها من تستملحه من الرجال وتتقرب اليه على نحو يحشمه ويخجله فينفر منها ، ثم تمادت في غيها فجاءتك دارك واصطحبت أختها لتختبر محبتك فوقع ما كان مقدرا •

وأخذ الشيخ يسألنى عن أهلى فلما علم انى غريب استضافنى حتى موعد القافلة وودعنى يوم سفرى وهو دامع العينين وحملنى لأبى هدية ونصحنى ولاطفنى حتى خجلت من طيبته وعدله ولطفه •• سافرت الى أهلى فرحبوا بى ، وصار الشباب يسألوننى بالحاح :

ــ وماذا رأيت فى دمشق العامرة ؟!

كتمت حكايتى وسكت ••

أقول فى نفسى : فى دمشق قضيت أحلى أيام عمرى وانتشيت ، وعانيت أفظع مشاعر الفزع والروع •• فلله درك يا دمشق •

الهدية

هو :

أنا نور الدين البستاني ، وقد كنت الابن الوحيد لتاجر من تجار الأقمشة بمدينة البصرة ٠

ولما أدركت الشباب سمعت المسافرين والتجار يتحدثون بجمال مدينة مصر القاهرة فبقيت تلك الأحاديث فى خاطرى مدة ٠

ولما مات أبى جمعت أموالى من السوق وجهزت متجرا من الأقمشة البغدادية والموصلية وجملة من البضائع النفيسة وحزمت أمتعتي وسافرت الى مصر للتجارة والفرجة ٠

أنزلت القماش والبضائع فى خان سرور واكتريت مبيتا بالخان ، ولما أصبح الصبح قمت آشق طريقى في

الأسواق وأنظر الحال · واستقبلني السماسرة وأخذوا منى بعض القماش ونادوا عليه فلم يبيعوا منـه شيئا كثيرا ·

قال لى شيخ الدلالين : يا سيدى افعل مثلما يفعل التجار الغرباء ، فتبيع بضاعتك كلها لأحدالتجار وتأخذ منه حقك على أقساط ·· في كل يوم خميس تمر عليه وتأخذ القسط المستحق لك ، وتتفرج بقية الاسـبوع على مصر ونيلها ومنتزهاتها كما تشاء ··

بعت القماش الى غانم بدر الدين التاجر بالقيسرية وأخذت عليه وثيقة بالثمن وانطلقت أتفرج فى مصر وأنتقل بين مباهجها كما يطيب لى ·

وفي يوم الخميس التالى ذهبت الى السوق وقصدت دكان غانم ·· فلما رآنى رحب بى وأخـذ يسـليني بالحديث ويدلنى على سكك مصر ومغانيها ··

وبينمـا نحن نتسـامر اذا بامرأة دخلت الدكان وقعدت جنبي ، وعلى وجههـا خمـار ، وهى كالزهرة الفواحة يدل عطرها عليهـا ·· فسـلبت عقلى بحسن مشيتها وقوامها ونعومة تصرفاتها ولفتاتها · ثم رفعت الخمار فنظرت الى بعينين سوداوين من فوق قناع مطرز

•• وسلمت على غانم بدر الدين فرد عليها السلام ، ووقف يتحدث معها • فلما رن في أذني صوتها تمكن حبها من قلبي •

قالت لغانم : هل عندك تفصيلة من القماش المنسوج من خالص الذهب ؟

فأخرج لها تفصيلة من قماشي فأعجبتها وقالت : هل آخذها واذهب ، ثم أرسل اليك ثمنها ؟

تلعثم غانم بدر الدين ، وقال : هذا الرجل هو صاحب القماش وله على قسط •• لم يكتمل مبلغه عندى بعد ••

فهتفت مغضبة : ويلك ! اعتدت أن آخذ منك قطعة القماش وأرسل لك ثمنها أكثر مما طلبته ، وأربحك أكثر مما تريد •• ولكن طائفتكم لا تعرف لأحد قدرا !

ورمته بالقماش في صدره وقامت الى الباب فظننت أن روحي راحت معها ••

قمت وقلت لها : يا سيدتي ، تصدقي على بالالتفات وارجعي الى الدكان ••

فترددت .. ثم استدارت ورجعت ، وابتسمت عن فم لؤلؤى وقالت :

ـ لأجلك رجعت .

أعطيتها التفصيلة وقلت لها :

ـ يا سيدتى هى لك ولا أطلب ثمنا لها غير ان أرى وجهك الجميل ..

تحيرت ، وأغمضت عينيها ثم نظرت الى وجهى مليا .. وابتسمت ورفعت القناع عن وجهها ، فنظرت اليها نظرة أعقبتنى الحسرات ، وصرت لا أملك نفسى ..

ثم أرخت القناع على وجهها وأخذت التفصيلة وقالت :

ـ يا سيدى شرفتنا برؤياك .

ومضت .

قال لى غانم بدر الدين : يابنى لا تتسرع فيغدر بك الزمان ! ان هذه صاحبة جاه وبنت ثرى من الأكابر ورثت عنه مالا كثيرا ، ثم تزوجت ثريا فلم يبق عليها وهجرها وطلقها .. ومن يومها يخشى الرجال الزواج منها لقوة روحها واستبدادها وثرائها ..

بقيت في السوق الى بعد العصر وآنا غائب العقل، ثم رجعت الى الخان وجلست الى العشاء فتذكرتها فلم أصب شيئا من الطعام •• ورقدت فلم آنم •• وسهرت كذلك الى الصباح •

هي :

أحببته •• وخفت منه !

اسمى بدور •• وعندى من المال والجواهر ما تحسدنى عليه بنات الملوك •• ولكنى بت ليلتى صاحية أغسل وسادتى بدموعى !

أوقدت مئات الشموع فى ابهاء قصرى لتذهب عنى وحشتى •• فلا آحسست بأنس ولا هدأت نفسى •

يقول الناس انى قوية الروح مستبدة ، وهذا يجعل الرجال يعرضون عن زواجى ، ويخافوننى •• ولكن يعلم الله ان قلبى ضعيف ، وان نظرة العين تسلبنى عقلى ، وان خوف الغد يضنى فؤادى ••

كنت الزوجة الوفية الأمينة لزوجى السابق، ولكنه كان غنيا عنى بماله وجاهه •• نعم كان غنيا عنى ••

لم يكن جمالى وحسن معاشرتى غير زينة عابرة

في حياته ان وجدها آنس بها ، وان شغل عنها نسيها وأهملها .

لم أجد في كل محاسنى ما يجعله شغوفا بى أو يذكره بما أريد وآشتهى .. حتى كدت أعدم كبريائى وأصبح واحدة من جملة خدمه وآتباعه والمتطلعين لاحسانه ..

عرفت الخوف وأنا زوجته ، وعرفته بعد ذلك وأنا طليقته ..

لذلك عندما استملحت ذلك الشاب الغريب خفت منه ، عندما نظر الى فى دكان غانم بدر الدين وطلب لى بروحه المندفعة الطائشة أن أكشف وجهى .. سلبنى ارادتي كما سلبنى طمأنينتى .

تلك الليلة قلت لجارتي : أرأيت ذلك الشاب الذى لقيناه في دكان غانم بدر الدين فى الصباح ؟

قالت : آورثه جمالك الهم .. اسم الله عليك ..

سألتها : آتحسبين انه بلغ العشرين من عمره ؟

قالت : اسم النبى حارسك .. مازلت تصغرين الناس وتكبرين نفسك ، كانك لا ترين جمالك وسحر عينيك !

قلت : اذا كان الصباح فاذهبى الى السوق واسألى عنه فان وجدته قولى له : سيدتى تقـول مرادنا أن نجازيك على كرمك ، فاذا كان المساء زرنا فى البيت .. ثم صفى له الطريق ووافنى بالخبر ..

أرقت وداهمنى حزن غريب ..

لم يكن حب الغـلام المليح هو الذى أرقنى ، فما أرقنى غير حيرتى وخوفى من غدر الزمان .

هـو :

تلقيت الدعوة مبهوتا ذاهب العقل ، فلما أفقت توجهت من فورى الى شيخ الصـاغة وانتقيت جوهرة ثمنها ألف دينار ..

لم يكن معى ثمنها فمررت على غانم بدر الدين وأخذته الىالجواهرى فضمننى بالبضاعة التى لى عنده .

أخذت الهدية ومشيتالى باب زويلة وركبت حمارا وقلت لصاحبه : امض بى الى الحبانية ، فما أسرع ما وصل بى فقلت له ادخل درب المنقرى واسأل عن قاعة بركات ، فتركنى ثم عاد يقول انزل ، ومشى قدامى الى القاعة فناولته دينارا ذهبيا .

قادتني جارية الى قاعة في دائرها شبابيك مطلة على بستان فيه من الفواكه جميع الألوان ·

وبه جداول دافقة وطيور ناطقة وهي مبيضة بياضا سلطانيا يرى الانسان وجهه فيه وسقفها مطلى بالذهب وفي دائرها زخارف مكتوبة باللازورد ورسوم حسنة ، وأرضها مفروشة بالرخام وفي وسطها نافورة بأركانها الدر والجوهر ، وقد فرشت القاعة بالبسط الحرير الملونة والوسائد ·

فما جلست حتى أقبلت وعليها تاج مكلل بالجوهر وشعرها منسدل على كتفين من العاج فلما رأتني ابتسمت وقالت :

ـ أصحيح انك جئتنا أم انى أحلم ؟

قلت لها : أنا عندك ·

أكلنا أفخر طعام وشربنا أحلى شراب ·· قدمت لها اللؤلؤة فما نظرتها حتى أضاء وجهها بنور واحمرت وجنتاها واضطرب صدرها وقالت بصوت ساحر :

ـ ما أحلى هديتك :

ولم نزل نلعب ونضحك ونتناجى بالأشعار ونقص الحكايات حتى انتصف الليل فقامت وقالت :

ـ أنستنا وشرفتنا . اذا كان مساء الغد فزرنا فى نفس الموعد ولك الشكر .

وانسحبت .. فتركتنى وأنا مسلوب الحواس ذاهل الروح ، فما استطعت الا القيام والذهاب .. وصرت أخبط فى الطرقات لا أعرف لى مقصدا .. حتى وصلت الخان بتوفيق من الله : فرميت نفسى على الفراش وصرت أتقلب عليه بلا نوم حتى الصباح ..

هى :

لم يفارقنى الأرق منذ أول ليلة زارنا .

دفعت جاريتى الى الجواهرى لتثمن اللؤلؤة فاذا ثمنها ألف دينار .

فى اليوم التالى أهدانى خاتما ثمنه ألف دينار ..

فى اليوم الثالث أهدانى عقدا لا يقل ثمنه عن ذلك ..

قلت لجاريتى : لقد بلغت معزتنا عند نور الدين

الشيء الكثير ، وأخشى أن يتكلف ماله علينا ونحن ما بنا حاجة الى المال والجوهر ..

قالت : يا سيدتى .. دعيه ينفق عليك ماله لترى ان كنت أعز عليه من ثروته ، فان ثبت عندك ان ماله لا يغنيه عنك .. تزوجيه وآعيدى ماله اليه وفوقه من مالك ما تشائين ..

قلت : نعم .. سأفعل .

هــو :

فى اليوم العاشر ذهبت كعادتى الى غانم بدر الدين واصطحبته ليضمننى كالمعتاد عند الجواهرى . وبينما نحن فى الطريق قال لى :

ـ أسألك سؤالا وتصدقنى الجواب ؟

قلت : اسأل ما شئت .

قال : أتشترى هذه الجواهر لتتاجر فيها أم لتهديها لمن ليس فى حاجة اليها ؟

فاهتجت من الغضب .. وقلت :

ـ لماذا تسألنى ؟

قال : والله انك تهديها لمن لا يحتاجها •• ويملك منها الكثير •• وأخاف عليك وانت شاب صغير أن تتلف نفسك ومالك فى حب من لا قلب له ، وليس عندك من المال ما تطيق به أن تهدى هذه الهدايا كلها ••

قلت : أتخشى على مالى أم تخشى على مالك ؟ انت تضمننى بما عندك لى من مال فلا تزد •

قال : أنصحك ••

قلت : ولا تنصحنى !

واستمر حالى على هذا المنوال شهرا ••

اذهب فى الصباح لأشترى هدية لمحبوبتى آثمن من الهدية التى اشتريتها فى اليوم السابق •• فاذا أقبل المساء أسرعت الى مجلسها وقلبى يسبقنى اليها ••

وما نزال نتسامر ونتطارح الغرام ، وهى تبدى محبتها فوق ما أبدى •• الى أن ينتصف الليل ••

ففى ذات يوم ذهبت الى غانم بدر الدين كعادتى ليضمننى فقال :

ـ آلا تحسب مالك وما عليك ؟ لقد أصبحت يا أخى

لا تملك درهما ولا دينارا ، وأنا ضمنتك بأكثر مما لك عندى ..

صمقت .. وخطر لى موعد المساء فأصابتنى غمة، فذهبت من عنده أضرب فى السكك لا أبصر ولا أعى ولا أشعر بما حولى .. حتى وصلت دون أن أعرف الى « بين القصرين » ولا زلت أمشى حتى بلغت باب زويلة فوجدت الخلق فى ازدحام والباب منسدا من كثرة الناس ورأيت بالأمر المقدر رجلا مهيبا فزاحمته بغير اختيارى فجاءت يدى فى ملابسه وأحسست بصرة بين أصابعى فجسستها وتأكدت ان بها دنانير فانتزعتها فأحس الرجل بى فقال « السارق ! » وأشار الى ..

وكان أحد رجال الوالى على فرسه بقربى وبيده دبوس فضربنى على رأسى فسقطت على الأرض .. فأمسك الناس بسيور الفرس وصاحوا :

— أمن أجل الزحام تضرب الشاب هذى الضربة !-

فقال الشيخ : هو سارق !

فتصايح الناس : هذا شاب مليح لم يسرق شيئا..

وبعضهم يصدق ، وبعضهم يكذب وكثر القيل والقال والناس تجذبنى وتحاول أن تخلصنى من

أيديهما، لكن جندالوالى أسرعوا يشقون الزحام ووضعوا أيديهم على فى النهاية ·

قال الشيخ :

ــ كان بملابسى كيس أزرق به مائتا دينار · فتشوه ! ··

فسارع الجند الى تفتيشي وأخرجوا الكيس من ملابسى ··

هى :

لم يأت الحبيب تلك الليلة ··

صارت جاريتى تطمئننى ولكنى كنت على يقين ان مكروها أصابه · ألححت عليها أن تخرج الى غانم بدر الدين تسأله فقالت :

ــ الدنيا ليل ، أذهب فى الصباح ··

لم أنم ليلتى ··

كانت جاريتى على باب دكان غانم قبل وصوله فلما رآى اضطرابها علم ان حدثا جللا ألم بنور الدين، فلم يفتح دكانه وانطلق معها يسأل فى الخان وغيره حتى علما بما حدث ·· ما ان وافتنى الجارية حتى جن

جنــونى ·· وضعت قنــاعى وانطلقت بلا تروى الى المحكمة فوجدت حبيبى بين يدى القاضى يقول :

ــ نعم سرقت الرجل ·

والشيخ يهز رأسه مؤكدا ··

غشى على برهة، ثم أفقت فطلبت رقعة كتبت عليها: « أنا مدينــة لنور الدين بنصف ثروتى ، وافتــديه بالنصف الآخر ، فان وقع عليه حد السارق ·· فأولى أن يقع علينا قبله » ووقعتها ودفعت جاريتى تسلمها للقاضى فقرأها وقدمها مع الكيس المسروق الى الشيخ وسأله :

ــ أهذا الكيس سرق منك فى الساحة ؟!

نظر الشيخ فى الكيس ، ثم قرأ الرقعة ·· وأطرق برأسه وقال :

ليس هذا كيسى يا مولاى القاضى لقد أخطأت ولعل كيسى قد سرق فى مكان آخر ، أو سقط من ملابسى فى غفلة منى ··

هتف القاضى :

ـ أفى المحكمة من يدعى على المتهم بسرقة هـذا الكيس ؟

★★★

فران الصمت ..

قلت لنور الدين : أهديتنـا فأغرقتنـا بكرمك ، أكنت تريد أن تهدينا أيضا بقطع يدك ؟!

★★★

ذلك اليوم عقد القاضى زواجنا بالمحكمة ، وعشنا نتذكر الذكرى الأليمة فنضحك بسرور حقيقى !

الفهرس

للمؤلف

٢المسرحيات :

- صوت مصر : (فصل واحد) أنتجت بالمسرح القومى بالقاهرة ١٩٥٦ ٠
- سقوط فرعون : انتجت بالمسرح القومى بالقاهرة ١٩٥٧ ٠
- حلاق بغداد : انتجت بالمسرح القومى بالقاهرة ١٩٦٤ ثم بمسرح الشعب بحلب ومسرح الفن بطبرق ومسرح دائرة الفنون بالأردن ومسرح بغداد بالعراق ومسرح الخليج بالكويت ومسرح الفن العربى بالقاهرة ٠
- سليمان الحلبى : انتجت بالمسرح القومى بالقاهرة ١٩٦٥ ثم بمسرح جامعة الجزائر ٠
- الفخ : (فصل واحد) انتجت بالمسرح الحديث بالقاهرة ١٩٦٥ ثم بمسرح توكاد بلندن وتلفزيون الشارقة ٠

- **بقبق الكسلان :** (فصـــل واحد) انتجت بتلفزيـون القـاهرة ١٩٦٦ ثم انتجت بالمسرح الحـديث بوارسو بولندا ١٩٨١ .

- **عسكر وحرامية :** انتجت بالمسرح الكوميدى بالقـاهرة ١٩٦٦ ثم انتجت بمسرح مدينة الكاف بتونس ومسرح برج الكيفان بالجزائر والمسرح الوطنى بطرابلس ليبيا .

- **الزير سـالم :** انتجت بالمسرح القـومى بالقـــاهرة ١٩٦٧ ثم انتجت بمسرح مدينة الكاف بتونس والمسرح القومى بدمشق ومسرح دائرة الفنون بالأردن والمسرح الوطنى بطرابلس ليبيا ومسرح مدينة البصرة بالعراق .

- **على جناح التبريزى وتابعه قفه :** انتجت أول مرة بالمسرح الكوميدى بالقاهرة ١٩٦٩ ثم انتجت بالمسرح القومى ببغداد والمسرح الأهلى بالكويت والمسرح الوطنى ببنغازي والمسرح القومى بالخرطـوم ومسرح الفن العربى بالقـاهرة ومسرح مدينة صفاقس بتونس ومسرح الشعب بحلب وفرقة مايباخ الألمانية الغربية .

- **الثـار والزيتون :** انتجت بالمسرح القومى بالقـــاهرة ١٩٧٠ ثم انتجت باذاعة برلين الشرقية الألمانية وفرقة معهد الفنون ببغداد .

- **الزيارة :** (فصل واحد)

- **زواج على ورقة طلاق** : انتجت بالمسرح الحديث بالقاهرة ١٩٧٣ ثم انتجت بمسرح مدينة الكاف بتونس وبمسرح توكاد بلندن والمسرح القومي بدمشق والمسرح الوطنى بطرابلس ليبيا ٠
- **الحب لعبة**
- **اغنياء فقراء ظرفاء**
- **وسائل قاضى اشبيليه** : انتجت بالمسرح المتجول بالقاهرة ١٩٨٧ والتليفزيـون العراقى ببغـداد ومسرح الكويت بالكويت ٠
- **وحمة وامير الغابة المسحورة** : (للأطفال) انتجت فى مسرح القامشلى بسوريا ٠
- **الغريب** : (فصل واحد) انتجت لتلفزيـون الجمهورية السورية ٠
- **العين السحرية** (فصل واحد)
- **دائرة التبن المصرية** (فصل واحد)
- **الخان على اوتار عربية**
- **هرديبيس الزمار** (للأطفـال)

وانتجت معظم مسرحيات المؤلف عديدا من المرات بمسارح الثقافة الجماهيرية بمصر ٠

القصص :

- حكايات الزمن الضائع فى قرية مصرية (رواية)،
- أيام وليالى السندباد (رواية)،
- مجموعة قصص قصيرة

كتب اخرى :

- دليل المتفرج الذكى الى المسرح
- الملاحة فى بحار صعبة (مقالات)،
- صور أدبية (ترجمة)،
- أضواء المسرح العربى

يرجو المؤلف الفرق المسرحية ومؤسسات التلفزيون والاذاعة، الحصول على اذن كتابى منه قبل انتاج اى من أعماله مراعاة للتقاليد الثقافية والحقوق القانونية .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٨٩/٥٣٢٨

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٢٢٠٩ ـ ٤



الهيئة المصرية العامة للكتاب

كتاب كثيرون كتبوا قصة السندباد البحرى فى لغات متعددة . ولكن الفريد فرج يكتبها باسلوبه الخاص فى استلهام التراث ، ويدخل الحكاية السحرية من مدخل فريد هو حياة السندباد الخاصة .. حبه وعلاقاته الاجتماعية المعقدة واختفاء حبيبته وبحثه عنها .

إن أيام وليالى السندباد هى قصة حب واغتراب وبلاد عجيبة على شواطىء المحيط الهندى . ولكن اغرب ما فى القصة هو قلب الأنسان .

ومع أيام وليالى السندباد يختار الكاتب ثلاث قصص مثيرة من الف ليلة وليلة ويضمها الكتاب الثانى فى هذا المجلد بعنوان «ليالى عربية» .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

٤٢٥ قرشا